الخليج العربي لشراء السلاح وإرساله إلى أفغانستان ضد الاستعمار البريطاني[31]. وندعم هذه الفرضية بأن مجيء الأفغاني إلى دبي في فترة حكم الشيخ حشر بن مكتوم والتي هي تقريبا مابين 1859- 1886م، وهي فترة انتعاش تجارة السلاح في الخليج العربي ودبي. لذا فتجارة السلاح قد تجيب على جزء كبير من السؤال الذي طُرح: لماذا جاء؟

محطة أبوظبي

في بداية قدومه مكث محمد عمر الأفغاني ومعه ثلاثة من الأفغان في أبوظبي[32]، وعمل إماماً للمصلين في مسجد "مطر بن مطر"، وكان من بين المصلين بعض شيوخ أبوظبي من آل بوفلاح[33]. وبقي الرجل في كنفهم، باعتباره رجلاً صالحاً، لا يرون فيه ما يثير الريبة، إلى أن بدأ يظهر لهم الكرامات[34]. يقال إن حادثة الخنجر كانت الحادثة الأولى التي بها كسب الأفغاني قلوب الناس وبداية ذيوع صيته في أرجاء المعمورة.

يذكر الشيخ عبدالرحيم: "رأى الأفغاني أحد أبناء شيوخ أبوظبي يحمل خنجراً، فأمسك بيده وقال له ماهذا؟! فرد عليه: خنجر نقاتل به

---

(31) أثناء قيام الحرب الأفغانية الثالثة 1879م تدفق عدد كبير من الأفغان إلى مياه الخليج للتزود بالأسلحة عبر ميناء جوادر العماني على ساحل مكران، راجع : فاطمة بنت محمد بن سليمان الفريحي، تجارة السلاح في الخليج العربي1297 - 1333هـ / 1879 - 1914 م. دارة الملك عبدالعزيز، سلسلة الرسائل الجامعية، 1425هـ / 2004 م . ص117.

(32) لم يوجد أية أخبار عن الأفغان الباقيين.

(33) خالد البدور. صفحات من تاريخ الصوفية بدولة الامارات العربية المتحدة، سيرة الشيخ عبدالرحيم المريد، 2009.

(34) نورد قصص الكرامات كجزء من أدبيات التصوف.

العدو، فرد الأفغاني بأنه مستحيل هذا خنجر، فأمسك برأس الخنجر بأصبعيه ولفه كما يلف الخبزة ، فأنكروا عليه، وقالوا ماذا فعلت بها يا سيد؟، فمسح عليها مرة أخرى بأصبعيه فردها كما كانت"(35)، وبهذه الحادثة يكسب الأفغاني قيمته الدينية والروحية، ويصعب على أحد ان يتهمه بالسحر أو الشعوذة لما رأوا منه من صلاح وتقوى وعبادة ومكوث دائم في المسجد، ولأنه من أولياء الله الصالحين. استمر السيد الأفغاني سبع سنين في أبوظبي، ولم يذكر الكثير عن أخباره، وبعدها ارتحل إلى دبي.

الانبعاث الجديد

يعد قدوم الأفغاني من بين أهم العوامل التي بعثت أخبار وسيرة التصوف في المنطقة، بعد أن انقطعت أخباره من رأس الخيمة(36). كانت الساحة الدينية مهيأة لمجيء شيخ صوفي يستعرض قدراته الروحية، فالممارسات الدينية مثل زيارة قبور الأولياء وتعظيمهم كانت حاضرة(37)، لذا لم يواجه معارضة دينية من قبل أهالي دبي بحكم أنهم مالكية(38)،

---

(35) مصدر سابق، مقابلة مسجلة مع الشيخ عبدالرحيم المريد، ويسند هذه الحادثة الشيخ حمدان المعمري على أن في التصوف : " كل ولي على قدم نبي "، وهذا قدم النبي داود عليه السلام، إلانة الحديد.

(36) لم يجد الباحث أية أخبار عن اتباع الطريقة العلوية الحدادية بعد دخول الوهابية في رأس الخيمة ، قد نستدركه في بحث آخر.

(37) أهمها كان قبراً يسمى قبر "الولي" .

(38) المذهب المالكي هو أحد المذاهب الفقهية السنية الأربعة الكبرى في العالم الإسلامي، وسمي بالمالكي نسبة إلى الإمام مالك بن أنس، راجع : د. مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الطبعة الخامسة، المجلد الأول، الناشر دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م، ص 116.

بمعنى بم تكن لهم حزازات تجاه التصوف وطقوسه. تشير بدايات الأفغاني في دبي أنه سكن في مسجد " الشيخ مبارك " في منطقة الشندغة[39]، واعتكف في المسجد. ولاحظ الناس أن هذا الرجل منقطع للعبادة ولا يغادر المسجد، حتى وثقوا به وطلبوا منه أن يقوم بتدريس أطفالهم القرآن وعلوم الدين.

ثم انتقل للإقامة في منطقة الرفاعة في بر دبي، وقد أصبح معروفا إلى درجة أن الموضع الذي سكنه كانت به بعض أشجار السدر وقد سميت بعد ذلك بـ (بسدر السيد)[40]، ومن هناك بدأت سمعة الأفغاني تنتشر في القرى والبلدات المجاورة. في تلك الفترة الزمنية، كانت عمان سباقة في إقامة الموالد النبوية وحلقات الذكر التي يقيمها المتصوفة قبل الامارات[41]، وبالأخص في مناطق الباطنة. كان الشيخ السيد أحمد الهاشمي من علماء ولاية المصنعه يجمع أتباعه في منزله حيث تقام حلقات الذكر والموالد النبوية[42]. ومن بين هؤلاء الحضور رجل يدعى أحمد الكوخردي[43]، وابنه عبدالله بن أحمد الكوخردي. تنامى إلى سمعهم وجود السيد محمد عمر الأفغاني في دبي، فشدوا إليه الرحال في عام 1880م. ونزلوا عند مقره في بر دبي والقريب من حصن الفهيدي[44]، فرحب بهم وأصبح الأب

---

(39) من أقدم الأحياء في دبي، وزائر المنطقة اليوم، سيرى اهم معالمها القرية التراثية وبيت الشيخ سعيد بن مكتوم.

(40) خالد البدور، مصدر سابق، بتصرف.

(41) مقابلة المعمري، مصدر سابق.

(42) خالد البدور، مقالة غير منشورة، حول حياة الشيخ عبدالرحيم المريد.

(43) وفي بعض الروايات : "الفارسي"، المعمري.

(44) حصن الفهيدي حاليا، هو متحف دبي .

والابن مريدين للسيد محمد عمر الأفغاني. بعد فترة قصيرة توفي الأب الشيخ أحمد الكوخردي وبقي الشيخ عبدالله بن أحمد خادما للسيد، وفي معيته وفرقته الصوفية وأحد كبار أتباعه بعد ذلك حتى أطلق عليه لقب بـ"المريد"[45].

التصوف والمدرسة الحنبلية

كانت المدرسة الحنبلية على خلاف مع التصوف بخلاف المدرسة المالكية، وقد بدأ صيت الأفغاني وممارساته بالذيوع عند الأهالي؛ وكانت توجد جماعة من الحنابلة في الشارقة ودبي تنكر الموالد عليهم وتراها بدعة ضلالة . ولكن علماء دبي لم يعترضوا على إقامة المولد وإنما ينكرون طقس" ضرب الدبوس أو أكل الزجاج"[46]. ويروي عبدالرحيم المريد هذه القصة الآتية[47]: "جاء قاضي حنبلي من الشارقة وابنه قاصدين الأفغاني، وكان السيد محمد عمر لا يقوم إلا لمشايخ الدين، فقام له وسلم عليه. فبدأ القاضي حديثه مبيناً أن هذه الاعمال التي يقومون بها مخالفة للدين، وخاصة ضرب السيف والذكر الجوفي[48]. فأمر الأفغاني خادمه قمبر لكي يأتي بالكتب الدينية، وبدأ الافغاني حواره مع القاضي، مستندا بأن هذه الأعمال التي يقومون بها لا تتعارض مع الدين. أصر القاضي على

---

(45) المريد تعنى: "الذي صح له الابتداء وقد دخل في جملة المنقطعين إلى الله تعالى".

(46) مصدر سابق، عيسى المانع.

(47) مصدر سابق، تسجيل صوتي، الشيخ عبدالرحيم.

(48) يوجد في التصوف نوعين من ذكر الله، الجهري والجوفي، الجوفي هو إخراج الصوت من جوف الذاكر، وأتباع الطريقة النقشبندية يمارسونها.

الأفغاني والقوى السياسية

لم يذكر عن الأفغاني تدخله المباشر في الشأن السياسي الداخلي، على افتراض أن المذهب الصوفي أبعد ما يكون من الدخول في دهاليز السياسة وتشعباتها بحكم غلبة الجانب التعبدي الروحي على أمور الحكم والسلطان. هذا بالإضافة إلى أن التصوف في دبي كان النموذج الصوفي البسيط، المتمثل في نموذج " علاقة الشيخ بمريديه". ولكن يتبين لنا من خلال حادثتين أن القوى السياسية في عمان ودبي استعانت بالأفغاني اعتقادا منها بأن قوته الروحية مؤثرة في الأحداث.

في عهد الشيخ سهيل بن بطي آل مكتوم، جاء سلطان عمان فيصل بن تركي (1888م – 1913 م) إلى دبي، وطلب مقابلة الأفغاني. وحاول إقناعه بأن يذهب معه إلى عمان ويعينه على نصرة إحدى القبائل المتمردة. بشره الأفغاني بأن هؤلاء الجماعة سيصلون إلى موقعة معينة ويهزمون. وتقول الرواية بأن فيصل بن تركي رجع إلى عمان، وبالفعل صدقت نبوأة الافغاني، وانكسر القوم[53].

في دبي، تبنت الأسرة الحاكمة (آل مكتوم) التصوف منذ قدومه على يد الأفغاني، وأحسن وفادته الشيخ حشر بن مكتوم (1859 - 1886م)[54]، وتأثرت به بعض شخصيات الطبقة الحاكمة

---

(53) مقابلة عبدالرحيم المريد، مصدر سابق.

(54) حسين عبدالغفار، رحيل الصوفي الكبير وزعيم المالد عبدالرحيم المريد، مقالات نشرت في جريدة الخليج في أكتوبر 2007.

رأيه، فأتى الأفغاني بدليل ثانٍ وثالث، ولم يقتنع القاضي. فأمر الأفغاني خادميه قمبر و بلالا بضرب القاضي، فانهالا عليه بالضرب. قال له السيد الأفغاني: "اذهب وبلغ حاكم دبي أو القنصل البريطاني"، فذهبوا يشكون أمرهم للانجليز. فرد المسؤول البريطاني: "لماذا تذهب إليه، هذا لا أحد يقدر عليه".

أيضا تظهر لنا الرسالة المسماة "نبي دُعي في دبي" لصاحبها مبارك بن سيف الناخي (1898– 1982) [49] التي نشرتها مجلة المنار العام 1929، إلى النقد الموجه لبعض الممارسات عند الأفغاني ومريديه وعن قدوم أناس خارج دبي أتوا لطلب المدد منه حتى بعد مماته. جاء في مطلع الرسالة: "قدم إلى دبي رجل يُدّعَى السيد جلال الهندي مرسل إلى هداية العجم الكورخردية[50] خاصة[51]. وأضرم ناراً ودعا الناس إلى دخولها ليبين لهم قدراته الخارقة بأن النار لا تحرق. فأطاعوا أمره ، وصدقوا لأول وهلة من قوله، وأخذوا يتهافتون على تلك (النار) المتقدة، ولسان حالهم يردد (مدد بوهاشم[52] مدد) ظانين أنها لا تحرقهم ولا تلذعهم ولا تصليهم من حرها ، وكأنَّ أبا هاشم نسي أو تناسى".

---

(49) شاعر وأديب من الشارقة.

(50) تقع في مركز بخش كوخرد و تتبع مدينة بستك أداريا. و تقع في محافظة هُرمُزكان في إيران: http://www.kookherd.net/arabic/home_ar.htm.

(51) أرجح أنهم عبدالله المريد وعبدالرحيم المريد.

(52) نرجح بأن بوهاشم، هو السيد محمد عمر الأفغاني، فلم يعرف أحد غيره بهذا الاسم.

ومنهم، الشيخ سعيد بن مكتوم بن حشر آل مكتوم، حاكم دبي (1912 - 1958م). وتبين لنا قصة استلام الشيخ سعيد للحكم كيف تمت الاستعانة بالأفغاني[55].

ففي العام 1912م، بعد وفاة الشيخ بطي بن سهيل آل مكتوم (1906م - 1912م)، قام أبناء راشد بن مكتوم وأحكموا قبضتهم على حصن الفهيدي، ليعلنوا أمام العامة بأن الحكم لهم، فما كان من المر بن حريز[56] إلا أن جاء بالشيخ سعيد بن مكتوم إلى السيد محمد عمر الأفغاني وتم إقناعه بأن الحكم الشرعي لسعيد بن مكتوم وأن يدعوا له لكي تميل الناس إليه. فرفع الأفغاني يديه وأمن الحاضرين معه، فرجع سعيد بن مكتوم إلى الحصن، فرآه الناس، وبايعوه[57] . ويتساءل عبدالغفار حسين : هل هي صدفة، أم قوة الأفغاني الروحية جعلت أفئدة الناس تهوي إلى سعيد بن مكتوم، فهذا محل استفسار ؟ ولكن المجتمع في ذلك زمان لديه القابلية للاعتقاد بأن بمباركة رجل صالح كالأفغاني ودعاءه ساعد سعيد بن مكتوم على تولي زمام الحكم.

كان الشيخ سعيد بن مكتوم ممن يحضرون حلقات الأفغاني، وينغمس في أجواء الذكر حتى يغمى عليه، ويقوم السيد محمد عمر الأفغاني ويربت على رأسه، وكان يشهد طقوس ضرب الدبوس ولكنه لم يمارسها[58].

---

(55) لا يسقط الباحث عوامل الوراثة والتحالفات القبلية التي هي العامل الرئيسي في استلام الحكم.

(56) أحد رجالات الشيخ سعيد بن مكتوم.

(57) يرويها عبدالغفار حسين عن جده عبدالله المريد (مريد السيد الأفغاني)، مصدر سابق.

(58) المعمري، مصدر سابق.

ϸ т ϼ в ЮҒ щ т

Ь Ꭓ в Ҍ т рМЮҒ р Ͽ ϼ ғ Ҍ Є ғ Э д ғ в
ϸ т с м Ҍ ЮҒ щ в Я

Й т в ↑ ЮҒ ϸ т У т д Ұ п ж в Ҍ ›

åË ðèíß÷• òÓç í û• êß• û òçíàÓ
ÊóãŸ åË ”ÌçŽã •ûŽãÛß• -‹Ž³ß ”Ìã
ÝÛ ðàË •Ÿó Žã ”óëíß÷• òÓá•ß©Žçãóí
Ö£ òÓ Ùß«Žãíí ê¯óàŸË Ýó£—³ó Žã í
û• í Žì—Ó-Ìã ÑàÛã ÝÛ ðàË •Ÿ— ò
åã •‘ŸÌ— áì¿Ì‘ ÝŽ× •«ìß í ðßŽÌ—
ÊÁØß• Êã •ó-Øß• Ù-— í •ó-Ðß• ÁŽ
áü³ß• êóàË êßíØß -Ÿ÷• òÓ “©Žó
ê‘ ðßŽÌ— Ì ŽçÌÔç ò³íç³ß• ¦ó·ß• Ý
áàÌó áß åã éŽçÌã í -Žçß• òÓ ©íà
åŽÛ-ƒ -‹Ž³ ÝÌÔó í ëãß»ŽìåŽÛ›å•í ðß
ð—£ ðçÌãß• •«ì‘ Ž£ó-»— áë•íŽ—
í åó©ß• áàÌóÓ ÕüÁ û ŽãÛ êß ¡ŽÛ
••-©ç• û á©Ø— ŽãÛ ”óç•©áŽÛ•£• Ž
¹Ž§ß• -ëíŸß• òÓ ÝŽ× •«ìß í ÁŽ
åç÷ êçË Ùó-·ß• òÔç í ðßŽÌ— êß
åŽÛ Žã ÝÛ í “-í-¿ •‹Ðß• òÓ Ž‘óË
åã á¯àó Žã í ÝŽ£ã ••«ßŽ‘ •Ÿ•íàß ê
åóç›• •åíó«§û•— û ðßŽÌ— ÝŽ× í
û• ”ìß• ŽãìóÓ åŽÛ íß ðßŽÌ— ÝŽ
Ì û• êß• û •íßíØó ð—£ ±Žçß• Ý
é©£í Ì û• êß• û òà‘× åã åÓ‹ƒó‘çß•áã
•í—£• ”Ôó-·ß• ”ãàÛß• é«ë åƒ áàË•
”ØóØ£ß• Ùà— åã •‘›ãß• í ðßŽÌ— Ì
Ùà— ©Ÿí— åƒ åÛãó û êçƒ ðçÌã‘ ð
åƒ Ù· û í “©Ž‘Ìàß Ö£—³ã ©íŸíß•
ðàË Ý© åŽë-›‘ß•ðàåËßÕ©åó-åƒ éŽçÌã
Ì û• ðçÌã‘ íë ±óß ïŽç›—³û• ©Ì‘ ñ«
åŽÛ íßí ŽŸ-Ž§ û í Žçë« ©©Ì—ß• Ý
í ”ãàÛß• é«ë åã ©ó£í— Ý»£ó³û å
½×Žç—ß• á¯ß í ê³Ôç åã ïò·ß• ïŽç›
ðç›—³ãß• -Ž‘—ËŽ‘ üØË ”ãàÛß• é«ë
òçŽ›ß• í Žó‹¯Ÿ Ýí÷• íƒ åóó”àÂŽí‘ƒŽå
íëí ÝÁŽ‘ Žãë©£ƒ åóã³× ðß• á³Ø
-§õ• í ÝÁŽ‘ß‘Ž›Ûß©•«‘Ûãß•åã êóàË
ðàË ðçÌãßŽÓ êçã ©íŸíãß• ©-Ôàß

التصوف في السعودية والخليج

تصوف و
عرفان
١
٢
١١

التصوف في السعودية والخليج

في كتابنا هذا نحاول رسم ملامح الصوفية في الخليج ، في السعودية والإمارات ، وفي البحرين والكويت ، وجذور هذا التصوف ومنابعه في وسط أسيا ، إيران وتركيا ، مع جولة على التصوف الجديد والتحولات العميقة التي تمر بها الطرق في مصر ومدى التأثير السلفي الخليجي فيها . نرجو أن تكون هذه المبادرة من مركز المسبار تشجيعا للباحثين ومن تتوافر بين أيدهم الوثائق التي لم تظهر للعلن أن يوثقوا هذا التاريخ الذي بقي شبه خجول وغامض في جوانب كبيرة منه.

ISBN 978-9948-443-62-9

9 789948 443629

المسبار

www.almesbar.net

کتابخانه تخصصی مرکز دار الاعلام لمدرسة
اهل البیت علیهم السلام
شماره: ۳۰

التصوف
في
السعودية والخليج

المسبار

الكتاب: **التصوف في السعودية والخليج**
المؤلف: مجموعة باحثين
الناشر: **مركز المسبار للدراسات والبحوث.**
التصنيف: **دين وسياسة / جماعات وفرق / تاريخ معاصر**
الطبعة الخامسة، فبراير (شباط) 2013
الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-443-62-9

مركز المسبار للدراسات والبحوث
Al Mesbar Studies & Research Centre

www.almesbar.net
ص.ب. 333577
دبي الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 4774 380 4 971+
فاكس: 5977 380 4 971+
info@almesbar.net

مركز المسبار للدراسات والبحوث هو مركز مستقل متخصص في دراسة الحركات الإسلامية والظاهرة الثقافية عموما، ببعديها الفكري والاجتماعي السياسي، يولي المركز اهتماماً خاصاً بالحركات الإسلامية المعاصرة، فكراً وممارسة، رموزاً وأفكاراً، كما يهتم بدراسة الحركات ذات الطابع التاريخي متى ظل تأثيرها حاضرا في الواقع المعيش.

يضم مركز المسبار مجموعة مختارة من الباحثين المتخصصين في الحركات الإسلامية المعاصرة والتاريخية والظواهر الثقافية والاستراتيجية، ويتعاون المركز في هذا الاتجاه مع الباحثين والمراكز والمؤسسات المختلفة التي تتقاطع اهتماماتها مع اهتمامه، وهو ما يضمن تبادل الخبرات وتطوير المهارات الذي يتم عبر تنشيط الحوار بين المتخصصين وتدوير الأفكار بين مختلف الآراء والاتجاهات.

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمركز المسبار للدراسات والبحوث.
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من مركز المسبار للدراسات والبحوث.

الدراسات والبحوث التي يحويها الكتاب تعبر عن آراء كتابها لا عن رأي المركز بالضرورة.

مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

تقديم ______ 5

الصوفية في دبي من الأفغاني إلى عبدالرحيم المريد ______ 7
راشد أحمد الجميري

التصوف في البحرين والكويت ______ 47
عمر البشير الترابي

وهابيون متصوفون ______ 71
منصور النقيدان

التّصوف في عسير والمخْلاف السّليماني ______ 111
إبراهيم طالع الألمعي

الصوفيّة والمجالس العلميّة في الحجاز الحديث ______ 149
محمود عبدالغني صباغ

الصوفية السعودية وإعادة تشكيلاتها في الداخل ______ 255
ياسر بن محمد باعامر

التصوف وتحولاته في مشهده المعاصر ______ 291
محمد حلمي عبد الوهاب

المشاركون في الكتاب ______ 333

الصوفية في دبي

من الأفغاني إلى عبدالرحيم المريد

راشد أحمد الجميري(*)

بادئ ذي بدء نلفت نظر القارئ الكريم إلى ملاحظتين مهمتين قبل الولوج في قراءة البحث.

الأولى، البحث عبارة عن دراسة أولية تستعرض تاريخ ثلاث شخصيات جسدت التجربة الصوفية في دبي[1]. الثانية، البحث قد يعتريه شيء من الخطأ النسبي، إذا صح التعبير، وذلك لندرة وضبابية المصادر التاريخية التي وثقت التصَوف في ساحل عمان (الإمارات العربية المتحدة حالياً) بشكل عام وفي دبي بشكل خاص. لذلك تم الاعتماد بشكل كبير على الروايات التي سردها آخر رمز صوفي عاش في دبي، الشيخ عبدالرحيم المريد (1910 - 2007) عن والده عبدالله المريد التي تخص أخبار السيد محمد عمر الأفغاني، الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس الطريقة الصوفية. يضاف إلى ذلك صعوبة التعريف بالصوفية، فالمصطلح لم يكن شائعا في المجتمع، فهو يندرج ضمن معاني الفضائل مثل الزهد والورع[2]. لذا فالدراسة مفتوحة للنقد والتمحيص للمختصين حتى تصل إلى مرحلة من الاكتمال والنضج.

(*) باحث من الإمارات العربية المتحدة.

(1) نعني في هذا البحث: السيد محمد عمر الأفغاني – الشيخ عبدالله المريد وابنه الشيخ عبدالرحيم المريد، سنتوسع في شرح سيرهم في الصفحات القادمة، نقصد بالتصوف في هذه الورقة، تصوف الطريقة.

(2) الدكتور الشيخ عيسى المانع، مقابلة في 27 / 10 / 2010.

تعود الجذور التاريخية للتصوف على ساحل عمان (الإمارات العربية المتحدة حالياً) إلى مايقرب الثلاثمئة سنة، فمن خلال الوثائق التاريخية وجدت إشارات إلى أنه كانت هنالك طقوس صوفية تمارس في منطقة الصير (رأس الخيمة حالياً) في القرن السابع عشر الميلادي، على يد المتصوفة الحضارمة الذين جاءوا من تريم[3]يحملون الطريقة العلوية الحدادية[4]. وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت الطريقة القادرية[5] في دبي على يد الصوفي المسمى السيد محمد عمر الأفغاني. لم يكتب للتجربة العلوية الحدادية أن تستمر طويلا، فقد خسر التصوف أرضيته منذ وصول مد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في القرن الثامن عشر بقيادة مطلق المطيري؛ وإعلان القواسم اعتناقهم المذهب الوهابي. أما التصوف في إمارة دبي فكتب له أن يعيش إلى يومنا هذا. وقد ساعدته عدة عوامل على التماسك والرسوخ، الأول العامل المذهبي، إذ لم تتأثر القبائل والأسر القاطنة في إمارة دبي بالدعوة الوهابية كما هي في إمارتي الشارقة ورأس الخيمة، وإنما بقيت متمسكة بالمذهب المالكي والشافعي، اللذين ليس لهما أية تحفظات على التصوف. أما العامل الثاني فقد تم تبنيه من قبل الأسرة الحاكمة (آل مكتوم)، ويعتبر الشيخ سعيد بن مكتوم آل مكتوم حاكم دبي (1912م - 1958م) أحد المريدين عند السيد الأفغاني.

---

(3) مدينة في حضرموت مشهوره بالعلم والحياة الروحية تعتبر مصدر التراث الصوفي اليماني.

(4) نسبة إلى السادة العلويين في حضرموت باليمن.

(5) الطريقة القادرية، نسبة إلى مؤسسها الإمام محيي الدين أبو محمد عبدالقادر الجيلاني(1048م - 1139م). راجع : الدكتور السيد محمد عقيل بن علي المهدلي. دراسة الطرق الصوفية، دار الحديث، القاهرة. الطبعة الأولى ، 1993م، ص161.

يُجمع من عاصر الشيخ عبدالرحيم المريد على أن السيد محمد عمر الأفغاني هو الأب الروحي والمؤسس الأول للطريقة الصوفية في دبي. وهو الذي استحدث احتفال "المولد النبوي" المعمول به حاليا في الإمارات العربية المتحدة. وامتاز نموذج تصوف دبي بعلاقة الشيخ بمريديه الاجتماعية، ولم ينكفئ على نفسه كحياة زهد وورع وتقوى وحلقات ذكر الله فقط، وإنما أوجد له حضوراً اجتماعياً واسعاً في المناسبات الاجتماعية والدينية، تمثلت في ممارسة طقوسه الفريدة، ومن أشهرها إحياء الموالد النبوية وجلسات ضرب الدبوس وحلقات ذكر الله.

أما في وقتنا الحاضر فيشهد التصوف تحدياً على الساحة الدينية في أداء دوره التقليدي الروحي في دبي، إذ يخيم على المشهد تراجع وحالة من الركود بعد موت أحد أبرز آبائه الشيخ عبدالرحيم المريد في عام 2007، إذ بفقده فقد التصوف زخمه الروحي الكبير، الذي كان ملهم الأتباع والمريدين في منطقة الراشدية بدبي. إلا انه بقيت بعض البيوت في دبي تحيي أبرز فنونه، المولد النبوي في المناسبات الدينية، كليلة النصف من شعبان ويوم الـ12 من ربيع الأول، احتفالا بمولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبعض الأحيان في آواخر أيام الأسبوع، أما طقس الضرب بالحديد، فلم يمارس قط.

يهدف الباحث من هذا الدراسة إلى تحقيق هدفين:

أولا: إضافة دراسة أولية و جمع أخبار التصوف والمتصوفة، فحتى وقتنا الحالي هناك ندرة في الدراسات التي تغطي الظواهر والحركات الدينية التي نشأت على ساحل عمان. لذا سنحاول من خلال هذا البحث، تقديم عرض شامل لتاريخ التصوف في منطقة ساحل عمان، ثم سنعرج على متصوفة دبي بشكل خاص.

ثانيا: تعريف من هم صوفية دبي، ومحاولة توضيح من هم هؤلاء الذين يسمون بالصوفية، فكلمة التصوف أو صوفي فضفاضة في معانيها، إذ يصعب وصف وتصنيف سالك ما بأنه "صوفي" "أو جماعة ناسكة وذات أوراد بأنها" صوفية". فمفردة التصوف أو هذا الشخص "صوفي" لم تكن دارجة ضمن المصطلحات المستخدمة على ألسنة الناس. يشرحها الباحث خالد البدور[6] قائلاً: "وعند التطرق لموضوع التصوف في المنطقة وبالأخص إمارة دبي فإننا نتحدث عن شخصيات آثرت الزهد والعبادة وتفرغت لها، وكان يطلق على الزهاد والنساك صفة "أهل الله" أو "أهل الذكر" أو المشايخ والعلماء أو من سلك "طريق القوم"، ولم نجد في أية أدبيات أو ما قاله الرواة أي ذكر لصفة "الصوفية"[7]. ولكن الطقوس والطرق المتعارف عليها في أدبيات التصوف الاسلامي كانت تمارس من قبل الأفغاني ومريديه، كالعلاقة بين الشيخ ومريديه واحتفالات المولد

(6) خالد البدور شاعر وسينمائي من الإمارات: أنتج فيلما وثائقيا عن حياة الشيخ عبدالرحيم المريد.

(7) خالد البدور، مقالة غير منشورة، سيرة الشيخ عبدالرحيم المريد، 2009.

النبوي واستعراض قوة الشيخ الروحية كالضرب بالحديد وطعن الجسد بالسيف.

قسمنا الدراسة إلى ثلاثة مباحث :الأول المدخل التاريخي لمتصوفة الصير، المبحث الثاني : صوفية دبي، التأسيس - الصعود - الانحسار، والمبحث الثالث :لمحة عن وضعه الراهن ومن هي الأسر التي ما زالت محافظة على التقاليد الصوفية في دبي.

المبحث الأول
المدخل التاريخي متصوفة الصير

التصوف العلوي الحدادي:

تاريخ التصوف على ساحل عمان يشوبه الكثير من الغموض وتكثر فيه الحلقات المفقودة. إذ يصعب ذكر أخبار الطرق الصوفية أو لفظ الصوفي أو صوفية في المخطوطات المحلية أو حتى في الوثائق الأجنبية سواء البرتغالية او الهولندية أو الإنجليزية، لأنها أهم المصادر التاريخية لساحل عمان. حتى في كتاب (دليل الخليج) لمؤلفه لوريمر، عندما مسح الحركات والظواهر الدينية في الخليج، قال: "يقال إنه لا يوجد صوفيون في الخليج"[8]. ولكن مخطوطة الرحالة اليمني علوي بن أحمد بن حسن

---

(8) راجع : ج.ج. لوريمر، دليل الخليج – القسم التاريخي – الجزء السادس، ص3412، طبعة أعدها قسم الترجمة التابع لمكتب سمو أمير دولة قطر خليفة بن حمد آل ثاني.

الحداد المسماة "المواهب والمنن في مناقب الحسن"[9] المدونة في سنة 1803م، هي واحدة من المخطوطات المهمة التي توثق لحقبة التصوف في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر للميلاد.

تضمنت في بعض صفحاتها إشارات عن الفرقة العلوية الحدادية في منطقة الصير، وهي جزء من التقليد الذي كان معمولاً به في الظاهرة الصوفية اليمنية التي وسعت سياحتها لتشمل مناطق قصية من آسيا وأفريقيا. المخطوطة هي شرح مناقب جد المؤلف القطب الحسن بن عبدالله العلوي (1688- 1776م). وضمَّن "هذا الرحالة الصوفي" من خلال مخطوطته ما يقرب من ثلاثين صفحة دون فيها مذكراته لرحلاته في الجزء الجنوبي الشرقي من الخليج العربي، الصير وجوعمان[10]، ويبين لنا بأن المد الحضرمي الصوفي وجد له موطئ قدم وحضوراً قوياً لدى شيوخ القواسم وقبيلة الزعاب، بالإضافة إلى أن زيارات أضرحة الأولياء كانت حاضرة بشكل قوي.

كان هدف هذا الرحالة زيارة ضريح عمه، زين العابدين بن عبدالله العلوي (1693 – 1744م) الذي عاش عشرين سنة في الصير. زار علوي بن الحداد الصير ثلاث مرات، امتدت مابين 1782م إلى 1803م.

---

(9) اكتشف هذه المخطوطة الكاتب الإماراتي أحمد راشد ثاني وهو في زيارة إلى اليمن في 1995، للمزيد راجع كتابه: رحلة إلى الصير، أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث 2007.

(10) جو عمان: من التسميات القديمة لمدينة العين الحالية التابعة للمنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي.

ويشرح الكاتب أحمد راشد ثاني قصة المد الحضرمي إلى المنطقة: "وعلى ما يبدو فإن أول من وصل من (السادة العلويين) الحضارمة إلى المنطقة هو هارون بن الشيخ العطاس، حيث أمره قطب الإرشاد عبدالله الحداد (1634– 1719م) بسكن جو عمان لنشر السنة. ولعل وجود هارون في الجو، وغيره من أتباع هذه السنة في الصير، هو الذي أوعز لعم علوي بن الحداد، زينُ العابدين الحداد بالاستقرار فيها بعد ذلك إلى أن توفي". وأصبح قبره ضريحاً في الجزيرة الحمراء يزوره أتباعه.

كانت هذه الزيارات تهدف إلى توثيق العلاقة بين أتباع جده الحداد الكبير وأحفاده، من ماتوا ودفنوا في الصير أو مايزالون أحياء. أنتج هذا التواصل الحضرمي تأثر بعض القبائل، كما تحمس الزعاب للنزعة الصوفية العلوية حتى وصل الأمر ببعض العلويين إلى مصاهرتهم[11].

تدلنا هذه الإشارات إلى أنه كانت هناك حركة صوفية نشطة منذ مطلع القرن الثامن عشر؛ ولها امتدادت من حضرموت إلى عمان إلى رأس الخيمة إلى الإحساء[12]، ومن مختلف العالم الاسلامي، يشدون الرحال إلى منطقة الصير. إذ يذكر العلوي في مخطوطته عن العلماء المتصوفة الذين كانوا يقطنون في الصير ومن أين جاءوا. ف " السيد المكاشف الولي

---

(11) المصدر السابق،أحمد راشد ثاني، الصير، ص 109.

(12) مصدر سابق، ص112 ، بتصرف.

البهلوي الملامامتي نور" كان من رجال الخطوة[13]، ومن ذرية السيد عبدالقادر الجيلاني وله كشوفات عظيمة وله كرامات كثيرة وخوارق عادات. أيضا كان من زوار ضريح زين العابدين، ويمارس "ملامياته"[14] في بعض البلدات التابعة للقواسم، توفي في 1780م ببلدة ضنك[15] وبني على قبره قبة.

كما يذكر عن الشيخ العلامة محمد بن روعي الحجازي، الذي ولد في الحجاز وارتحل إلى الأحساء وسكن بباطنة عمان، أنه يجيز الطريقتين القادرية والحدادية العلوية[16]. والعلامة الشيخ عماد الدين بن أحمد أتى من فارس هو وتلاميذه. كما استوطن الصير رجل من المغرب اسمه محمد بن أبي القاسم المعروف بأبي الطيب المغربي، ولد في المدينة من أبوين مغربيين. ذهب إلى المغرب ومن ثم إلى حضرموت والتقى بعبدالله العلوي "الجد الأكبر" للعلوي بن الحداد صاحب المذكرات، ثم ارتحل إلى الأحساء ثم استقر في الصير، وكان مالكي المذهب. استمر متصوفة الصير في ممارسة طقوسهم حتى أواخر القرن الثامن عشر، عندما أعلنت رأس الخيمة انضمامها لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

---

(13) رجال الخطوة هي صفة في أدبيات التصوف تطلق على كل من يمتلك تلك القدرة الخارقة على قطع مسافة طويلة جداً في خطوة واحدة أو في لمح البصر، فلا يعوقهم بحر ولا جبل. أو أنها تلك القدرة على التواجد في أكثر من مكان في نفس اللحظة. يعتقد بأن تلك القدرة يختص الله بها بعض عباده الصالحين أو الأولياء ذوي "الكرامات" بحسب ما يصفونهم. المصدر: http://ar.wikipedia.org/تاريخ الزيارة : 1 يونيو ، 2011 ، الساعة 10 صباحا.

(14) الملاماتية طريقة من طرق الصوفية، نسبة إلى لوم النفس لأن أتباعها يكثرون من لوم انفسهم، وقيل إنها ترجع إلى اسم ناشر مبادئ هذه الطريقة وهو أبو حفص الحداد الملاماتي، المتوفى سنة 264 هجرية، راجع : ممدوح الزوبي، الطرق الصوفية : ظروف النشأة وطبيعة الدور، سوريا دمشق 2004، الطبعة الأولى، الأهالي للطباعة والنشر، ص97.

(15) ضنك اليوم هي إحدى ولايات منطقة الظاهرة في سلطنة عمان

(16) مصدر سابق، أحمد راشد ثاني، رحلة إلى الصير، ص 109.

ففي عام 1799م حاصرت القوات النجدية بقيادة مطلق المطيري[17] رأس الخيمة، واستمر الحصار سبعة عشر يوما، واجهت فيه قوات القواسم العطش، فقرر الشيخ صقر بن راشد القاسمي (1777 – 1803م) أن يفاوض المطيري، وكان من أهم شروط النجديين أن يقوم القواسم بإزالة قبور الأولياء.

ويذكر هذه القصة د . فالح حنظل في كتابه "المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة": ويبدو أن القائد السعودي المطيري كان صعباً جداً في مفاوضاته؛ وفي شروط الصلح وكان من أهم شروطه هو أن يقوم القواسم بهدم قبة السيد حسن، وهو مقام معروف في الصير في رأس الخيمة يعظمه ويجله القواسم، فالسيد حسن كان المرشد الديني للشيخ راشد بن مطر وكان المطيري يقول: لا أقبل إيمان القواسم إلا بتهديم قبة السيد حسن بأيديهم، لأكون شاهداً على فعلهم عند إمام المسلمين عبدالعزيز. أظهر القواسم رفضهم في بادئ الأمر، إلا أن إصرار المطيري على ذلك دفع بالشيخ صقر بن راشد إلى أن يقوم بنفسه وجملة من الأعيان بإزالة القبر[18].

ويكشف لنا العلوي من خلال مخطوطته استياءهم من تعاليم ابن عبدالوهاب واعتبارها من "البدع العظيمة من النجدي صاحب

---

(17) قائد عسكري سعودي، أرسل من قبل الأمير عبدالعزيز بن محمد أمير الدرعية في نجد لإقليم عمان ، توفي سنة 1807م.

(18) فالح حنظل، المفصل في تاريخ الامارات العربية المتحدة، لجنة التراث والتاريخ، دولة الإمارات العربية المتحدة، الجزء الأول، ص 275.

الدرعية"، ورد عليهم في كتاب أسماه "السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر". وفي زيارة العلوي الثانية إلى عمان يصف حالة الناس بعد أن اقتحمتجيوش الدرعية معاقلهم وقل أتباعها "رأى وسمع بأمور عظيمة من البدعي النجدي، حدثت في بلدان عمان وذلك لموت العلماء بها وبقي من لا يستمعون لكلامه إلا القليل". ورأى خلقا بعمان وغيرها من الجهات دخل في قلوبهم مما أتى به ابن عبد الوهاب. وبذلك تنتهي أخبار الصوفية العلوية الحدادية على ساحل عمان ولم يتبقَ من هذه الطريقة إلا بضعة أحفاد مازالوا يعيشون في الإمارات العربية المتحدة، وبعضهم في البحرين[19].

المبحث الثاني
التأسيس: محمد عمر الأفغاني (1886 - 1918 م)

يصعب تحديد متى بدأت الطريقة الصوفية في دبي، كما أشرت في البداية، فهو قد يكون موجوداً منذ عصور قديمة، لكن لم توجد حتى الآن أية دلائل تاريخية توثق ذلك. ولكن الخيط الوحيد الذي قد يقودنا إلى تاريخ الصوفية في دبي، هو فن "المالد"[20]. والمالد (المولد النبوي) هو فن شعبي ذو صبغة دينية، وهو في الوقت نفسه طقس من طقوس الصوفية، لأنه يعتمد على ذكر الله والمدائح النبوية في إحياء ذكرى المولد النبوي

(19) المصدر السابق، أحمد راشد ثاني، الصير، ص 118.

(20) يلفظ أهل دبي احتفال المولد النبوي بـ "المالد".

الشريف[21]. ومما لا خلاف عليه أن أشهر الفرق والمذاهب التي تحيي هذا الفن هم الصوفية.

فمن أسس المالد في دبي ومن هم رواده؟

كل ما توفر لنا هو أنه في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وفد إلى منطقة ساحل عمان رجل يدعى السيد محمد عمر الأفغاني؛ وكان قد شُهِر بتنظيم حلقات المالد[22]. ويتفق كل من الدكتور الشيخ عيسى بن مانع الحميري، وإبراهيم بن حميدان، و الشيخ حمدان المعمري[23]، على ان هذا الرجل هو الأب المؤسس الذي يعود له الفضل في تأسيس الطريقة القادرية الصوفية في إمارة دبي.

ونظراً لعدم وجود أية مصادر مكتوبة عن الأفغاني، فقد اعتمدت بشكل أساسي على روايات الشيخ عبدالرحيم المريد التي يرويها عن أبيه عبدالله المريد الذي كان مريداً عند شيخه السيد الأفغاني. ثم مقارنتها مع الأحداث التاريخية التي برزت في القرن التاسع عشر ميلادي على سواحل

---

(21) المولد النبوي الشريف 1430هـ - 2009 م – تكريم رواد المالد، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، ص 5.

(22) مصدر سابق، ص5.

(23) عيسى المانع : مدير عام دائرة الأوقاف والشؤون الاسلامية بدبي 1993 – 2002 ومؤسس كلية الامام مالك في مقابلة 30 / 10 / 2010، إبراهيم بن حميدان : أحد المقربيين من الشيخ عبدالرحيم المريد وهو من يتولى إقامة المالد اليوم، في مقابلة 23 / 11 / 2010، حمدان المعمري : خليفة الشيخ عبدالرحيم المريد في عمان ومؤسس فرقة المريد التراثية للمولد النبوي، في مقابلة 26/11/2010م – سلطنة عمان.

الخليج العربي وساحل مكران، ثم إسقاطها على حياة الافغاني فهي كفيلة بأن تقرب لنا الصورة وتجعلنا نتعرف أكثر على السيد الأفغاني.

جاء السيد الأفغاني إلى دبي في عهد الشيخ حشر بن مكتوم بن بطي، أي حوالى (1859– 1886م)[24]، أما من أين جاء، فتوافر لدينا روايتان. تشير الرواية الأولى التي تنقسم إلى روايتين إلى : أنه وفد من الحجاز مع قوم من أهالي دبي، كانوا يحجون بيت الله الحرام فرأوا هذا الشيخ في الحرم المكي عابداً ومعلماً، فدعوه إلى بلدهم وأتوا به[25]. والقول الثاني انه جاء من البحرين مع عرب من بني ياس[26]. بينما الرواية الثانية[27] تقول: "أنه جاء من مصر، بعد رحلة علمية طويلة قطعها من أفغانستان قاصدا زيارة قبر السيد عبدالقادر الجيلاني في بغداد ثم إلى مصر قاصدا جامع الأزهر[28]، ودرس فيه حتى تخرج، ثم رحل إلى أبوظبي ثم إلى دبي". ويصف الأستاذ عبدالغفار حسين الأفغاني بأنه "رجل شغلته العبادة عن السياسة، وكاد الإنجليز وممثلوهم في دبي والشارقة يعترضون على وجوده، إذ ظنوه في البداية مشاكسا لهم كما كان عليه الأفغاني

---

(24) عبدالغفار حسين، رحيل الصوفي الكبير وزعيم المالد الشيخ عبدالرحيم المريد ، مقال، جريدة الخليج ، أكتوبر 2007.

(25) عبدالغفار حسين، مصدر سابق

(26) في مقابلة 06 / 11 / 2010 مع حسين عبدالغفار (ابن أخت الشيخ عبدالرحيم المريد) ، دبي.

(27) إبراهيم بن حميدان، مصدر سابق.

(28) الشيخ عبدالرحيم المريد يؤكد بأن الأفغاني درس في الأزهر، في مقابلة مسجلة – 23 مارس – 2005 قرية غضفان، ولاية لوى، سلطنة عمان .

المشهور جمال الدين الأفغاني، ولكنهم اكتشفوا بأنه من الصوفية الذين طلقوا الدنيا ولاذوا بالزهد"[29].

أما لماذا جاء. فلا يوجد تفسير محدد إلا من خلال تحليل حادثة إرسال السلاح من دبي إلى أفغانستان في عام 1915م، والتي تجعلنا نتساءل ما دخل شيخ صوفي يقيم احتفالات نبوية وحلقات الذكر في شراء أسلحة وإرسالها إلى أفغانستان؟ ولكن قبل الاجابة على هذا السؤال حريٌّ بنا استعراض الأحداث السياسية التي كانت في فترة حياة الأفغاني.

ففي العام 1902م بدأ تحالف حكام ساحل مكران مع الثوار الأفغان الثائرين في وجه بريطانيا، وفتح باب توصيل السلاح لهم من ساحل الخليج إلى أفغانستان. وفي 1906م حصل ممثلو الحركات الأفغانية على الدعم من الأمير بركات في ساحل مكران، ودعم العديد من المشايخ في ساحل الامارات، وعُمان في ثورتهم المعادية ضد الاحتلال البريطاني في أفغانستان[30].

إذا ربطنا حادثة التهريب هذه بالأحداث التي كانت دائرة في إقليم مكران نفترض الآتي: فبالرغم من تصوف الأفغاني وهذا مما لاشك فيه، إلا أنه قد يكون من ضمن الأفغان الذين كانوا يتوافدون على سواحل

---

(29) عبدالغفار حسين، رحيل الصوفي الكبير وزعيم المالد الشيخ عبدالرحيم المريد ، مقال، جريدة الخليج ، أكتوبر 2007.

(30) بن دغار، رحلة الكابتن فلوير 1876 عبر الساحل في نهاية عهد الحكم العماني مع ملحق الأحداث التاريخية، الفرات للنشر والتوزيع، سبتمبر 2008، بيروت لبنان، الطبعة الأولى صـ 245 - 246، 250.

м . ύ þвсЮҒ мҮ ȋ дғсЭЂ мк м , þ
ғв йЮмЦ . ъҒŸЂ дтЛЭϼҮ м щЂвэ а
, ϼЪҒМЯЮ þтвсЮҒ мкȋ дғсЭЂ мк м
м . Ƨмþ сЮҒ м дғЪвъҒ Jϛ ғЧж дК пН
дК атДЛЂЮҒ щл↑ дв Ьтв↑ЮҒ пЯК ̂ ғ
ғвтҮ рҮ , єЮҒЯКаЪрҒтмвсЮҒ аЪтст.ЭЂм ЛғЭ
сТ пЮғЛЂ ȋ йвсϼ дтþЮҒ дтϾ аґвъ
̂ ғ↑ þЦ м . дҒϾтвЮҒ чвт йжҮ ̂ ғ↑
ϱтЭЂЂЮҒ атЯЛЂ " аЯЂҒммйғЯКЊж
й↑ϼэ м , атЯЂ сжЭ давғ въ↑ҒϼйƧ↑тϼэс ,
ȋ пЯЊ сЭжЮҒ дК йжК ȋ сЎϼ сЯК д
þтвсЂЮҒ дҮ аЯКҮ ȋ м ШЮМ ЧЭЂ þвçН
мк ϱтЭЂЂЮҒ м . ғлЯЪ Ьы↑ЮҒ ЧмЛж
ϱтЭЂЂЮҒ þϼт аЮ ҒМлЮ м ЧЯЂЮҒ дв Ь
м , иþвсЭ м ȋ дғсЭЂЪ , þвсЮғЭ
плЂжҒ , аЯКҮ ȋ м , ШЮМ мсж м а
йТғЊмΎЭ щатþЭЮҒщЧтҒЧЮҒжЂКҮ þжКϱмЭ
мҮ йЯҲғв Ƨþсв ЮҒ ϼғЭЂКғЭ ъ , сЮғ
, þтвсЂЮҒ дтЭ м йжтЭ ЬЎғУЂ ыТ Ш
йЂҒМ пЯК пЮғЛЂ м йжЛғвсЭтк ȋм ,ғжпҲОғ
пЯК щтЮғвЪ щУЊ ъ м , йЂҒМ дв щ
ϼкғДв йЮғЛТМк ъҒ щЧтЧсЮҒ пЯК ЬЛ
ЧҒМЮҒ пЮҒ щЯтЯ↑ЮҒ ЬғЛТцҒ м щмтЯ
пжЛвЮҒ ҒМлЭ þвғсЮҒ м иϾжвЮғТ .
ъҒ йжϾжЂЮҒ ЁвЯҒ ЬғЧт дҮ ъҒ . ал
дц , йЂж↑ дв щЭЂж йϛҒϾғЭ ғв Ƨþ
сТ пЮғЛЂ йлтϾжЂТ . " йтϾжЂЮҒ дК
аЪс дК рþЛЂ мк щарþсвЮҒ йкϾжþЮК
сТ щкϾжвЮҒ ск йЂҒМ МҒ , йтϾжЂЮҒ
йЮмЧЪ дғЪ , ғллтЭІЂ дғЭ мҮ ϼлД
" аЯЂ м йтЯК ȋ пЯЊ йЮмЧЂҒϼл↑ϾжЯ
ғв пЯК сЯ↑ЂЮҒ ШЮМ сТ мк м , РмЊм
пЮғЛЂ þϼУжғТ . аþЧЂ ғвЪ иϼтО йТϼ

йϮмЭ мЮ м ƧмþсЮҒ пЮҒ ҸЂғжт ғв ЬЪ
йтϾжҌЮҒ йжғсЭЂ þϼУжҒ м пЮғЛҌ ,
йжАғЭТЂ", Ь"Ϛ ғЧЮдҒ сЬЭмЦ мк м , ϼтЭ
йҌЭЂж ғвЭ , йвϼЪ м йЮыϮЭ ХтЯт
щЪϼғІвЮҒ сЎҌЧт ғвК ЬғЛТцҒ йтϾжҌ
щЯϪғввЮҒ м þҒþЛҌЮҒЛҌсЎҌЧътҒ ғЬвКғТЧ
сЎҌЧтҒ МЮвҒК йтϾжҌ м пЮғЛҌ ъҒ сс
мк м þтвсҌЮҒ м . алТғТ , пЮғЛҌ
щЭЂж ИмЦм ҸЯЧЮҒ ϼғЎсҌЂЮҒ ЛҌж АйЮЭ
йҌҒМ пЯК пжϪΥ þЦ ыКм ЬϮ м ,
мжвғлаЯК ғв пЮғЛҌ ύ ғлЯЪ þвғсвЮҒ
йЯЛТ ск МҒ , þвсЮҒ дтК йҌҒМ дΥЭ
м , пЮғЛҌ йЯЛТ ск МҒ ЧҒмМ

м сЮмЧЮҒ þвсЮҒ дв ШЮМ þжК ЬЧҌжт
пЯЊ йЮмЧЭ ШЮМ þжК ХЧсҌт м , мк
þвғсЮҒ ғмТк .пЮғЛҌþвс двЮ Йв Ђ и
ШтЮҒ иþмК м Шжв иϼþЊв þвсЮҒ рΥ
м ХЯэ м Хс þвсЮҒ дц , ϼтЭЂҌЮҒ
сЧЯэЮҒ Ƨþсв ЮҒ, йатþсжҌЮҒвЮьҒйтЮжтþьЊ
аЮ м , йУЊж щЯЭЂЮҒ м , дҒϾтвЮҒ
м , щтЧЯэЮҒ м щтЧсЮҒ дғҌЭҌϼв ғл
м , ХЯэЮҒ Ƨтс дв щтЧфЯЮв ЬмЊмғл
Ччв м , щтЧЯэЮҒ м щтЧсЮҒ дтЭ ғл
ъ щтЧЯэ мΥ , щтЧЯэЮҒ дв ғлтЮҒ
йЮмЦ м . аЯКΥ пЮғЛҌ м йжғсЭЂ ғ
млТ . щтфҒ , " аЪϼЪМΥ сжмϼЪМΥ "
Иϼғ Ўв ". аҒЪϼьЪМΥҒ "м мщПЮ иғжЛв аþ
ЬтЦ м . сТҒϼтЂЮҒ м сЂϼғУЮҒ þжК
м АϼІЮҒ ЧҒþΥ ϼтþЧҌ пЯК ϼмлвϮЮҒ
аЯКҒ , аЪϼЮмЦ псЯжкмϼЪМΥϮЮҒЛҌ : дм
сжмϼЪМΥ . ғлϮм дтϼІК ғлтТ ϼтЂ
аЪϼЪМ

(дтЧт Чþϼм þЦ щЮΥЂв дтЛ
(ϼтІЭЮҒ щвΥ ЙУж ғϮϼ сс

м щвϮЛв дтО мк м ИмО аЎҒК дтЛЭϼЧ
, дтЛЭЂЭ щЯвлвЮҒ дтЛЮҒ м щҌЂЭ
ғвЯК ЌЛЭ пЯК ъҒ йЮҒ ъ сТ щЯϚ

ытлЂђ м Fϼ꞊Њђэ꞊ ꞊лвДж ЙЦмК ϼсҮ ,аþ꞊
Ƨтþ꞊МсъF сТ þϼм ꞊вЭ ывК м щТϼІв
д꞊Ъ щжЂс щжЂ дЂ дв дц , щϚтЂЮF
м " : пЮ꞊Лђ ꞉ йвсϼ ϼммжЮF дввϼF
ссϼІ щжЂ йЮмЦ . " щϚтЂЮF ШЮМЪ м
щЯЮF ꞊сЮF м , дтђϚ꞊вЭ щЯвлвЮF
йђϼꜞк єтϼ꞊ђ дв ϼІК щтж꞊вӼ м дтђϚ
м ꞊лђтжꜞ ϼҮ , ꞊лђϼђІF м ЬЂЛЮF Ч
д꞊Ъ дв ЮҮ, " ꞉ пЮ꞊ЛйЮйЮмЧамЯЛЭ ШЭЯ
: дмжЪвЮF ϼкмꜞЮF сТ йЮмЧЮ дЂс
а꞊ђэЮF м þЭЮF сТ ХжҮђ
ЬылђЂF щКFϼЭ мҮ ШЭЪ м ЬҮ
птсҮ дв ϼҮ лДꜰлсТмЬЯлЭЮF꞊ЪϼЯМв꞊мϚϼ
пЯЊ йϚ꞊вЂF дв мк м ϼтІЭЮF щвҮ Й
йжК пЮ꞊Лђ ꞉ ꞊УК Ь꞊Ц аӼ . аЯКҮ ꞉
:

(св꞊лђЮFа꞊ЯКЮйђыЯКаӼ þв
(ϼ꞊ЪмчЮ ϼ꞊тАцF Чжс ꞊в ϼ

ъF йЮF ъ ЧъFҮЂ аДж а꞊вђ ϼҮ , а꞊
ъF ддFьт, аЮлЮ щт꞊лж ъ ꞊лЯϚ꞊ЎТ дҮ м
þЭЛЮF дК пЎϼт ꞉ дF " аыЂЮF м Щы
, ύ þвсЮF Ь꞊ЧТ щвЛж FþЭК ꞉ пАКҮ
м йтЯК ꞉ пЯЊ Ь꞊ЩЮмϼþЦйЮ þв йђтА
þЭК дв ꞉ аЯК ꞊в м , ꞊кϼЪІ йЮ ꞉
йтђЭЪϼ НЯЭт ꞊вТ ꞉ þвстТ ϰмӼЮF È
þЭК пЯК ꞉ аЛжҮ ꞊в , аЯЂ м. й"тЯйЮ
щӼЮ꞊ӼЮF ꞊лЮ꞊Ц д꞊Т , ꞊лЭFмӼ йЮ ꞉
ЧЯЧӼ Ь꞊вӼцРϼЛт аЮ дв " алЮмЧЮ ϰ
дв ꞊лЮ ꞊в щТϼЛв ъF ϰ꞊ЭЮF ИϼЦ щв
м FþжЮF сТ ꞊в È꞊жЮF аЯЛт мЮ "
, йтЮF FмЧЭыЯЛьт ϼмЮт лмђЮ,F FсмТв л꞊ђвЂъд й
сТ иþЧт ъ ꞊вЯЛЮF ЌЛЭ Ь꞊Ц : йтЭ
дц , йђтж щсЊ ϼтПт ъ м , щжꜞЮF с
꞊вЭ ꞊жϼІҮ ШЮМЮ мДЛЮFатйϼЭЬЮFЬ йсЮмЂйϼ
, св꞊лђЮF пЯК йђыЊ аӼ йЮмЦ м .
сТ ск ꞊вЪ щт꞊лжЮF сТ ꞊лђ꞊ЪϼЭ ЬН
щЦ꞊АЭ сТ аЯЪ м йтЯК ꞉ пЯЬДЙвЂдв
м ϱђђУв ЬвК ъм ꞊Кþ дв ꞊в Ь꞊Чт м
м ЬꜞҮ пЮ꞊Лђ м йж꞊сЭЂ мк МF , пЮ
м þϼђ ъ щЮмЭЧв йтЯК ЩыЊЮF дҮ пЯ
꞊в ϰ꞊ђЪЮF ЬмҮ сТ аþЧђ þЦ м , аЯ

р МЮ Ь м Њ мЮ Fъ Ꞔм ꞙ Ꜹ, ꝍ ꞔꞔЮ ꞙF в лав Д К Ɣ м Ꞔ F þ ꞙ Ꜹ Л
Ь Л ꝉ ж д Ɣ ꞑ ꝉ м , а Д К м þ ꝉ в м Р ꝍ І
д т в Ꞓ , а л Ꜹ п Ю ꞙ Л Ꝥ й Ю F ꞙ ж Л У ж а л Ꜹ

دخل عليه جاسوس الانجليز الملقب بعبدالله قمبر[70]، وخادمه الشخصي قمبر، وبدءا ينهالان عليه بالضرب بالحديد وإطلاق النار، ولكن لا يصيبه شي. هنا تذكر الخادم قمبر مقولة الأفغاني "لا يضرني شي سوى الحديد أو الرصاص إلا إذا كان منجساً" . فقاما ونجسا الرصاص بالبول، وأطلقا النار على السيد الأفغاني، فخر صريعاً وهو في التشهد الأخير. تنامى الخبر إلى الحاكم بركات خان، فطلب في أمرهما وتم إعدامهما. وهذه الرواية تطابق رواية بن دغار[71]: في أغسطس (آب) 1916م مقتل الثائر خليفة عمر، مولانا في بيابان، بتحريض بريطاني ويتم إعدام القاتل بأمر حكومة الأمير بركات. وأقيم للسيد محمد عمر الأفغاني ضريح في منطقة جاشك[72]، وبدأت الناس تتوافد لزيارة قبره. ومازال الضريح قائماً[73].

---

(70) من خلال مقابلة الشيخ المريد، يتبين ان هذا الجاسوس عبدالله قمبر كان يراقب الافغاني منذ تحركاته من دبي إلى مكران، لأنه صادق خادم الافغاني قمبر قبل رحلتهم.

(71) بن دغار، مصدر سابق، ص 250.

(72) جاشك : منطقة في بلوشستان حالياً.

(73) مصدر سابق، المعمري.

المبحث الثالث
مرحلة الصعود: عبدالله المريد وعبدالرحيم المريد (1916م - 2007 م)

الطريقة الأحمدية الرفاعية
عبدالله المريد

بعد وفاة الأفغاني خلفه عبدالله المريد، وانتقلت إليه زعامة الطريقة بحكم أنه أقرب المقربين إلى الأفغاني من غيره، إذ لا يخلف المريد شيخه إلا بعد أن يُجاز، أو يُعطى إجازة منه كما هو متعارف عليه في التقاليد الصوفية. وحسب الروايات المتناقله أجاز السيد محمد عمر الأفغاني عبدالله المريد وابنه عبدالرحيم المريد. ويرجع له الفضل في إحداث نقلة في حركة التصوف، إذ أضاف عليها الطريقة الرفاعية. يقول ابنه الشيخ عبدالرحيم المريد[74]: "في أيام الأفغاني كان عبدالله يسير على الطريقة القادرية حتى جاء رجل من العراق يسمى أحمد الراوي وكيل مقام السيد أحمد الرفاعي وأعطاه الطريقة الرفاعية[75]. فذهب عبدالله إلى السيد محمد عمر الأفغاني بحكم أنه الشيخ، وهذا مريده يستشيره ماذا يفعل فأشار عليه أن يأخذ بها".

(74) مقابلة أجراها خالد البدور مع الشيخ عبدالرحيم المريد بتاريخ 18 / 03 / 2007.

(75) مؤسس هذه الطريقة الإمام السيد أبو عباس أحمد محيى الدين بن الحسن الرفاعي في العراق (1090م - 1156م).

يذكر الشيخ عبدالرحيم المريد من كرامات أبيه الشيخ عبدالله المريد: "طلبنا الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان حاكم ابوظبي (1928 - 1966م) من الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي، يستأذنه بأن يستضيف والدي (عبدالله المريد) للمكوث في أبوظبي لمدة شهر، ولكن الإقامة امتدت بنا ثلاثة أشهر وكنا تسعة أشخاص. وبينما نحن نتوضأ لصلاة العصر، جاءنا شيخ من قطر ومعه ثلاثون تلميذاً. قال الشيخ القطري: نحن نقرأ عن كرامات الأولياء الصالحين، ولكننا لم نرها بالعين، لذا فنحن نريد أن نراها الآن. فرد الشيخ عبدالله المريد: موعدنا العشاء عند المولد، فأصر الشيخ القطري على أن تمارس الآن. فبدأت الطقوس وقام شخصان وضربا بالدبوس، وبدأ الشيخ القطري بقراءة القرآن والنفخ عليهما حتى إن كان أمرُ ضرب الحديد سحراً فسيبطله. أمر عبدالله المريد الشيخ القطري بسحب الدبوس، فسحب من الأول ولم يخرج دم، فعجب القطري، ثم سحب الثاني، فتدفق الدم عليه بشكل كبير، فصاح " أوقفوه " ، فجاء عبدالله المريد ووضع أصبعه حتى على موضع الدم فتوقف. بعدها قال القطري: "من كان مع الله كان الله معه، آمنت وصدقت".

توفي الشيخ عبدالله المريد في أواخر الستينيات ليخلفه في زعامة الطريقة ابنه عبدالرحيم المريد.

عبدالرحيم المريد

هو عبدالرحيم بن عبدالله بن أحمد الكوخردي الملقب بـ المريد. ولد الشيخ عبد الرحيم في دبي في السنوات الأولى من القرن العشرين وتقدر المصادر أنها كانت بين 1900م و1905م. ويذكر الأستاذ عبد الغفار حسين (وهو ابن أخت الشيخ عبد الرحيم) أن ولادة الشيخ كانت العام 1902م، وأن الشيخ كان في العاشرة من عمره عندما توفي الشيخ بطي بن سهيل حاكم إمارة دبي في تلك الفترة وكانت وفاته العام 1912م. ولقصة تسميته بعبدالرحيم حادثه يرويها مريدوه: "عندما رزق الشيخ عبدالله المريد بعبدالرحيم، ذهب إلى السيد الأفغاني، فسماه الأفغاني بعبدالرحيم تيمنا بعبدالرحيم البرعي". لا نملك الكثير عن حياة الشيخ في فترة صباه وبداية شبابه إلا أنه ذهب إلى الغوص وهو ابن 12 ربيعا(76). ثم أصبح يتاجر بالأقمشة والعطورات بين المملكة العربية السعودية والكويت، وتفرغ لحضور حلقات الذكر وإقامة الموالد النبوية إلى آخر أيامه.

بدأ عبدالرحيم يتعلم فن الموالد وهو بين الخامسة عشرة والعشرين، يؤدي مولد البرزنجي مع أبيه عبدالله المريد، بعد ذلك تعلم مولد "الهومة". كذلك تعلم من بعض المشايخ الذين كانوا يقيمون الموالد ثاني بن أحمد بن عفصان الذي كان يقيم في منطقة جميرا والشيخ محمد

---

(76) حوار بين عبدالرحيم المريد وخالد البدور، راجع فيلم المريد.

بن رهيف، وعبيد بن سويدان ومحمد بن سليّم ومحمد راشد المرر وراشد بن عاضد[77].

بدأ اسمه ينتشر بين الناس، بسبب أن الكثير من العائلات تطلبه ليقيم الموالد في حفلات الزواج. وبسبب الأداء الجيد والصوت المميز الذي كان يملكه أصبح من القلة المتخصصين في أداء (مالد السّماع)، أو الضرب بالدفوف، وكان الشيخ يؤديه كواجب اجتماعي وديني ولم يكن يطلب أجراً. ولم يتعلم الشيخ عبد الرحيم القراءة أو الكتابة على يد أي من العلماء أو المشايخ، حتى بلغ الستين من عمره. أما كيفية تعلمه فلذلك قصة غريبة ذكرها الشيخ وأوردها بعد ذلك الشيخ حمدان المعمري.

قال الشيخ عبد الرحيم: أن الشيخ عبد الرحمن بن حافظ (والد الشيخ أحمد بن حافظ) أعطاه كتاب (سيرة البرزنجي)؛ وطلب منه أن يقوم بكتابته أو بالأحرى (رسم) حروف كلماته كاملة لأنه لا يعرف الكتابة. في ذلك الوقت لم تكن للشيخ أية معرفة بالكتابة أو بالقراءة. بدأ الشيخ بكتابة حروف الكلمات كأشكال فقط، ثم استمر في المحاولة، وعكف عليها مدة ثلاثة أيام إلى أن انتهى من كامل السيرة. وقد قام بتعلم القراءة وخلال فترة وجيزة حفظ (سيرة البرزنجي) كاملة. وقد قام بحفظ نسخة الكتاب تلك والقراءة منها خلال الموالد، وبقيت معه حتى وفاته. ويحتفظ

---

(77) المصدر السابق، خالد البدور.

بالنسخة حاليا الشيخ حمدان المعمري، وحين ننظر إلى شكل الخط نجد أن الشيخ أجاده إجادة تامة بخط نسخ جميل ومُتقن[78].

ضرب الحديد

لم يكن متصوفة دبي بعيدين عن التقاليد التي كان يمارسها متصوفة العالم العربي والاسلامي، وقد اشتهروا كثيرا بطقس ضرب الحديد أو ضرب الشيش. وهي ظاهرة شائعة لدى الطرق الصوفية، وبالأخص الطريقة الأحمدية الرفاعية حيث يبدأ الحاضرون بذكر الله سبحانه وتعالى والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. بعد الوصول إلى درجة عالية من النشوة الروحية يبدأ الحاضرون بترديد "لا إله إلا الله"، "لا إله إلا الله"، عندها يقوم الشيخ بغرز الدبوس، وهو سيخ من الحديد في أعلى الصدر قرب عظم الترقوة للمريد. لايشعر بالألم من يمارس هذا الطقس لحالة التجلي والقرب من الله ساعتها. وإذا سال الدم فيكفي أن يضع الشيخ إصبعه في الموضع فيتوقف الدم[79].

في الخمسينات من القرن الماضي شكك الإنجليز بقدرات الشيخ عبد الله والشيخ عبد الرحيم على القيام بتلك الأعمال؛ فجاؤوا إلى دبي في باخرة تسمى "جسوره" إلى بيت المر بن حريز، وهو والد الشيخة حصة بنت المر، حيث أقام الشيخ عبدالله برفقة ابنه الشيخ عبد الرحيم حلقة

(78) المصدر السابق، خالد البدور، وقد رآها الباحث أثناء مقابلة حمدان المعمري.

(79) رواد المالد، مصدر سابق، ص7.

من حلقات المولد وقام الشيخ عبد الرحيم بإدخال السيف في بطنه وغرز جسده بالدبوس، وقام الإنجليز بتصوير ذلك حيث شاهدوا هذه الممارسة بأعينهم وتأكدوا من حقيقة أنه لايوجد أي خداع أو إيهام من قبل الشيخ، وقد نشرت الصور التي قام بالتقاطها رونالد كودري في مجلة الناشيونال جيوغرافيك الأمريكية حوالي عام 1958م، كذلك نشرت في كتاب الألبوم العربي للصور الفوتوغرافية التي التقطها كودري[80].

يروي كودري في مذكراته[81] أثناء قيامه برحلة إلى إمارات الساحل المتصالح ففي اليوم السادس من عام 1954م: "في دبي، سنحت لي الفرصة معاينة العديد من الاحتفالات الغريبة. وكان أغربها طقس تؤديه جماعة من الصوفية. جرى الحفل ليلا، وقاده زعيم ديني كبير في السن، ذو لحية كثيفة مصبوغة بالحناء، ويعاونه اثنان من أبنائه. وكان أغلب الحاضرين من الزنوج و الإيرانيين والعرب والبلوش. وكان الحاضرون يجلسون على سجاد مفروش تحت النخل، مصطفين في صفين متقابلين. وفي صف، كان الرجال يحملون طبولا صغيرة، يدفئونها على نار الفحم. وأمامهم، سيف وعدد من الخناجر الموضوعة على الأرض، حيث كان يجلس الزعيم[82]. وشرح كودري تفاصيل طقس المالد، فيقول: "وعلى دقات بطيئة وعالية، بدأ الصفان ينشدان باللغة العربية، وأخذ كل واحد

(80) يمكن للقارئ ان يراجع النسخة الانجليزية.

(81) انظر النص كاملاً في مجلة " ناشونيال جيوجرافيك " العربية، عدد ديسمبر 2010، عنوان المقال : الإمارات في أرشيف ناشيونال جيوجرافك – إمارات الساحل المتصالح، ص 42 - 43.

(82) ويظهر في النسخة الإنجليزية من كتاب كودري الشيخ عبدالرحيم المريد وهو يمارس طقس ضرب السيف.

يشد على يد زميله، ويقفون على ركبهم ومن ثم على أقدامهم، وينظرون أعلى، كما لو أنهم ينادون السماء ".

وعن طقس ضرب الدبوس يردف قائلا: "كان الزعيم يدق الأرض بسيفه، فإذا به يوجهه فجأة نحو أحد المريدين، وهو فتى في الرابعة عشرة من العمر. أخذ الفتى يتمايل، واقترب الزعيم، الذي أخذ الخنجر وغرسه في كتفه. وقد واصل الفتى تمايله جيئة وذهاباً عدة دقائق، إلى أن سحب الزعيم الخنجر وعاد إلى الحلقة. ولم تنزف قطرة دم واحدة، رغم أنني رأيت بأم عيني رأس الخنجر وقد اخترق ظهر ذلك الشاب. ثم أشار الزعيم إلى شخص آخر (تلك الإشارة تعني الحصانة من الأذى). وفي هذه المرة غرس المريد بيده الخنجر في كتفه، ثم سحب الخنجر وتناول سيفاً. وعلى دقات الطبول وهو راكع على ركبتيه، أخذ يرفع السيف فوق رأسه ويشرط ظهره. بعد ذلك، أمسك السيف من حديه وأخذ يلكز به بطنه العاري".

توقف طقس "ضرب الحديد " في دبي، بعد أن منع بأمر من حاكم دبي الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في سنة 2007، ويقول حمدان المعمري: "أمر المريد أتباعه بعدم العمل بهذا الطقس نزولا عند كلمة ولي الأمر"(83).

---

(83) مصدر سابق، حمدان المعمري.

المالد

يتكون "المالد" من صف من الجالسين يحملون بأيديهم دفوفاً ضخمة، يلوحون بها في الهواء ويضربون عليها ويبدأ القوم بالنشيد الذي هو عبارة عن كتاب "البرزنجي" الذي يسرد سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وفي مواجهة هذا الصف يجلس عدد من المنشدين وقد تلاصقت أكتافهم يتمايلون يمينا وشمالا. وهنالك ثلاثة شروط لابد من توافرها لأداء فن المالد وهي:

أولا: النص هو عبارة عن كتاب البرزنجي، موضوعها قصة النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

ثانيا: المنشد وعادة ما يكون من الفقهاء الذين تتوافر فيهم القدرة على فهم السيرة وحفظها عن ظهر قلب، وجمال الصوت. كذلك لا بد من أن تتوافر فيه صفة القيادة للفريق المؤدى للفن. ويسمى المنشد " النظيم".

ثالثا: المنشدون، وهؤلاء ينقسمون إلى مجموعتين، الأولى حملة الدفوف "الطيران"، ويقومون بالضرب عليها برفقة المنشد، وأحيانا يشاركون المنشد في النشيد جماعياً، والمجموعة الثانية ويكون عددها أكثر من المجموعة الأولى حيث يقوم أفرادها بترديد البيت الذي يمثل لازمة النشيد كله، أما المناسبات التي يقام فيها المالد فهي متعددة أهمها الأفراح

والأعراس، ولا يكاد يخلو من فن "المالد". كذلك يقام في بعض المناسبات مثل حالات الختان للاطفال والوفاء بالنذور. وينقسم فن "المالد" إلى قسمين، الأول تتلى فيه السيرة النبوية وأما الثاني فهو المالد الذي يتلى فيه ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن القصائد التي يكثرون من أدائها قصيدة "البردة" للإمام البوصيري وقصيدة نهج البردة لأحمد شوقي، وبعض قصائد شعراء الصوفية.

ويتضمن الأداء في فن "المالد" قصيدة يتبعها توشيح، والفصل الواحد يحتوي على أكثر من قصيدة دينية وأكثر من "توشيح" ومثال على ذلك:

المنشد وحده	**المجموعة المرددة**
وما ينبيك عن خلق الليالي	أيـــــــه – أو – اللاهوه
أو	
وعلمنا بناء المجد حتى	
أخذنا إمرة المجد اغتصابا	ها
وما نيل المطالب بالتمنى	
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا	ها
وما استعصى على قوم منال	
إذا الإقدام كان لهم ركابا	
مـــــــــــــــولاي	هاالله – اللاه – صلى الله عليه وسلم
(تقال بسرعة)	

ومن ثم يبدأ التوشيح تردده جماعة المنشدين بكاملها ومعهم المنشد بينما تطلق مجموعة الرديده؛ صيحاتها مثل "اللاهو – هاه – ها"، ويستمر المالد عادة بين ساعتين إلى ساعتين ونصف، تؤدي الفرقة خلالها أربعة أو خمسة فصول(84).

فرقة المريد للمالد

أحدث الشيخ عبدالرحيم المريد نقلة نوعية في فن المالد، إذ ذهب مع خادم المعصم وربيّع البدور إلى الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم حاكم دبي، وتقدموا بطلب تأسيس جمعية دبي للفنون الشعبية، وقد وافق الشيخ راشد وتشكلت الجمعية التي وفرت الدعم لجميع الفنون التقليدية، وحينها تشكلت لأول مرة و بشكل رسمي فرقة خاصة بالمالد تحت اسم "فرقة المريد للمالد"، وكانت تعمل تحت مظلة جمعية دبي للفنون الشعبية. بتكوين هذه الفرقة أصبح للموالد وللمرة الأولى شخصية اعتبارية وتنظيمية. يكشف هذا عن بعد نظر الشيخ مبكراً لنقل إقامة الموالد من مجرد حلقات خاصة في البيوت إلى أن تكون ذات إطار رسمي يعزز من دورها في المجتمع، كما يساهم في إدارة العمل ضمن إطار تنظيمي، وقدساهم ذلك في تسهيل العمل على أفراد المالد و ازدياد الطلب على إقامة الموالد، وحفظ حقوق المؤدين من خلال حصولهم على مكافآت المشاركة في إحياء الأعراس، مما ساعد على بقاء هذا اللون التقليدي.

---

(84) منشورات المجمع الثقافي، لمحات عن تراث وفلكلور مجتمع الامارات، إعداد جمعية النخيل للفنون الشعبية، رأس الخيمة، الطبعة الأولى 1996.

تأثر الكثيرون بخبرة الشيخ في الموالد فجاءوا إليه ليتعلموا منه. ومنهم الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن حافظ يقود "فرقة ابن حافظ"[85]، وجمعة جعفر وأبناء الشيخ إبراهيم بن حميدان وغيرهم. كما ساهم المريد في تدريب الجيل الشاب على أداء الموالد وكان يحرص على الجلوس مع الشباب، ويخصص لهم الوقت الكافي للتدرب على الإنشاد والإلقاء وإجادة الألحان والضرب على الدف. ومن مساهماته أن قام بتدريب فرقة وزارة الثقافة للفنون الشعبية على أداء المالد وهي الفرقة الرسمية لدولة الإمارات التي تؤدي فن المالد في المشاركات المحلية والدولية. ومن أهم من لازم الشيخ عبدالرحيم المريد وتتلمذ على يديه، إبراهيم بن حميدان وأبناؤه[86]، ومحمد بن عبدالله الحداد، وحمدان المعمري.

المد العماني الجديد[87]

في العام 1997 يرجع مرة أخرى المد العماني إلى دبي، على رأس شاب طموح يملؤه الفضول في معرفة أسرار التصوف وسر ضرب الدبوس عند الطريقة الرفاعية الأحمدية، هذا الشاب هو حمدان المعمري. إذ لم يكن في عمان من يضرب بالدبوس إلا فئة قليلة جدا منغلقة على نفسها. وفئة تضرب عن طريق ممارسة الجن.

---

(85) مصدر سابق، رواد المالد.

(86) من سكان دبي، ويقيمون في منطقة الخوانيج.

(87) مصدر سابق، مقابلة المعمري.

في بداياته، ذهب المعمري يجوب بعض المدن العربية باحثا عن "الطريقة الرفاعية لطعن الحديد"، أو ما يسمى ضرب الدبوس. ذهب في البداية إلى مصر يبحث عن إجازة من شيخ لممارسة هذه الطقوس. التقى بشيخ من الطريقة الرفاعية عند مقام علي أبو شباك الرفاعي في القاهرة. وسأله عن إجازة الضرب بالحديد. فقال له الشيخ: "يا ابني شيخك ليس في مصر وإنما في الخليج". وفي إحدى المناسبات، التقى المعمري بأحد أبناء الطريقة الرفاعية في إمارة الفجيرة "محمد يوسف آل يوسف" ودله على الشيخ عبدالرحيم المريد.

وبدأ المعمري يزور الشيخ مرتين في الأسبوع قادما من عمان. وكان هو العماني الوحيد الذي يجالس الشيخ. ويذكر المعمري من كان يحضر عند الشيخ : "محمد الحداد، وبعض المصريين والسوريين، وقلة من الإماراتيين". ويكثر الإماراتيون في المناسبات الدينية مثل المولد النبوي، أو ليلة الإسراء والمعراج. في 1999 أعطى عبدالرحيم المريد حمدان المعمري الأوراد العامة، التي تجعل من المريد ابناً للطريقة الرفاعية ومحسوباً على الشيخ. هنا بدأ المعمري يجمع ما يقرب من 50 شاباً عمانياً حول الشيخ.

ويشرح المعمري كيف يتم اختبار طلبة الشيخ، ففي البداية يراقب الشيخ الطالب في المجلس ويراه هل هو محب أم لا، ويستخير الله فيه. ثم يعطيه أول امتحان وهو الاستغفار ثلاثة أيام – مائة ألف مرة " استغفرا الله الغفور الرحيم "، فإن لم يكملها واستصعبها قال له، قد يكون شيخك في مكان ما. وتنقسم الأوراد إلى قسمين: عامة وخاصة. العامة : "لا إله إلا

الله" 500 مرة – 200 استغفار ، 200 الصلاة على النبي. تعطى الخاصة: بعد أن يعطى العامة بكم سنة، لأنها أقوى وأشد 1600 في اليوم من الأذكار والأوراد.

ظل المعمري لمدة سنتين يلح على الشيخ عبدالرحيم المريد بأن يعطى الإجازة في طعن الحديد. بعدها قال له المريد "أجزنالك". حاول المعمري أن يجرب هذا الطقس ولكنه لم يستطع، فاستدعى الشيخ إلى عمان وقال له، لم أستطع الضرب، فرد الشيخ : " لكي تعلم بأنها ليست للعب أو لحب الظهور أمام العامة، وإنما هذه كرامة تخرج في حالة ظرفية خاصة".

في العام 2000 أُعطي المعمري الخلافة "أن يكون خليفة للشيخ المريد في إقامة الحضرات، إقامة الموالد، الطعن (الطعن النفسي والآخرين)، وإعطاء الإجازة في الطريقة الرفاعية"(88).

في العام 2007 رحل الشيخ عبدالرحيم المريد عن عمر يناهز 105 عام، وبموته ظهر خلاف بين أتباعه على من يتبعه.

---

(88) توجد في مكتبة المعمري في عمان، ويؤكد ذلك ابن الشيخ عبدالرحيم المريد، محمد في مقابلة له في فيلم المريد لخالد البدور.

المبحث الرابع
مرحلة الركود

بعد هذا التاريخ الحافل بإقامة الموالد، وجلسات ضرب الدبوس، والنشوات الروحانية التي كانت تعم أرجاء إمارة دبي. تعيش الصوفية اليوم حالة من الركود في نشاطها وفقدت الكثير من مكانتها على الساحة الدينية. ويعتبر رحيل الشيخ عبدالرحيم المريد في 2007، خسارة كبيرة باعتباره أبرز أعلامها التقليدين وملهميها . إذ بموته فقد التصوف الهالة الروحانية التي كانت تحيط به وتجمع حوله الأتباع، سواء من المواطنين أو الجاليات العربية أوالعمانية. وما يهدد إكمال المسيرة و يضعف سلسلة حركة "المريد"، هو أنه ليس هناك أحد من عائلته أو أحفاده اليوم لديه الطموح الديني الذي كان ينبع منه وأبيه عبدالله[89].

رأينا خلال مسيرة التصوف، خلف عبدالله المريد، السيد الافغاني ثم خلف عبدالرحيم المريد أبيه عبدالله، أما بعد وفاة عبدالرحيم بدأ التصدع داخل الحركة يدب على من سيخلفه إلى الكثير من التصدع داخل الحركة. أهم أبناء بن حميدان أم الشيخ حمدان المعمري؟ اختلفت الأقوال، إلا أن الراجح بأن خليفته من بعده في دبي هم أبناء بن حميدان، وفي سلطنة عمان الشيخ حمدان المعمري. ويتساءل الشيخ عيسى المانع فيما

---

(89) فيلم المريد، مصدر سابق.

يخص خلافة المريد لشيخه قائلاً: "الشيخ يجيز المريد بالأوراد المسندة، أما مسألة أن يخلفني من بعد فهذه لم أسمع بها"[90].

يبلغ أتباع الشيخ حمدان المعمري اليوم ما يقرب خمسين شخصاً من سلطنة عمان، ويقيمون المولد النبوي كل أربعاء في منزله.

أبرز البيوتات التي تقيم الموالد في دبي:

- منزل محمد الحداد القاطن في الحمرية.
- منزل إبراهيم ابن حميدان القاطن في الخوانيج.
- منزل الشيخ عيسى المانع القاطن في منطقة الصفا.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل هذا التراث الروحي الصوفي قادر على الصمود أمام المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها دبي؟

---

(90) فيلم المريد، مصدر سابق.

التصوف في البحرين والكويت

عمر البشير الترابي(*)

التصوف في البحرين و الكويت؛ صوت خجول، وباب موصد لمّا يفتحه الباحثون بعد، وما زال أهله يُداخلهم الخوف والتستر والتقية، في بلاد كانت في يوم ما صوفية خالصة، اكتسحتها التيارات الإسلاموية، التي ترى في التصوف نوعاً من العادات المنبوذة، والشعوذات المهجورة، إلى أن استيقظ العالم على انهيار أبراج التجارة في 11 سبتمبر 2001، فلم يعد بد من طرح خيار التصوف أو إحيائه وفسح الأبواب له من جديد، ليأخذ دوره، انضاف إلى ذلك صعود الطائفية في البحرين والكويت وهما بلدان يشهدان سباقات ديمقراطية محمومة وسجالات فكرية متواصلة، عاد إليها التصوف بعد صمت وتحرك فيها بعد ركود.

(*) كاتب وباحث سوداني، عضو هيئة التحرير في مركز المسبار للدراسات والبحوث.

هذه الورقة، تضع ملامح عامة للوجود الصوفي في البحرين والكويت، وتشير إلى التاريخ والأصول والأشياخ وتذكر الطرق، والملمح السياسي، لهذا الوجود.

اخترنا البحرين والكويت، لوجوه الشبه الكبيرة ، فهما يعيشان تعددًا سُنّيًا شيعيًا، و طرأ عليهما وجود سلفي وإسلاموي وإخواني. ويتشابه البلَدان في أن لهما بيئة سياسية متشابهة، فيها مساحة من الحريات والحراك السياسي والاجتماعي.

ترسم هذه الدراسة الخطوط العريضة للطرق، وسلسلة الرموز البارزة، والعلاقة مع القيادة السياسية والموقف من الآخر الشيعي، والإسلامي.

متصوفة البحرين

"التصوف ليس مذهباً ولا عقيدة.. التصوف سلوك دعا إليه الرسول".

بهذه الكلمات أماط الشيخ راشد بن إبراهيم المريخي اللثام عن عريضة دفاعه عن التصوف في البحرين وبدأ دفاعه أمام من يبدّعونه، مؤكدًا أن البحرين مالكية المذهب، صوفية الهوى منذ قرون طويلة وإلى وقت قريب حدده بعقدين من الزمان، مستنكرًا الهجوم الشرس الذي

وجهه السلفيون إليه و إلى صوفية البحرين، نافيًا عن ذاته، وطريقته أية بدع [1].

البحرين التي كانت من أوائل الأمصار التي دخلها الإسلام، أرض حضارات قديمة متعاقبة تمتد لآلاف السنين، لا يمكن تجاوز تأثير تلك الحضارات المتوارثة في تشكيل البنية النفسية لإنسان البحرين، فكونه ابن أرض كانت مركزًا لحضارة دلمون، وبلاد توالت عليها ألسن مختلفة وأديان متباينة؛ عربية وأعجمية مسيحية ويهودية وإسلامية وغيرها؛ و ظلت ممرًا تجاريًا لعقود طويلة؛ ومعبراً لمختلف الثقافات والمذاهب والعرقيات ؛ كل ذلك منحَ أهلها قدرة متوارثة على التعايش مع الأغراب والمختلفين، و قبول للتعدد والتمايز.

لذلك وبعد دخول الإسلام إلى البحرين، و تشكل الإسلام السُّني والشّيعي؛ تمايز أهلها إلى سُّنة وشيعة. ولعل حضور "ذاكرة المكان" وتعطش إنسان البحرين للروحانيات، جعل للتصوف موطئ قدم فيها؛ فينازع الصوفية بالقول : إن البحرين كانت صوفية خالصة قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

يؤكد الدكتور بشار الحادي أصالة الصوفية في البحرين وانتشاره فيها. وأشهر الطرق ورموزها من أهل البحرين، وأن أولى الطرق هي: " "الطريقة العادلية[2] الحريثية السهروردية" التي كانت موجودة بالبحرين

(1) جريدة الوسط البحرينية، نوافذ، حوار مع الشيخ إبراهيم المريخي، في 7 أكتوبر، 2008، العدد : 2223.
(2) العادلي نسبة للشيخ بدر الدين العادلي الذي أخذ عنه الطريق.

في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي؛ ومن أشهر من انتسب لها من أهل العلم: الشيخ عبدالله بن نشوان الظهراني العادلي طريقةً، والأوالي مولدًا، والخط مسكنًا، كان حيا سنة 1059هـ/ 1649 من علماء البحرين في تلك الحقبة. والشيخ عثمان بن حمد بن راشد بن ربيعة الشويهي مسكنًا العادلي طريقةً والأشعري معتقدًا كان حيا سنة 1066هـ/ 1655 ـ" . و الطريقة النقشبندية الخالدية في القرن 13هـ/ التاسع عشر الميلادي ومن أشهر شيوخها : الشيخ حسين بن أحمد الدوسري الخالدي(3) النقشبندي كان حيًا سنة 1244هـ/ 1828. و الطريقة القادرية في القرن 13هـ ومن أشهر شيوخها : الشيخ عثمان بن جامع الحنبلي القادري طريقة قاضي البحرين المتوفى سنة 1240هـ/ 1824. الطريقة الرفاعية في القرن 14هـ ومن أشهر شيوخها : الشيخ محمد بن سعد بن علي بن حمود البقيشي الرفاعي طريقة خطيب جامع المنامة الناسخ المشهور المتوفى سنة 1307هـ/ 1889. والطريقة النقشبندية في القرن 14هـ : ومن أشهر من انتسب لها : الشيخ إبراهيم بن هاشل بن عجمي الشافعي النقشبندي طريقة المتوفى سنة 1311هـ/ 1893 والشيخ عبدالله بن محمد بن أحمد ملك الكجوئي الشافعي النقشبندي طريقة سنة 1390هـ/ 1970 صاحب المدرسة الخيرية والطريقة النقشبندية في القرن 15هـ / العشرين الميلادي، ومن أشهر من انتسب إليها الشيخ محمد بن علي بن يعقوب الشهير بالحجازي الشافعي النقشبندي طريقة، والشيخ محمد رشيد بن عبدالرحيم جناحي الشافعي النقشبندي طريقة شيخ الطريقة النقشبندية بالبحرين في وقته" (4).

---

(3) نسبة لشيخه الشيخ خالد النقشبندي المجددي الذي أخذ عنه الطريق.

(4) بشار بن يوسف الحادي، علماء و أدباء البحرين في القرن الرابع عشر الهجري، بيت البحرين للدراسات والتوثيق، 2005، ص 45.

الرموز المؤثرة في صوفية البحرين

محمد بن يعقوب الحجازي

في تاريخ البحرين الحديث تبرز أسماء لشيوخ عرفوا بالإسناد العالي في التطرُّق؛ منهم الشيخ محمد بن يعقوب الحجازي (1908-1996)، لقبه بالحجازي شيخه الشيخ سعيد اليماني ، طلب العلم في مكة، شدّ الرحال أيضًا إلى الحجاز والمغرب، و مصر، وفي الأحساء لزم الشيخ محمد بن أبي بكر الملا الحنفي في مدرسته المعروفة بالرباط بالكوت، أجازه من شيوخ الحجاز : الشيخ حسن مشاف، والشيخ محمد نور والشيخ علوي المالكي، والشيخ سيد محمد رضوان، والشيخ أمين كتبي، والسيد محمد شريف. ومن البحرين الشيخ سعيد اليماني، والشيخ محمد شرف اليماني، والشيخ عيسى بن راشد والشيخ عبدالرزاق المحمود والشيخ ابراهيم الصحاف، كان شافعيًا، أشعريًا: يمنح إجازة أسماها الإجازة الحجازية لدلائل الخيرات، يقيم حلقة ذكر في المناسبات الإسلامية ويجعلها في ليلة الإثنين والجمعة، ومن تلامذته الشيخ محمد عبدالله عاشير، يوسف بن عبدالعزيز وجاسم بن محمد الغانم و خليل المهيزع وأحمد حميد، ومن أكابر من اعتنوا بأثره وذكره وآدابه وأقاموا على خدمته وأخذوا عنه: الشيخ راشد بن إبراهيم المريخي وقد لازمه منذ أن كان عمره أربع سنوات حتى وفاته وسنفصل في ذكره في الدراسة، ومن تلاميذه أيضًا الشيخ محمد أحمد أبوعلي، والشيخ عبدالعزيز علي، والشيخ ربيعة بن الشيخ محمود بوحسين والشيخ أحمد محمد عبدالجلال والشيخ محمد حسن شمس والشيخ أحمد محمد حميد؛

وكان معتنيًا في دروسه بكتاب أبي شجاع في الفقه، و كتاب العشماوية، وكتاب الشرح الصغير وكتب النحو مثل الأجرومية لابن دحلان [5].

وقد كان الشيخ من الطراز القديم من مشايخ الصوفية الذين يقيمون درسًا للخاصة، في السلوك، و يعتنون بتربيتهم وإعدادهم، ويقضون آخر أعمارهم في الخلوة و التنسك.

المريخي

في البحرين رموز صوفية كبيرة تولت الرعاية الصوفية في حياة الشيخ الحجازي وبعده في صدارتها، الشيخ راشد بن إبراهيم المريخي وهو من شيوخ الطريقة النقشبندية[6] وله إجازة في الطريقة القادرية؛ درس المريخي في البحرين و في الأحساء على يد الشيخ محمد أبي الملا، وكذلك في مكة أخذ العلم على يد الشيخ عباس بن علوي المالكي، والشيخ حسن مشاط، وأمين الكتبي، ومحمد سيف نور، والشيخ عبدالقادر السقاف، وكلهم أعيان لهم أسانيد عالية في التصوف، و ما زال إرثهم باقياً يشكل ثروة صوفية ، ولا تزال صلاته بنسل أشياخه ظاهرة، تتمثل في الزيارات المتبادلة بينه وبينهم كدعواته لآل السقاف ولآل المالكي ، وزيارته لهم للاحتفال معهم في المناسبات الصوفية المعروفة.

---

(5) انظر: بشر الحادي مرجع سابق. و حوار الشيخ المريخي. و نبذة تعريفية خطية تقرأ في ذكراه.
(6) انظر تقرير: the message of love , DANIEL MUNDEN, . July 12, 2009:
http://www.gulf-daily-news.com/NewsDetails.aspx?storyid=255378

عُيّن الشيخ رسمياً في دائرة الأوقاف البحرينية كخطيب في العام 1976، وأصبح خطيبا لمسجد الشيخ عيسى بن علي بأمر من رئيس الوزراء الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة. و في عام 1988 منع من الخطابة، بعد خلاف مع الأوقاف السنية، اختلفت أسبابه؛ فهو ينسبه لتيار معين بينما يدّعي آخرون أن المنع كان بسبب إشارته إلى "مصيبة" الحسين بن علي بن أبي طالب بنفس شّيعي.

للمريخي علاقة خاصة بالعائلة الحاكمة في البحرين، ويشير إلى ذلك مرارًا، بينما يعزو ما يتعرض له من مضايقات إلى السلفيين الذين تغلغوا في الأوقاف السنية، كما يشير إلى أن الإخوان المسلمين هم أيضا من بين خصومه الذين يكيدون له ، وهم من يشير إليهم "بنادي الإصلاح".

وبعد إزاحته من الخطابة في الثمانينات قلّت شعبية المريخي، وخمل ذكره، إلا أن المراقب يلحظ عودة قوية للمريخي، وحضورا متناميا للصوفية في السنوات الأخيرة، فبدت واضحةً الحظوةُ السياسية للشيخ المريخي، فأصبح يتردد على مجلسه عدد من الأعيان وعلى رأسهم رئيس مجلس الوزراء[7]، لم يقتصر الأمر على الزيارات، بل برز اسم نجله؛ الدكتور إبراهيم بن راشد المريخي[8]، عالمًا من علماء الأزهر الشريف، ومتحدثًا فقيهًا، و وَجيها له وزنه، و أصبح من القضاة الشرعيين وتدرج

---

(7) انظر تسجيل لزيارة رئيس مجلس الوزراء الشيخ حمد. زيارة سمو الشيخ خليفة بن سلمان للشيخ راشد المريخي في العان 2008:
http://www.youtube.com/watch?v=YZsWMQFzu20&feature=related

(8) جريدة الوسط البحرينية: http://www.alwasatnews.com/909/news/read/451972/1.html

إلى أن وُكل إليه القضاء الشرعي السُّني. وهو مشروع زعيم لامع، يوفده والده -شأن أشياخ الصوفية- ليَنوب عنه في الحضرات العالمية، ويقدمه مشايخ التصوف على كثيرين من أقرانه. وليس المريخي وحده من يمثل الصوفية في البحرين، فللقادرية من يمثلهم أيضًا.

ناجي العربي

العربي من شيوخ الطريقة القادرية في البحرين، وله أتباع كثر، وقد خاض غمار الانتخابات البرلمانية قبل عامين إلا أنه خسرها لصالح سامي قمبر المرشح الإخواني، وقال العربي إن سبب خسارته هو ترويج الإخوان والسلفيين لإشاعات مغرضة بين الناخبين تمّ اختلاقها بعناية، وهي لا أساس لها. فكان الناقمون على العربي من الإخوان يتهمونه بعلاقته بالشيعة و يدّعون أنه وعدهم ببناء حسينية لممارسة طقوسهم فيها، وهو ما نفاه العربي [9].

ذلك مشهد من مشاهد التنافر بين السلفية والصوفية في البحرين، إذ يصل هذا التنافر أحيانا حدًا يشعر السلفيون فيه بأن المتصوفة هم أقرب للشيعة منهم إلى السلفية، ويستدلون على هذا الاصطفاف بمساندة عدد من الشيعة للشيخ ناجي في الانتخابات التي أقيمت في نوفمبر تشرين الثاني من العام الماضي(2010) في الدائرة الخامسة بالمحرق.

---

(9) حوار مع قناة العربية. http://www.alarabiya.net/save_pdf.php?cont_id=36085

العلاقة بين المتصوفة والشيعة في البحرين تبدو أقل توترًا قياسا بعلاقات المتصوفة بالتيارات السنية السلفية الأخرى، يلطفها تعاطفٌ متبادلٌ يسوقه الفريقان، فالصوفية يسيحون في نضال ضد الطائفية وفي ذلك يقول الشيخ إبراهيم المريخي عن الشيعة "ننظر لهم على أنهم مسلمون، نجتمع معهم في الصلاة والصوم والحج وفي حبهم لأهل البيت وحب الصحابة، وإذا كان هناك نفر من الشيعة يسبّون الصحابة فنحن لا نقرهم على ذلك، وجل الشيعة لا يقرونهم أيضاً" يتذكر المريخي في سياق تبريره لنظرتهم كمتصوفة للشيعة، ويحاول طرح ما يطرحه الصوفية في بلدان إسلامية كثيرة عن أهمية وجودهم إذ هم "الصوفية" يحملون التدين التقليدي الطبيعي، ويمثلون الامتداد التاريخي الطبيعي للدين بلا تسيس أو تشدد ومغالاة، فيقول عاكسا الصورة الطبيعية للعلاقة بين السنة والشيعة: "ومازلت أتذكر والدتي التي درّست أهل المحرق كلهم القرآن، كيف كانت تستقبل من المتعلمين من أهالي الحدادة والصاغة وغيرهم من العوائل الشيعية التي تنتشر في المحرق، وكنا منذ عقود نستقبلهم ونزورهم ونقرأ على مرضاهم" ويمضي مؤكدًا "إن علاقتنا بإخواننا الشيعة علاقة طيبة لم تستطع حتى السياسة أن تبدلها وتغيرها، وأذكر أن الشيخ عبدالأمير الجمري (رحمه الله) زارني في المستشفى الدولي منذ فترة طويلة، وكان حينها الشيخ عبدالله بن خالد -وزير العدل والشئون الإسلامية آنذاك- يعودني، فقال له الجمري: أمثل هذا توقفونه عن الخطابة؟! .. كما أن علاقتي طيبة بعدد كبير من العلماء، كالشيخ محمد علي العكري والسيد عبدالله الغريفي والشيخ حمزة الديري، وقد دعيت إلى المساجد والمآتم فلبيت الدعوة لها، كمأتم البنائين والحدادة والصاغة والسكران ومأتم

سار وكرزكان وكريمي ووليد الكعبة." ويُبرّئ الشيخ العلماء من تهمة تأجيج الخلاف، أو الفتنة الصاعدة بين السّنة والشيعة؛ فالخلاف الموجود -بحسب المريخي- لا دخل للعلماء به بل سببه المتعصبون ولا يمكن علاج هذه الطائفية إلا بقطع الرأس التي تُخرج الفتن، ونحن نساهم بمؤلفاتنا وكتبنا بالدفع لنبذ الطائفية في هذا البلد الطيب."[10] ويقول ناجي العربي : "الشيعة مسلمون وهم في حظيرة الإسلام بالرغم من أننا نختلف معهم في بعض المسائل في الفروع والأصول، ومظلة الإسلام تشمل كل المسلمين"[11].

جمعية الإمام مالك بن أنس

المتنفّس الرسمي الوحيد للصوفية في البحرين تمثله جمعية الإمام مالك وهي حديثة نسبيًا[12]، فبحسب بيان الجمعية أنها قامت لتحقيق التالي : تصحيح المفاهيم الخاطئة من خلال إظهار محاسن الإسلام والمسلمين. وإحياء المسيرة العلمية فى البلاد؛ وإحياء مذهب الإمام مالك، وتعريف الناس به وبخصائصه. و السعى لترسيخ الفهم الصحيح لمعنى الالتزام بمذهب من المذاهب الإسلامية. و تصحيح المفاهيم حول معنى اختلاف المذاهب الإسلامية وترسيخ حقيقة كون اختلافهم رحمة للأمة. وتسعى الجمعية لتحقيق أهدافها في حدود القانون عبر وسائل إحياء

---

(10) الحوار: صحيفة الوسط البحرينية - العدد 2223 - الثلاثاء 07 أكتوبر 2008م الموافق 06 شوال 1429هـ

(11) لقاء مع قناة العربية : يوليو 2007: http://www.alarabiya.net/save_pdf.php?cont_id=36085

(12) الوسط البحرينية - العدد 382 - الثلثاء 23 سبتمبر 2003م الموافق 27 رجب 1424هـ
أسست جمعية الامام مالك بن أنس حديثا، بموجب ترخيص من وزارة العمل والجهات الرسمية المختصة، وقال نائب رئيس مجلس الادارة غسان العبيدلي ان الجمعية تعنى بشكل مباشر بدعم الحركة العلمية الشرعية الفقهية، وإقامة المحاضرات والندوات ذات العلاقة بالشريعة والفقه والسلوك والأخلاق الإسلامية. يرأس مجلس إدارتها القاضي ابراهيم راشد المريخي

التراث الإسلامى بالمساهمة فى إخراج الكتب والمؤلفات التى تُعنَى بالفقه والحديث وما شاكلها من علوم جليلة تهم المسلم فى دينه. عقدت الجمعية العديد من الدروس والمحاضرات و الندوات الكبرى، من خلال تنظيم دروس فقهية تعنى بجميع الأعمار والمستويات ورعاية حلقات تحفيظ القران الكريم(13)، و لها دور هام في المساهمة فى إحياء المناسبات الدينية.

تُجابَه الجمعيةُ من قبل السلفيين بالتبديع، وينشرون في الرد على إعلاناتها المطويات والكتب و تنشط المواقع الإلكترونية(14) متناقلة ذلك. أقامت الجمعية العديد من المهرجانات الدعائية والإنشادية ودعت العديد من أقطاب التصوف ورجالاته، أبرزهم الشيخ الحبيب على الجفري، الذي دعته في 2005 وقدَّم محاضرتين، اعترض عليهما السلفيون، وانتشرت تسجيلات وخطب مسجلة على الكاسيت تندد به وبعقيدته وبالتصوف وبالجمعية، مما اضطر الجمعية إلى حشد الردود على ذلك في سجال طال نفسه وتصاعد (15).

الجمعية في نشاطها العام تقوم بتنشيط الساحة الفكرية في البحرين وتأهيلها لتقديم مزيد من التسامح ليُقابل التعدد الكبير في البحرين. وفي ذلك يقول الشيخ راشد نحن قد نُسجِّل امتناعًا عن بعض

---

(13) انظر النشرة التعريفية بموقع الجمعية : http://www.e-malek.com

(14) انظر الاعتراض على إقامتها احتفالاً بالإسراء والمعراج :بعنوان أي وعي تبثه جمعية الإمام مالك؟: http://www.alhda.org/index.php?option=com_content&task=view&id=193&Itemid=30

(15) لمتابعة الردود انظر رد الجمعية على تسجيل صوتي أصدره الشيخ البحريني حسن قاري بعنوان الترحيب بالجفري: http://www.e-malek.com/rodood/tar7eeb

الممارسات التي لا نرضاها، ولكننا نؤمن -كشأن الصوفية- بأن للآخر أن يستهلك ما يريد، ويمارس مايريد [16].

يفهم الإخوان والسلفيون دعوة الصوفية للتعايش مع الشيعة على أنها تمييع للدين وإذابة الفروق بين السنة والشيعة، ولكن الصوفية يمضون في هذا الطريق الداعي للتعايش، فكان الشيخ المريخي أحد المبادرين للتوقيع على وثيقة للتسامح والتعايش الاجتماعي في البحرين أواخر نوفمبر 2008، والتي دعت فيها شخصيات من أتباع الديانات والمذاهب في مملكة البحرين إلى التعايش السلمي في البحرين "بغض النظر عن الانتماء الديني أو العرقي أو الفكري"، ونشر ثقافة التسامح الديني، ونبذ العنف والكراهية والتطرف والتعصب. وللشيخ المريخي مبادرات تعاون لا تتوقف مع شيعة البحرين بهدف "جمع شمل المسلمين على كلمة واحدة"، "والعيش في جو هادئ مطمئن كما كان قديما بين أحضان العلماء والفقهاء والحكام الطيبين" [17].

---

(16) the message of love , DANIEL MUNDEN, . July 12, 2009
http://www.gulf-daily-news.com/NewsDetails.aspx?storyid=255378

(17) صادق الشيراوي، الإسلاميون السنة في البحرين.. صوفية وسلفية وإخوان،
http://www.islamonline.net/i3/ContentServer?pagename=IslamOnline/i3LayoutA&c=OldArticle&cid=1256034016152

بعض المواقف السياسية للمتصوفة

وقف الصوفية مع العائلة المالكة، في أعقاب الأحداث الاحتجاجية الأخيرة في البحرين، كان هذا موقف ناجي العربي بوصفه عضوًا في لجان الحوار وممثلاً للصوفية إذ يؤكد رفضه "أن يكون شخص الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء عرضة للكلام أو النقاش، مشيرا إلى أن الغالبية العظمى من شعب البحرين قام كما رأى العالم أجمع في استفتاء غير مسيس أو مسير، ونادى نحو 450 ألف مواطن يشكلون ثلثي سكان البحرين برفض أي بديل لرئيس الوزراء وأنه لا مساومة في ذلك، وأكد أنه من حق أي جناح أو كتلة سياسية التعبير عن رؤيتها بمطلق الحرية، وليس لأحد أن يرجح على أحد.[18] و يلتزم المتصوفة في البحرين بموالاة ولي الأمر، وهو عرف صوفي في أن لا ينزعوا يدًا من طاعة.

الصوفية فى البحرين تُزاحِم كلاّ من "الإخوان المسلمين" التنظيم الأقدم منذ منتصف الستينيات و"الحركة السلفية" منذ ولادتها فى أوائل الثمانينيات، وحركة "الأحرار" البحرينية الشيعية الواسعة الانتشار وكما يظهر فإن منافستها الأشرس تكون مع الإخوان والسلفيين، كما أشار لذلك الشيخ المريخي، والعربي مرارًا، فالعربي يشير إلى أن السلفيّين يلغون الآخر، و الإخوان يريدون الوصول لمصالحهم على حساب أي شئ[19].

---

(18) صحيفة الشرق الأوسط :
http://aawsat.com/details.asp?section=4&article=631957&issueno=11922

(19) انظر لقاء الشيخ العربي مع العربية نت في يوليو 2007 : http://www.alarabiya.net/save_pdf.php?cont_id=36085

اتهم العربي في اللقاء السلفية بـ"نبذ وتحطيم الآخر" فيما اتهم تيار الإخوان بـ"الاستحواذ والسعي وراء مصالحه الخاصة" . وأن بعض خصوم الصوفية ينشرون بين العوام أن "الصوفية والكفر شيء واحد" .

هذه المنافسة الطاحنة، والمغالبة المستمرة، أجبرت الصوفية على التجدد، وإظهار رموز جدد، وشيوخ يتعاطون مع العصر.

تحاول الصوفية فى البحرين- فى طرحها أن تقدم صورة للإسلام البعيد كل البعد عن التطرف والأصولية- محاصرة بين تلك الجماعات والجمعيات والطوائف المختلفة فى البحرين، فأخذت تتواصل مع أقرانها فى الخارج، وخاصة فى مصر والسودان اللتين لعبتا دوراً هاماً فى شد أواصر الصلة بين رأس وجسد كل طريقة من هذه الطرق. تحدو الجماعاتِ الصوفيةَ آمالٌ كبيرة، وتدفعها طموحاتها بشكل قوى نحو الوجود المؤثر والفعال على الساحة السياسية البحرينية[20].

الموقف من الليبراليين

يرفض الشيخ ناجي العربي الأوصاف العلمانية التي يُخوّف بها رواد الإسلام السياسي من بعض التيارات الفكرية، ويشير إلى انفتاحه على من أسماهم بالليبراليين و العلمانيين؛ قال حينما سؤال عن موقفه من العلمانيين "إنه لا يحب هذه التوصيفات، الكثير ممن يسمون بالعلمانيين يصلون في المساجد وليس قصدهم الوقوف ضد الدين" ويقول أيضًا "نحن لا نكفرهم إلا من أتى بكفر بواح". ويرى أنه من "الواجب الانفتاح عليهم بقصد التقارب وبيان الخطأ والصواب" [21].

---

(20) مصطفى زهران، الصوفية فى البحرين.. مزيج من الدين والسياسة :
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=139825

(21) انظر لقاء العربي مع العربية نت في يوليو 2007:
http://www.alarabiya.net/save_pdf.php?cont_id=36085

نجاح الصوفية في البحرين

يشير الباحثون والمراقبوان وبعض أعداء الصوفية إلى دعم خفي، بدأت تتلقاه الجماعات الصوفية في البحرين، وإسناد رسمي لتقديم إسلام غير مسيس، يأتي هذا الدعم من الحكومات، مجاراة للدعم الذي يأتي للحركة الصوفية في العالم بعد أحداث سبتمبر.

أيًا كانت صحة هذه الأحاديث من عدمها، فإن أحداث أيلول سبتمبر الإرهابية، نبّهت العالم إلى خطورة الفكر السلفي الجهادي، وتجارب الإسلام السياسي المتشنجة، أوجبت محاولة دعم بديل، فلم يكن بدّ من مزيد من الحرية للكيانات الطبيعية. الصوفية أمام تحديات حقيقية، وهي أن تستمر هذه الكيانات كحركة اجتماعية لها اعتبار سياسي، ولا تقودها السياسة لتصبح حركة سياسية لها رصيد ديني، المجتمع البحريني يحتاج رتق النسيج الاجتماعي، بجهود التشارك المتبادل، والتآسي و الزيارات.

متصوفة الكويت

"الصوفية قديمة في الكويت، وجدت قبل أن أولد بسنوات مديدة ومن قرأ تاريخ الكويت يعرف ذلك."

هكذا علّق النائب البرلماني والأكاديمي الكويتي الدكتور محمد بن عبدالغفار الشريف على اتهام البعض له بأنه يحاول إحياء المفاهيم والروح

الصوفية من جديد في الكويت[22]؛ يؤيده في ذلك مريدون و شيوخ طرق صوفية في الكويت، نشاطهم وقوتهم وعزمهم وانتظامهم يوحي بأن هنالك جذوراً ضاربة تحرّك هذا الواقع، وترسمه، فطقوس المتصوّفة من مجالس ذكر وإحياء للموالد وحوليّات الأولياء؛ حاضرة في "الديوانيات" و حضرات المشايخ، وهو ما يشير إليه يوسف الرفاعي شيخ الصوفية في الكويت، مشيرًا إلى أن الموالد واحتفالات الإسراء والمعراج، وغيرها موجودة في الكويت منذ زمن قديم مستدلاً بكتابات الأدباء والمؤرخين مثل، يوسف بن عيسى، وعبدالله نوري، وسيف الشملان، عبدالله الحاتم، وغيرهم مشيرًا إلى أن المسلك الصوفي كان موجودًا في الكويت ولكن ربما لم يكن الاسم حاضرًا [23]. في الكويت كانت الصوفية حاضرة في السلوك لكن كثيرا من الطرق وفدت إمّا من العراق، أو مع الوافدين من مصر وسوريا وغيرها من البلدان التي عرفت بالتصوف[24]. يقول الرفاعي "التصوف هو الزهد والإقبال على الله والتدين وزيادة الطاعات، وهي أمور كانت موجودة في الكويت منذ القدم ويسمون من يقوم بها «الملالوة» ومثال ذلك الموالد التي كانت تقام في الكويت وعلى إثر أحدها تقرر إنشاء المدرسة المباركية"[25].

(22) صحيفة الرأي العام الكويتية: 20 مارس 2006 العدد 14152.

(23) لقاء تلفزيون الوطن مع السيد يوسف الرفاعي؛ عن الصوفية :
http://www.youtube.com/watch?v=OerLBNV6gBU&feature=mfu_in_order&list=UL

(24) انظر صحيفة الوطن الكويتية، تسرد الصحيفة أسماء الحضرات وجنسيات مرتاديها وطرقهم الرفاعية والبيومية وغيرها.
انظر: http://www.alwatan.com.kw/Default.as...9944&pageId=35

(25) صحيفة الأنباء الخميس 27 يناير 2011.
http://www.alanba.com.kw/AbsoluteNMNEW/templates/local2010.aspx?articleid=167960&zoneid=14&m=0

رموز المتصوفة

الوزير الأسبق يوسف السيد هاشم الرفاعي المولود في الكويت سنة 1932، المنتسب إلى السيد أحمد الرفاعي؛ هو الأب الروحي لصوفية الكويت. كان عضوا في مجلس الأمة سنة 1963م، ووزيرا سابقًا لوزارات عديدة. هو الأكبر سنا ووزنا والراعي للتصوف في الكويت، ، وله قبول عالمي، بوصفه شيخًا للطريقة الرفاعية في الكويت.

وهناك -كما سبق- محمد عبد الغفار الشريف الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف وعميد كلية الشريعة سابقا، والدكتور يوسف الشراح، والشيخ حمد سنان، والدكتور عبد الله المعتوق وزير الأوقاف السابق وغيرهم.

بيادر السلام النسائية

لم يهمل الصوفية في الكويت الجانب النسائي ، حيث تمثل جمعية بيادر السلام النسائية جمعية نفع عام تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل أشهرت بقرار وزير الشؤون الاجتماعية والعمل عام 1981م، تهدف إلى تحقيق أهداف اجتماعية وتربوية وثقافية ودينية، وتقديرا لدور المرأة الفعال في رفع مسيرة المجتمع والنهوض به إلى الأفضل انطلقت المرأة الكويتية من خلال هذه الجمعية تسعى لخدمة المجتمع على جميع أصعدته

وعلى جميع المستويات واتخذت من الإيمان والعمل شعارا[26] وقد أنشئت هذه الجمعية بدعم من الشيخ يوسف الرفاعي ، وتشرف على عدد من المؤسسات التربوية ومنها مدرسة القطوف الخاصة، وحضانة السلام، وحضانة دار الفرح، وترأست مجلس إدارة الجمعية دلال عبد الله العثمان [27].

المتصوفة والإسلاميون

يتعايش المتصوفة مع غيرهم في العادة، بقدر من التسامح والانفتاح، وذلك من مزايا البعد الروحي للتصوف، الذي يكسر الحدود مع الآخر.

فبالرغم من أن السيد يوسف الرفاعي، كان من الناشطين في جمعية الإرشاد والمؤسسين لجمعية الإصلاح إلا أنه استمر يؤكد على أنه ابتعد عنها، وليس له بها صلة [28]، وظلت علاقته مع الإخوان المسلمين والتيار السلفي علاقة متوترة، ليس هو فحسب بل كل المحسوبين على

---

(26) المركز الدولي للدراسات مداد؛ الجمعيات:
http://www.medadcenter.com/Charities/show.aspx?Id=116

(27) الصوفية في الكويت..نبتة في بيئة سلفية
http://www.islamonline.net/i3/ContentServer?pagename=IslamOnline/i3LayoutA&c=OldArticle&cid=1237705927994

(28) موقع السيد يوسف الرفاعي الشخصي : http://www.rifaieonline.com/cv.aspx
ويقول في سيرته الذاتية: من الأعضاء المؤسسين لجمعية (الإصلاح الاجتماعي) وإن كان بعيدا عن نشاطها في الوقت الحاضر.

التصوف، فالتقارير تشير إلى أنّ كثيراً من منتسبي التصوف يتخفَّون خِشية التيار السلفي.

التنافس البيني يرجعه الرفاعي إلى أن "الحركات الإسلامية المتطرفة غارت من الصوفية لأن الصوفية لم يغيروا منهجهم، موضحًا أن هذه الحركات تخاف أن تقول للناس إنها فشلت وأن منهجها خاطئ؛ ويشير إلى أن مكمنَ الغيرة أيضًا هو في بوار المنهج المتطرف وكساد تجارته خاصة عندما قامت الحركات الإسلامية المتطرفة بأعمال استوجبت أن تحاربها الدول الغربية، كما حدث في أحداث الحادي عشر من سبتمبر. فتعرّضت الحركات لمراقبة وملاحقة وتضييق، فغارت لأن الصوفية لم يشملها هذا التضييق وتساءلوا لماذا الصوفية لم يمسسها سوء؟ لماذا الحكومات لا تخاف من المتصوفة الذين يستطيعون دخول أي بلد. فادَّعوا أن أمريكا راضية عن الصوفية. هذه الإشاعة تبرير لتعثر هذه الحركات.

المنهج الصوفي منهج سلام وعدالة، فالصوفي يركز على تحبيب غير المسلم في أخلاق المسلم حتى يعتنق الإسلام، أما الحركات الإسلامية المتطرفة فتلجأ إلى القوة والقهر واستخدام التكفير والتفسيق والتفجير. المتصوفة منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهم رحمة وسكينة"[29].

لم يقتصر هجوم الإسلام السياسي والسلفيين على الرفاعي وحده، فقد طال أيضاً محمد بن عبدالغفار الشريف الذي حمل بشدة

---

(29) لقاء للسيد يوسف الرفاعي مع صحيفة الوطن الكويتية في: تاريخ النشر: الثلاثاء 23 / 1 / 2007.

على من اعتبرهم «بعض العاملين في الساحة الإسلامية الذين يصفون كل من يخالف فكرهم بأنه منحرف أو ضال أو مبتدع» معتبراً أن من «يوزع هذه المصطلحات على الناس يؤسس لواقع مؤلم». وناشد المربين: حرام عليكم ان تملأوا قلوب أبنائنا بالحقد والاحتقار لخلق الله وأن تعلموهم أنكم وحدكم على الحق والباقون على ضلال وهلاك"، ويروج الإسلاميون بأنه " عبدالغفار الشريف" رأس حربة ضد المشاريع والمفاهيم الإسلامية، وأن الليبراليين و العلمانيين، يستخدمونه طمعا لضرب آراء الجماعات الإسلامية، وقد رد على سؤال مماثل قائلاً "من تسميهم الإسلاميين كانوا في يوم من الأيام يحرمون عضوية البرلمان - مجلس الأمة، ويحرمون دخول الوزارات ويعتبرون ذلك طاغوتاً واليوم يتقاتلون على هذين الأمرين، وأسألهم بكل صراحة وقد سألت هذا السؤال أحد أشد المتحمسين ضد حقوق المرأة، ماذا ستفعلون الآن بعد إقرار الحقوق السياسية للمرأة، هل ستمنعون نساءكم وبناتكم من التصويت؟ أم أنكم ستحلونه عاماً وتحرمونه عاماً!"(30).

المتصوفة والشيعة

يشير الشيخ يوسف الرفاعي إلى أن الصوفية يقفون في منطقة الوسطية والاعتدال بين السلفية المتطرفة والتشيع، خاصة وأن غالب أهل الطرق ينتسب أشياخهم إلى آل البيت، مما جعل لهم قربًا روحيًا بينهم

---

(30) انظر الموقع الشخصي للشيخ عبدالغفار؛
http://www.dralsherif.net/Print.aspx?SectionID=3&RefID=43

وبين الشيعة[31]. لذلك يروى عنه قوله: "أنا شيعي وفق مفهومي الخاص.. لكنني سني العقيدة شافعي المذهب" وللرفاعي جهود في مجال التقريب بين السنة والشيعة [32].

مستقبل الصوفية في الكويت

تستطيع الصوفية في الكويت لعب دور تقريبي، بين السنة والشيعة، وتحتاج لتقوية علاقتها بالدولة والاستفادة من الحرية النسبية، إذا أرادت الخروج من الحصار، لم تستغل الصوفية في الكويت وجود شخصيات قيادية تستطيع التأسيس لكيان رسمي قوي، بالرغم من القدرة على ذلك.

خلاصة

وجود الصوفية في البحرين أصيل، وقوي، وقد انبعث في العقد الأخير ليكون جماعة متماسكة ومستقبله مناط بمدى قدرته على المحافظة على روح الأصالة، والروحانية العالية، دون أن تفقد السياسة الأشياخ هيبتهم، ورهنت نجاحهم في تجديد طرحهم بقدرتهم على الإفلات من فخّ الاستغراق في النقاش حول المسائل الخلافية مع السلفية و الإخوان، وبذل الوسع لتطوير روح التصوف لتسع قلق الحاضر وإنسان الخليج.

---

(31) لقاء تلفزيوني: مع السيد يوسف الرفاعي؛ عن الصوفية :

http://www.youtube.com/watch?v=OerLBNV6gBU&feature=mfu_in_order&list=UL

(32) الصوفية في الكويت نبتة في بيئة سلفية، مرجع سابق.

أما الكويت فقد عرفت التصوف قديمًا في سلوك النُّساك والعباد. ويبقى التصوف الفردي فيها طاغيًا على حساب التصوف الطرقي، ولم تستثمر بعد الوجود القوي لرجال يستطيعون تأسيس مجاميع تقود المتصوفة وتذود عنهم.

على المتصوفة في الخليج أن يحاولوا تقديم إسلام خالٍ من الغرض السياسي، بعيد عن الوصولوية والمطامع السلطوية، وأن يمارسوا دورهم في إعلاء قيام التسامح وقبول الآخر، و أن يطوروا الكيان الصوفي ليتسع لحداثة العصر، وينمي القيم التي تبني الإنسان.

وهابيون متصوفون

منصور النقيدان(*)

هذه الشهادة تعرض جوانب من الزهد والورع والنسك والخمول[1] الذي كان يمتاز به بعض من عرفتهم أو رويت عنهم من (إخوان بريدة[2]) وهم عشرات من أتباع مدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كانوا حُمْسَ الوهابيين والأمناء على تعاليم الإمام وسدنة مدرسته.

(*) باحث سعودي.رئيس التحرير بمركز المسبار .

(1) أي البعد عن الحشود والأتباع والانشغال بالنفس وإصلاح رعوناتها، وليس القصد منه الخمول عن الدعاء أو الفتور عن العبادة والتقاعس عن سلوك طريق القوم.

(2) "الإخوان" وهو وصف لاعلاقة له بجماعة "الإخوان المسلمين". ووصف " الإخوان" نابع من كونهم إخوة في الله اجتمعوا على محبته واتباع سنة رسوله، وهو وصف محبب لكل من تطوع في نجد منذ فترة مبكرة لانتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد كان المتطوعون المقاتلون من أبناء البادية في جيش الملك عبدالعزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية يسمون بـ"الإخوان"، ولهذا يقال عنهم"إخوان من طاع الله".ومن مطوّعة نجد إخوان بريدة، ومع ذلك فقد كان لكل من إخوان بريدة ، والإخوان البدو، أفكار يتميزون بها عن بعضهم البعض. وكل هذه الفئات لاعلاقة لها بالإخوان المسلمين.وإخوان بريدة هم حنابلة وهابيون، تعرضت جماعتهم الصغيرة للتحولات والتطورات بشكل كبير منذ تسعينيات القرن الماضي. واليوم 2011، تكاد تلك الجماعة بأفكارها وانعزالها وولائها العميق للحكم السياسي تتعرض للانقراض، بعدما تحول كثير منهم إلى الجهادية السلفية.

وهذه القصص التي أرويها وثيقة تاريخية تشي بنزعة صوفية حنبلية عند الجماعة، وتظهر فاقعة عند أحد أعلامهم وأكثرهم شهرة وغرابة وجاذبية الشيخ فهد بن عبيد العبدالمحسن، مع آخرين من علماء الإخوان وطلبة العلم فيهم وعامتهم[3].

تحـولات وشوق لايتبـدل

لازمتني منذ سنوات يفاعي رغبة في الاعتراف كلما غلت نفسي وبلغت أوج قلقها وشعورها بالشقاء. شعرت بالحسد تجاه المتصوفة، وراق لي فترة من الزمن اعتراف المسيحي بين يدي رجل الدين، ويدهشني أولئك البسطاء الأنقياء الذين كلما طلبت منهم شرح مايحملونه بين جوانحهم من أسى، حمدوا الله على الحال والستر وطمأنينة البال.

قبل خمسة وعشرين عاماً، كنت شاباً مراهقاً في السابعة عشرة من العمر، أقضي ساعات نهاري وشطراً من الليل متنقلاً بين رواق مسجد الحميدي وبين سرحته الغربية. وكنت أقضي وقتاً طويلاً من نهاري متنقلاً بين ثلاث غرف صغيرة مكتظة بالكتب والأوراق والكراريس المغبرة، وقد

---

(3) أظن أن عدم وجود شخصيات ملهمة قريبة منا في ثقافتنا الاجتماعية نابع من أن الجميع يتعاطى مع الأعلام والشخصيات التاريخية على أنهم نمط واحد ماعدا فروقا بسيطة لاتغني شيئا. على خلاف الأعلام الذين نعرف تفاصيل كثيرة جدا عنهم من الأوائل. وباستعراض تراجم علماء نجد، سنرى أن مئات الأشخاص الذين قرأنا عنهم يبدون متشابهين متطابقين وكأنهم أحجار مصمتة.من المؤسف أننا لانعرف تفاصيل حياة محمد بن عبدالوهاب، أو الشيخ عمر بن محمد بن سليم، أو محمد بن إبراهيم وأمثالهم. أستثني كتابين اثنين أحدهما لعبدالله بن سعدي (لمحات من حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي) وكتاب(رحلتي نحو النور) لمالك الرحبي عن حياة ابن عثيمين، فكل من هذين العالمين قدمه الكاتب إنسانا بكل مزاياه وعيوبه. وقد تسببت بعض القصص التي ذكرها محمد بن عثمان القاضي في كتابه(روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد) عن بعض من ترجم لهم بإحراج له وعتب وغضب من بعض أبناء من روى عنهم القصص. وذلك كان درسا لمن يفكرون بكتابة سير الأعلام بطريقة أكثر شفافية وأكثر حميمية عمن يترجمون له.

توزعت الغرف بين أرجاء المسجد وفي سطحه. كان المسجد قبل هدمه في 1988 يحوي سبع غرف، وخمس منها كانت نزلاً لأشخاص رحل معظمهم عن دنيانا وقبل ولادتي بعقود. ثلاث منها كانت صوامع لعباد ونساك وطلبة للعلم. سكبوا فيها الدموع، وباحوا بين جنباتها بلواعج نفوسهم. وبعيداً عن أنفاس البشر، ووطأة ظلهم وجدوا الأنس في وحدتهم، والطمأنينة في خلوتهم. منهم من فارق الدنيا وهو على تلك الحال، ومنهم من فترت همته وانشغل كأبناء زمانه من أبناء الدنيا، حيث مثلت له تلك الذكرى بين جنبات مسجد الحميدي نبعاً من الطمأنينة وتميمة من مصارع السوء، أو كوة تشرف على حدائق الأحزان وأشواق بني الإنسان، أو نقطة دوامة من الأسئلة التي تهجم عليه كطرقات القدر، وتلوك السالك في خلوته وتعصف به حتى تتركه طريح الفراش مدنفاً خاثر النفس، مفجوعاً بإيمانه.

أكبر مكابدة كان يواجهها نساك السلف الأوائل والعارفون الكبار منهم، هي تقلب النفس وطيشانها والتوتر الذي يعصف بهم مع خفقات قلوبهم الليل والنهار. مع تقلب(النوايا) ومصارعة النفس وحملها على الإخلاص ومحاسبتها بقسوة كلما أصابهم الفتور أو مالوا نحو الدعة وشعروا بالنشوة للذكر بين الناس ووطئهم أذيالهم والاحتشاد بأبوابهم طلباً لحكمتهم واقتباساً من نور بصيرتهم. لهذا كان شيخي وصديقي عبدالله الحبلين الذي لازمته عاماً كاملاً (1986) مثل ظله في مراهقتي يؤكد لي كل حين أن على الإنسان أن يستعيذ بالله من الشهوة الخفية.

ذات مرة وأنا برفقة هذا الصديق العابد استوقفنا قبل المغيب شيخ محدودب الظهر لحيته بيضاء كالقطن، صافحته يومها وكان يحمل صندوقاً صغيراً من البندورة. أشار إلى الصندوق وقال لنا: "لقد جمعتها من الأرض. إنها حلال لاشبهة فيه، لامنة لأحد من الخلق فيها". سأله صديقي عن الشهوة الخفية، فأجابه "هي حب الرئاسة". لم يكن ذلك الإنسان الغريب إلا محمد بن عبدالله أبا الخيل(توفي في1991) الذي كان معروفاً بـ(ولد ابو ركعة) لأن أباه كان مثلاً في العبادة والزهد، وجاء الابن حذو والده. كان ذلك الشيخ يخبر بعض المقربين منه ومن عرفوا حاله ووثق بهم أن له أصدقاء من الجن، يؤانسونه وله جماعة منهم يأنس بهم ويسامرهم أحياناً. كان محمد أبا الخيل يعيش وحيداً، بعيداً عن ابنائه وأحفاده. وفي منزله كانت مكتبته موزعة في عشرات من سلال الخوص وسعف النخل[4]، فلم يكن يحب أن تكون رفوف الكتب في قوائم كما هو معروف ومعتاد.كان يرى ذلك سوء أدب مع الكتب، أو أمراً محدثاً على غير نهج الأسلاف. وقد كان يتجنب كل الأغذية المعلبة والمشروبات الغازية، ويحمل نفسه على هجران من عرف منه ذلك من أحبابه وأصدقائه. وقد قاطعني قبل وفاته بثلاث سنوات حينما سمع بأنني عقدت مجلس مباهلة مع الشيخ الزاهد الأسطوري عبدالكريم الحميد[5] حول حقيقة مانقله ابن قيم الجوزية عن شيخه ابن تيمية عن فناء نار الكفار ودخول كل البشر مؤمنهم وكافرهم في الجنة بعدما يتطهرون بالعذاب ماشاء الله من

---

(4) السلة معروفة باللهجة الدارجة بـ(الزبيل) أي الزنبيل

(5) كتبت عنه مقالتين في مجلة المجلة يناير 2000، وأخرى مطولة في جريدة الوطن السعودية 2002. وعبدالكريم الآن قيد الإقامة الجبرية منذ أربع سنوات في مدينة الطائف غرب السعودية، بعدما قامت الحكومة بسجنه مرتين بعد تورطه في علاقات وثيقة مع مجموعات اعتنقت الجهادية السلفية. وهو الآن في العقد السابع من العمر. انظر. منصور النقيدان.جرعة من حياة بسيطة.جريدة الرياض. 4 يوليو2010:
http://www.alriyadh.com/2010/07/04/article540390.html

الحقب والأزمان. وزاد وضعي تعقيداً عند (ولد أبو ركعة) حين شهد اثنان عنده أنني تعاطيت المعلبات[6].

لم يسبق لي أن التقيت بناسك من الإخوان، كان قد فارق الدنيا قبل أن أدركه وهو حمد الرشودي، وكان كما حكي لي عنه يتجنب المرور بشارع الخبيب، الذي كان هو شارع التجارة والبنوك وتنتشر على جنباته المتاجر التي يباع فيها الدخان وأجهزة التليفزيون وكل ماينتمي إلى وسائل اللهو. استمر على هذه السنة ثمانية عشر عاماً حتى وفاته. وهذا الحذر كان تعبيراً عن الاحتساب والرفض الصامت الذي هو أدنى درجات إنكار المنكر، وفي زيارة الملك فهد بن عبدالعزيز لبريدة عام 1408 هـ/ أبريل 1988، هجر رهط من الإخوان خُفية بريدة طوال أيام زيارته، حيث قضوا تلك الأيام في مزرعة بأم الذيابة التي تبعد أربعين كم عن بريدة. وقد قوبل ذلك الموقف المتشدد من شباب الإخوان بالنقد والتعنيف لهم من قبل من هم أكبر منهم سناً[7].

قصص كالأساطير

لسنوات طويلة شَغفت قلبي شخوص المعتكفين الذين يلزمون سواري الحرمين ركعاً سجداً منذ غروب الشمس وحتى الهزيع الأخير من

---

(6) ونقل إليه أنني شربت البيبسي ذات مرة فكانت نهاية صلته بي. وكان أتقياء الإخوان يتجنبون المعلبات ماعدا التونة والزيتون. ولكنهم لم يكونوا يغلظون ويعنفون من يتعاطاها إلا فئة قليلة منهم.

(7) كان الانتقاد من شيوخ الإخوان لأن اعتزال المدينة أثناء زيارة الملك تعبير عن موقف سياسي احتجاجي وعدم رضا، وإن كان قد برر من قبل رهط (المعتزلة) بأن الزيارة الملكية يصحبها انتشار الصور في الشورع والطرق والأغاني والطبول وما يمكن وصفه في رؤية الإخوان بـ(اللهو والفسق).

شجرة أو ناحية من الصحراء في ظلمة الليل، ولاتهدأ روحه حتى يرى أستار الكعبة.

كنت أعجب كيف لمثل هؤلاء أن يحتملوا العيش، فقلوبهم منكسرة وأحزانهم لا تنقضي، حتى جاء اليوم الذي انكشفت لي فيه حقيقة القوم. فلم يكن مايكابدونه حزناً، بل غبطة وسلوى. كان غسيلا لقلوبهم ونسيماً باردًا يهدهد أرواحهم المستوحشة من كل من حولهم.

قال لي صديق قديم اسمه صالح الحصان: شكا جدي مرة جدتي إلى فقيه الشماسية ضيف الله اليوسف وقال: إنها خير النساء ولكنها لاتلقي لي بالاً حين يأتيني الضيوف وهي منشغلة بصلاة الضحى. إنها تستمر في صلاتها حتى تنهيها والضيف ينتظر، وطاعتي أولى من نافلة الضحى، فتلطف معها الشيخ ونقل إليها ظُلامة زوجها، فكان ردها: "عندما أكبِّر تكبيرة الإحرام أرى كوة من النور تفتح لي من السماء، وتغشاني هالته وتغمرني تهاويله، فكيف لي بأن أسمع نداء زوجي ولو سمعته لأجبته." فلزم جدي الصمت وتركها لعشقها السماوي، وبعد موتها عاش تسعين ليلة محطم القلب، كان يأوي كل يوم إلى غرفته، فيندس منعزلاً ويبكي حرقة على فراقها حتى لفظ أنفاسه.

ومرة وقع شيخي عبدالله بن محمد الدويش على طالب عنزي من بادية القصيم، كان قد ناهز الثالثة عشرة وهو ينفث الدخان من فمه خارج أسوار المدرسة الدينية الأهلية، فأبلغ الشيخ مدير المدرسة صالح البجادي،

فاستدعى الطالب وضربه على يديه، مكتفياً بشهادة الشيخ، ولكن الغلام أنكر ذلك وفر هارباً من المدرسة وهو يدعو على من ظلمه، أخذ الدويش ليالي لم يهدأ له بال، أزعجه الأرق وآلمه أن يكون قد تراءى لعينيه مالم يكن فيكون قد ظلم الصبي، فطلب من أحد تلاميذه أن يدله على بيت والد الطالب في اللابدية شرق بريدة، وقال له بعد أن قبل رأسه "سامحني لقد أخطأت في حقك وشهدتُ بما لست مستيقنا منه" وبعد أيام شوهد الطالب وهو ينفث الدخان من سيجارته.

لم يكن الدويش يحمل رخصة قيادة، وفي أسبوع المرور صادفته نقطة تفتيش فشحنوه مع المخالفين إلى التوقيف ومضى عليه نصف يوم وهو صامت، لم يقل لهم إن كثيراً من أئمة وخطباء بريدة من تلاميذه، ولم يقدم نفسه كعالم دين عليهم أن يوقروه ومن واجبهم عدم التعرض له، بل انشغل بقراءة القرآن والصلاة، وبعد أن قام طلابه وأحد أساتذته بالبحث عنه لساعات جاءهم الخبر، فتوجهوا إلى مكتب مدير المرور وشرحوا له الحال عاتبين عليهم احتجازه، فأوضح لهم أن صاحبهم لم ينطق بكلمة واحدة ولم يكشف عن حاله.

كان الدويش لورعه يتحاشى أن يمر بطريق شُق فوق عقار لم يكن صاحبه راضياً بالتنازل عنه وقبول التثمين من الحكومة. وقبيل وفاته وبعد رحيله كان الجدل بين مريديه عن نسكه وعن صيامه وصلاته، فلم يكن معظم من حوله وبعضٌ من أقرب تلاميذه يعلمون أنه كان يصوم يوماً ويفطر آخر حتى لقي ربه. لمحتُه مرة قبل وفاته بشهور بعد أذان المغرب وقد

تريث قليلاً ثم نهض فمال على البرادة واختطف رشفة من الماء ثم أخذ مكانه في الصف.

وكان معتق الحربي وهو بدوي من قبيلة حرب يحكي قصة كالحُلم والأساطير، أنه كان يرعى غنيمات له في بادية حائل فعصفت الريح ذات يوم وحملته كالقشة وألقته عند الجامع الكبير في بريدة، نفض ثيابه ونهض. لم يفكر بالعودة إلى مرابعه، بل قنع بقدره ومنتهى حاله واستوطن أرضه الجديدة وعاش طوال عمره مخبتاً قانعاً.

كان الشيخ محمد العليط يجتاز خافض الرأس كل ضحى بسوق الذهب وقبة رشيد في طريقه إلى الجامع الكبير ليلقي درسه، وبين المتسوقات من النسوة والصبايا يمر كالطيف حتى يقف على عتبة المسجد فيرفع رأسه، مرة تشجع أحدهم وألمح إليه بأنه لايليق بمثله أن يجتاز بسوق للشيطان فيه حظ ومرتع فقال: إنني من حين أخرج من بيتي حتى أعود وأنا مطأطئ الرأس، تقودني خطاي نحو غايتي ثم أعود أدراجي من دون أن أرى ماتذكره.

لهذا كان هؤلاء الأتقياء يقرؤون كثيراً في كتب التصوف وسير المتنسكين وأحوالِ القلوب ويقضي الواحد منهم وقته بين طلب الرزق من كسب يده أو في شؤون أبنائه وبين الكتب ودروس العلم أو تراه قائماً يصلي في محرابه، وتراهم ينفرون من الكتب والمحاضرات التي تخلط الدين بالسياسة، وتعجن الوعظ بمطامح الملك والزعامة.

كان لصديقي عبدالله الحجيلان بيت تحت الإنشاء وكان يمر بمنزله كل يوم يطمئن على سير البناء ويتفقد الاحتياجات، ولكنه توقف فجأة عن جولته اليومية بعد أن تلقى توبيخاً من أحدهم لأن عمال البناء تسببوا بإزعاج المصلين في صلاة العصر ولم يجيبوا النداء، بقي على هذه الحال شهرين حتى هدأت نفسه وخفت آلامه.

وبعد أن اختار هذا الإنسان الفريد من نوعه كسب رزقه من تجارة التمور، اكتشف مرة أن واحداً من صناديق التمر عاد به المشتري، وكان يحتوي على مسامير، فقام بإتلاف كل بضاعته وكانت قيمتها في ذلك الوقت 1408 هـ / 1987 خمسة وثلاثين ألف درهم[9].

ولقد تصرمت أعوام وأنا أسمع بكاء أمي في مصلاها قبل الفجر بساعة أو قبل أن تأوي إلى فراشها، كانت تسح دمعاً كثيراً كل ليلة، لقد بكت أكثر من ألف ليلة وهي اليوم تنشج كسابق عهدها كما كانت أمها من قبلها، أعرف ذلك منها لأنني أجده في صوتها رغم بعدي عنها، كانت تختنق بكلماتها المتحشرجة وهي في مصلاها وكنت أصغي إليها بحزن، وإذا لمحتني واقفاً وهي تتهيأ للهجوع أو لتسترخي قبل طلوع الفجر تقول: إنني أعرفه جيداً. إنه لم يخذلني يوماً. أنا أعرفه. إنه حبيبي.

---

(9) يؤسفني أن كثيراً من إخوان بريدة الذين أتحدث الآن عنهم إما أنهم فارقوا دنيانا، أو تعرضوا خلال الست عشرة سنة الماضية منذ 1994 لتحولات فكرية عميقة جعلت من غالبيتهم اليوم من معتنقي فكر الجهادية السلفية أو من مجندي تنظيم القاعدة أو الداعمين له.إن قيام الحكومة السعودية منذ 2003 بسجن ثلاثة أجيال من عائلة واحدة من هذه الجماعة، الجد والابن والحفيد بتهم تتعلق بدعم القاعدة، يعكس التحول الكبير والمحزن، وهو يؤكد أن الإخوان الحنابلة الذين عرفتهم في عام 1985، ثم شاغبتهم وأنا منهم وجفوتهم ونبذوني ولما أزل منهم على خلاف بسيط ببعض التفاصيل منذ 1990، ثم انسلخت منهم بشكل كامل عام 1994، هم اليوم في طور الانقراض.

لحظة تجلي

كانت إحدى ليالي شتاء 1407هـ/ فبراير 1987 ليلة مطيرة تثعب جراءها ميازيب بيوت الطين التي تقع في الممر الضيق المقابل للباب الجنوبي لمسجد حميدان جنوب بريدة. كنت لحظتها أهيم على وجهي في برزخ بين المادة والروح وعالم الغيب والشهادة، كنت واقعاً تحت تأثير موعظة للشيخ فهد العبيد شرح فيها حديث اختصام الملأ الأعلى وقصة وضع الرحمن أنامله على كتف النبي محمد. كان ابن عبيد يلقي كلماته في الظلمة[10] بصوت جهوري متهدج يبعث الرهبة والشعور بالجلال، كان جالساً في مصلاه . يمكنك أن تلمحه وأنت في سمت الصف إذا رنوت ببصرك إليه وهو يدفع جسمه نحو الأمام لاطئاً بالأرض. تلك الليلة سرد ابن عبيد أسماء متصوفة كبار كالجنيد وأبي يزيد البسطامي، لم يكن يتهيب أن يذكرهم أو أن يستشهد بأحوالهم ويروي تحفاً من حكمهم وفتوحاتهم. في ذلك الممر الضيق جنوب المسجد واجهت شيخاً كان قد شارف على الثمانين من آل الدباسي، كان يعيش مع زوجته العجوز وإحدى بناته في بيت على ذلك الطريق. ولما مر بي ذلك الشيخ وهو يتهادى على جانب الطريق، عصفت بي لحظتها أمنية أن أكون كهذا الشيخ الذي تصرمت حياته راكعاً وساجداً. بعد سنوات أخبرني زميل لي كان قد جاور هذا الشيخ العابد أنه كان نائماً قبل الفجر، فرأى في المنام ديك جاره الدباسي وهو ينادي بلسان فصيح أن "اتقوا الله، اتقوا الله"، قال فاستيقظت على صياح الديك نفسه[11].

---

(10) الإخوان كانوا يفضلون إطفاء الأنوار أثناء الصلاة في الليل، ويفعلون ذلك ما أمكنهم. ولهذا ألقى فهد العبيد موعظته والأنوار مطفأة. والسر في تفضيل الظلمة أنها لحظات يتواطأ فيها القلب واللسان وتجعل المصلي أكثر إقبالا على صلاته وأقل انشغالا بما حوله.

(11) حكاية أرويها لتكشف البعد الغرائبي ضمن سياق هذه الشهادة. ثمة قصص مشابهة تجنبت روايتها.

في السابق وقبل بلوغي الثلاثين كنت أجد راحة النفس بالشكوى أعقاب الصلوات وفي السجود في لحظات التجلي في العشر الأواخر بين سواري المسجد الحرام، أو في المساجد العتيقة في بريدة، أو معفراً وجهي في رمال صحراء نجد الباردة قبل طلوع الفجر. وفي السنوات العشر الأخيرة وجدت بعضاً من السلوى حينما أصغي إلى قراءة المنشاوي وعبد الباسط، ولكن استمر معي ذلك الشوق العارم إلى شيخ صوفي أبوح إليه وأنثر بين يديه أحزان روحي كمريد بين يدي شيخه(12).

المتصوفة الأشرار

في شهر رمضان 1411هجري/ مارس 1991، شهدت أروقة المسجد الحرام بمكة المكرمة أياماً من التوتر والملاسنات التي تطورت إلى اشتباكات بالأيدي بين مريدي وطلاب السيد محمد علوي مالكي الزعيم الروحي لمتصوفة الحجاز، وبين عشرات من السلفيين الذين كانوا يتنادون كل مساء ليحيطوا به قبل الإفطار حتى مضي ساعة من بعد صلاة المغرب.

كان رجال الأمن في المسجد الحرام يحيطون بالمالكي والمتحلقين حوله كالطوق، حماية لهم وإبعاداً للمتطفلين الذين تكاثرت أعدادهم يوما بعد يوم. يطوق رجالَ الأمن من خلفهم دائرةٌ أكبر من الغاضبين الذين كانوا يطلقون صرخاتهم، ويدعون إلى طرد المتصوفة من المسجد الحرام. وكان المالكي يتجاهل كل مايحصل حوله، مكتفياً بإظهار الترحاب بكل

(12) حاولت ذلك أكثر من مرة في السنوات الماضية مع بعض من رأيت فيهم شيئاً من نور الله. كان آخرها قبل أربعة شهور. ولكنها كانت مشاريع فاشلة.

زائر ومريد يطمح للسلام عليه وتقبيل يده والقرب منه.ولأن مريديه كانوا قلقين من أن يناله أحد بسوء فقد كان حلمهم -المشوب بغضب مكتوم وتوتر مشوب بعجز وشعور بالقهر- يتهاوى تحت الشتائم التي تنطلق من كل صوب، تصفهم بالقبوريين والمبتدعة والخرافيين.

كنت وقتها في مكة ينقل إلي أصدقائي ممن لاينقطعون عن حضور تلك المشاحنات التي زادت عن أسبوع تفاصيل مايجري حيث بلغت الأحداث ذروتها بعدما اشتبك السلفيون بطلاب الشيخ المالكي وبرجال الأمن أيضا أكثر من مرة. ولم تنقطع تلك المصادمات إلا بعدما سافر المالكي إلى مكة ليقضي باقي أيام رمضان في حضرة المصطفى بطيبة.

تكثف تلك الحادثة التي كنت شاهداً عليها قصة السلفية الوهابية مع الصوفية والمتصوفة. ولم يكن مستغرباً أن يكون معظم المشاركين الحانقين في تلك الواقعة من نجد وسط السعودية. وإذا أردنا الدقة فقد كانت تلك الحادثة تشي بما استبطنه ذلك الاحتجاج الديني من دوافع اجتماعية ومناطقية، نبعت من الشعور بالتفوق والاستعلاء النجدي الاجتماعي والسياسي والديني على حاضرة الحجاز وأشكال الثقافة والتنوع المذهبي والعرقي الذي زخر بها منذ مئات السنين. وهو استعلاء نشأ مع الدولة السعودية الأولى وتمدد دعوة ابن عبدالوهاب حتى ابتلعت الحجاز والحرمين، وهو استعلاء ظهر فاقعاً في فتح الحجاز 1344هـ/ 1925 ، واستمر حتى اليوم بمظاهر وتجليات متعددة.

سمعت بالـ(صوفية) و(المتصوفة) لأول مرة عام 1983 وأنا ابن أربع عشرة عاماً من صديق زاملني في متوسطة القادسية ببريدة، اسمه علي الهديب. ولأن والده كان مغرماً بالكتب وجمعها فقد كان صديقي محظوظاً بالاطلاع على عشرات الكتب التي وجد من بينها كتاب ابن الجوزي الحنبلي(تلبيس إبليس) في نقد المتصوفة. جذبني عنوان الكتاب فالتمست من صديقي أن يعيرني إياه أياماً، وقع الكتاب بين يدي ولكنني لم أستوعب منه إلا قليلاً. كانت خلاصة فائدتي من تصفح الكتاب هي أن المتصوفة عباد وزهاد قد يخرجون عن سنة الرسول وطريقة أصحابه ويقعون في الضلالة والكفر أحياناً.

بعدها بسنة تقريباً قام أحد المتبرعين بطباعة كتاب صغير كان تلخيصا لكتاب المتصوف الكبير عبدالقادر الجيلاني الحنبلي (الفتح الرباني والفيض الرحماني) لخصه الشيخ محمد بن سليمان العليِّط، الذي أصبح بعد ذلك شيخاً لي حيث درست عليه ولازمته أكثر من عام في مسجد عودة المعروف بمسجد الحميدي جنوب بريدة. ومن جامع ابن مساعد الذي يعرف الآن بجامع السكيتي بحي الصناعة في بريدة، حصلت على نسخة من كتاب العليط الذي غصت به رفوف المصاحف في شهر رمضان 1405هـ/1985.كان الكتاب تهذيباً وتنقية لكتاب الجيلاني، وهو مايشابه ماقام به قبل ذلك العراقي عبدالمنعم العزي في كتابه (تهذيب مدارج السالكين). وهي سنة اتبعها متأخرو السلفية منذ منتصف القرن التاسع عشر مع بعض كتب الرقائق والمواعظ مثل منهاج القاصدين، الذي هو تلخيص من كتاب الغزالي(إحياء علوم الدين).

الليل وفي سويعات الضحى، يرشفون رحيق عشقهم ويتدثرون بألطاف الحبيب قريباً من الكعبة أو خلف المقام. كنت سويعاتٍ أسترق السمع وأصغي إليهم وهم يهمهمون ويريقون دموع التضرع وينفثون تباريحهم وأوصابهم التي كتموها ودفنوها بين جوانحهم.

مرة قال لي واحد منهم هو محمد الأحمدي(8) وهو شاب دون الأربعين: إن في المسجد الحرام شيوخاً لم يفارقوه منذ ثلاثين عاماً قدموا من شرق آسيا ومن القوقاز بعد أن عقدوا عزمهم وودعوا أحبابهم، وذات ليلة باردة شدوا الرحال مهاجرين إلى مهبط الوحي ليفنوا الباقي من أعمارهم في مكة أو في طيبة حيث رسم للرسول ومعهدُ.

في مسجد عيسى جنوب بريدة كان إبراهيم بن عثمان القرعاوي يندّي الرمل الذي يعفر فيه وجهه، كنا نعرف مصلاه بعد انفضاض المصلين، ليس عليك إلا أن تبحث في روضة المسجد خلف الإمام موضع ثلاثة عن يساره أومثلهم عن يمينه، هناك دائما بقعة مبللة بالماء، كانت تلك دموعه التي روّى بها الأرض، كان يهمس همساً يلتقطه كل من حوله، أحيانا أميزه بين الصف وهو ساجد قبل الإقامة لأنه كان يرتجف وتنوء أشواقه بجسده الضخم، وما أكثر ماسمعت كلماته الوجلة وأنا على بعد خطوات منه. قال لي حفيده: سافرت معه بالسيارة إلى العمرة فكان يأمرني بالوقوف كل ساعتين فيجدد وضوءه ثم يعمد إلى الصلاة في ظل

(8) كان من أركان المسجد الحرام. وكان يومها قد شارف على الأربعين، ولم يكن يبارح المسجد إلا للوضوء والغسل أو لدعوة توجه إليه من صديق. بقي سنوات ملازماً للمسجد يتعبد الله ويذكره ويسح دموعه بين الحطيم وزمزم.

الهدف من تأليف المختصرات هو تبسيط الأصل وتسهيله وتخفيف لغته وجعله في متناول شرائح أوسع وتسهيله للعامة والمبتدئين في الطلب. ولكن بعد تنامي السلفية منذ قرنين فإن كثيرا من الملخصات لكتب الرقائق والتصوف والوعظ كان القصد منها تنقيتها من المآخذ العقدية التي يصعب تجاوزها أو يمكنها أن تحول دون انتشار الكتاب الأم، وهذا مايفسر عشرات الملخصات لكتاب الإحياء للغزالي.

السلف والتصوف

نشأتُ في بيئة سلفية ترضع تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عززها التزام ديني صارم منذ بلغتُ السادسة عشرة استمر لخمس سنوات، ثم بدء بالذبول والتحول أطواراً متعددة، انتهت تقريباً عام 2004.

منذ 1985 حتى نهاية التسعينيات من القرن الماضي كنت أتنقل بين دوائر التدين السلفي الوهابي بنكهاته المتعددة وتوجهات متنوعة مختلفة ومؤتلفة أحياناً. وكان الحديث عن التصوف وسير المتصوفة وعجائبهم وكراماتهم وشطحاتهم حاضراً على الدوام. وذلك يعود ذلك إلى عاملين:

أولهما، أن حنابلة عظاماً فقهاء وعارفين وسالكين كانوا متصوفة، وكتبوا في التصوف مثل ابن الجوزي، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وابن رجب الحنبلي. وقبلهم الهروي صاحب منازل السائرين، وكانت أحوالهم وسيرهم تؤكد ميولهم نحو التصوف.

والعامل الثاني، أنني كنت قد اعتنقت تعاليم (إخوان بريدة) منذ 1406 هـ/ 1985. وهم متصوفة الوهابية وأكثرهم ورعاً وحماسة لتعاليم الإمام المؤسس وأشدهم تعصباً لمدرسته.يشبه إخوان بريدة ثقباً في الزمن ليس لهم من عصرهم إلا المعاصرة ومن نظرائهم إلا المشاكلة في السحنات والمجاورة في السكنى، ولكن أشواقهم ومرابعهم الروحية ومنتهى غاياتهم تقبع في الرجوع القهقرى اثني عشر قرناً من الزمان في حضرة ابن سيرين والحسن البصري وسفيان الثوري ونفحات إبراهيم بن إدهم وأنفاس أحمد بن حنبل و محمد بن واسع ومن كان يقفو أثرهم من متأخري النساك الحنابلة وغيرهم.

ولكن الموقف من أعلام المتصوفة عند إخوان بريدة كان ملتبساً على الدوام، كان الرفض واضحاً تجاه الطرق والزوايا وتحضير الأرواح وادعاء مخاطبة الرسول وسقوط الفرائض وتخفيف الشرائع ببلوغ السالك مراتب متقدمة من الإحسان والقرب من الله. ومع ذلك فقد كانت سير المتصوفة وتفاصيل حيواتهم وبعض ماينقل عنهم من قصص وكرامات وفتوحات وحكم وقصص غريبة لها تأثير واضح ووقع حسن، ويتجلى ذلك أوضح مايكون في كتابات ابن قيم الجوزية في كتابيه (مدارج السالكين) و(طريق الهجرتين)، وفي رسائل وفتاوى ابن تيمية. ومع مايمتاز به حنابلة السعودية من نفور عقدي مذهبي من وصف أحد بالمتصوف أو الثناء على الصوفية، إلا أن كثيراً من الأحوال والممارسات في سياق الزهد أو الورع أو النسك والعبادة والإخبات والخوف من الله ومحاسبة الذات كانت تتجلى في تصرفاتهم وتقلباتهم وتطبيقهم للتدين الذي ارتضوه.

في عام 1407هـ/1986 انقطع زميل لنا اسمه (ناصر الغصن) عن دروس الفقه التي كنا نتتبعها عند أكثر من شيخ في بريدة، وبعد أيام من الانقطاع تقفَّرنا خبره حتى باح لنا بما كان يعيشه من أحوال عصفت به. لقد انغمس في كتب السير والتراجم والسلوك، بين حلية الأولياء، وسير أعلام النبلاء، ومدارج السالكين، ووصايا المتصوفة الأوائل، ولقوة الوارد وضعف المورود- كما يقول السابقون- رقت نفسه، وأشفق عليها أن تكون عرضة للحساب والمساءلة أمام الله، حين يعلم من الدين ويعرف من الشريعة ويقرأ من العلم ويحفظ من القرآن ما تعظم به الحجة وتقوم به الشواهد على حق الله عليه، مقابل تقصيره وقلة عبادته وتواضع سره مع الله، وعجزه عن أن يبلغ بنفسه من مرتبة الإحسان مايبعث الرضى من الرحمن ويسبغ الألطاف من لدنه. فانقطع عن حفظ القرآن وتوقف عن تدارس السنة، وأقبل على نفسه يلومها ويوبخها، قانعاً بأن يقف عند تلك العتبة، وجلاً أن يكون محل لوم أو حساب. وبعد أيام قليلة قويت نفسه وفارق تلك الأحوال من الضعف والذبول، وعادت روحه أدراجها، ولازمته البسمة التي عهدناها في محياه.

كان الإخوان في بريدة شأن غيرهم من الحنابلة السلف يحرصون على قراءة واقتناء كتب التاريخ والتراجم التي تناولت حيوات المتصوفة من أعلام القرون الأربعة الأولى، مثل حلية الأولياء لأبي نعيم، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وغيرها من الكتب التي تناولت سير المتقدمين من أهل الحديث والأثر وما فيها من قصص الزهد والسلوك والتصوف السلوكي

والأخلاقي مثل الورع والبعد عن الحرام والمشتبهات[13]، والحرص على طيب المأكل والمشرب والملبس، والعزلة عن الخلق، والأنس بالخلوة مع الله والتقلل من الدنيا والقناعة منها بالقليل. أما المباحث الفقهية والكلامية حول التصوف والإشكالات التي أثيرت حول أعلام مثل أبي حامد الغزالي، والحلاج، وابن الفارض، وابن عربي[14]، فإن المرجع هو كتب ابن تيمية وابن القيم وابن رجب الحنبلي، وماهو منثور من رسائل وفتاوى لأئمة الدعوة منذ محمد بن عبدالوهاب.

وقد كان من إخوان بريدة من عاش حياة من الزهد والورع والعبادة والانكفاء على النفس قريبة جداً من الحيوات التي تروى عن أعلام كبار متقدمين من أئمة السلف الأوائل. مثلما كان عليه محمد بن عبدالعزيز السليم. الذي عاش عقوداً من حياته التي تجاوزت السبعين عاماً ولم يسمح لنفسه بأن يأكل إلا من كسب يده. فكان يجيب الدعوة ولكنه لايأكل خارج

(13) يتجنب إخوان بريدة إدخال الصور إلى بيوتهم، لأنها تحول دون دخول الملائكة لبيوتهم، كما جاء في الحديث النبوي، وهم يرون كل صورة سواء كانت على صندوق او علبة صلصة أو كتاب، أكانت مجسمة أم ذات ظل أم صبغا وتلوينا ونقشا داخلة في التجريم، وقد وقعت قصتان لاثنين من الإخوان تسربت صور إلى بيوتهم من دون علمهم وشعروا بثقل ظلها متجسداً بغمة روحية وقلق وتشويش أثناء النوم، وهو مايبدو نوعا من النقاء الروحي والصفاء الذي خدشته تلك المنغصات، حيث تسببت تلك الصور بأذي مادي ترجمته تلك الأعراض، ومثلها قصة حصلت مع الشيخ صالح بن رشيد الفراج، حيث كان يرى في المنام كلبا ينبح في وجهه، وبعد أيام من التقصي هدأت نفسه بعد أن وجد جهاز راديو كان يخفيه أحد أبنائه في غرفته ويستمع منه إلى الأخبار والأغاني. ولم تهدأ روحه حتى أتلف الجهاز. عند الإخوان في بريدة فإن الراديو والتليفزيون والجرائد هي من وسائل اللهو المحرمة .

(14) أبو حامد الغزالي هو إحدى الشخصيات الإشكالية حتى عند ابن تيمية، فقد اختلف كلامه عنه في أكثر من موضع في رسائله وفتاواه، وامتد موقف الشيخ من أبي حامد إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب ومدرسته، وهذا ماجعل من موقف إخوان بريدة من الغزالي ومن كتبه أكثر تسامحا مع تحفظهم على فكره وفلسفته ومآخذ عقدية خطيرة رأوها فيها، على غرار موقف أئمة الدعوة النجدية. وهذا الموقف من الغزالي المتسامح نسبيا خلافا لمحيي الدين ابن عربي وابن الفارض، والعفيف التلمساني والحلاج. فقد كان هؤلاء الأربعة رموز الشر في التصوف المنبوذ وأكبر المجدفين . وكان الرأي السائد خليط من الأحكام فهم إما خارجون عن الملة أو ذوو نحل باطنية وحلولية زنادقة.ومن البديهي أن كتب هؤلاء الأعلام وأدبياتهم لم تكن بين أيدينا وغير مسموح ببيعها أو تداولها، فكنا نقرأ عنهم بواسطة أئمتنا ونقد مخالفيهم من المعاصرين.

بيته ولا يشرب فنجان قهوة، وقد عرف كل أحبابه هذه الخصلة فيه، ولهذا لم يكونوا يحمِّلونه مالا يطيق، ولا يحرجونه بـ"التلزيم".

نفور حتمته البيئة القاسية

ينفر حنابلة وسط الجزيرة العربية من أي ميول صوفية تتمثل في التجافي الشديد من أي ممارسات أو عادات تبدو دخيلة وذات منبع صوفي، نجد شاهده في الجفول من جماعة التبليغ والدعوة، وهي جماعة تميل نحو التصوف والتخفف من أثقال الدنيا، ومع أن كثيراً من مواعظهم ممزوجة بالجبرية ونفي السببية وجعل مرد كثير من الأحداث والتغيرات في الآفاق وفي الأنفس والاجتماع إلى قانون "الاقتران"، إلا أن التبليغيين النجديين يبقون لفترات طويلة محصنين ضد تواكل العجم ودروشتهم بحيث تبقى تلك الأفكار والمثل مفصولة عن واقع الحياة الذي يعيشونه ويكابدون فيه طلب الرزق وكسب العيش.

في عام 1986 كنت شاهداً على واقعة مؤلمة، حين أُخضع واحد من زملائنا، كان يحضر جلساتنا في القراءة والمدارسة، ويحرص على ملازمة حلق التعليم الديني في المساجد، ولكنه اقتيد مرغماً ومكبلاً لعلاج في المصحة النفسية، بعد أن انكفأ في المسجد لأكثر من شهرين متفرغاً للعبادة وتلاوة الأذكار وأهمل بيته وأبناءه، وقد تلقى أحد أصحابي الذي لم يحتمل ذلك الموقف المحزن صفعات ساخنة من خال صاحبنا عبدالله، حيث كان الخال مشرفاً على مايحدث، وقد انخرط صديقي في معركة غير

متكافئة لتخليص هذا البائس من قيوده بعد أن أقتاده العاملون الأشداء في المصحة النفسية إلى الباص.

كانت بريدة مثل غيرها من مدن السعودية تعج بعشرات أو مئات من أولئك المستهترين الذين تسببت لهم المخدرات والخمور بضياع بيوتهم، ولكنهم لم يُخضعوا لمثل تلك الإجراءات من قبل أهاليهم، لأن الخطر كان يكمن في أن تحظى تلك الدروشة- التي تجسدت في صاحبنا (عبدالله)- من يشجعها ويسمح بفشوها. فكان لامناص من القضاء عليها، في بيئة لاتؤمن إلا بالصلاة والعمل. كان صاحبنا عبدالله مشروعاً فاشلا لمتصوف تخلى عن الدنيا، ولهذا تخلى عنه الجميع من أولئك الذين جمعته بهم الألفة الدينية والحب في الله ومجالس الذكر، فالجميع كان يصادق على تلك الخطوة التي قام بها أقاربه، والجميع كانوا سدنة لتلك الأخلاق العملية في بيئة صارمة تحتم على أبنائها العمل وطلب الرزق وإن قل المردود أو كان مصيرهم النبذ.

وهذا ماكان ينعكس في أولئك الأطفال الذين لم يجاوزوا الخامسة من العمر وهم يطوفون منذ التباشير الأولى للصباح أيام الخميس والجمعة بين دكاكين قبة رشيد والوسعة وسط بريدة القديمة وينادون بأعلى صوتهم بكلمات لاتكاد تبين عن بضائعهم من المناديل والمناشف والجوارب، وتصيبك الدهشة من ذلك الطفل الذي يملك والده الملايين وهو يماكسك على النصف ريال ويوضح لك بطريقة أخاذة تأسر القلب أن الثمن الذي تقترحه لايفيده ولا "يخارجه". وهي مظاهر تكاد اليوم تتلاشى بعد التحول

الاجتماعي والثقافي والأخلاقي الذي يعيشه المجتمع منذ أكثر من عشرين عاماً.

إن جذور تلك الأخلاق العملية عند الحنابلة المتأخرين بعد الشيخ محمد بن عبدالوهاب تعود إلى العهد الأول والنصوص المؤسّسة في القرآن والحديث، ولكن ما امتاز به حنابلة نجد هو محاولة تنقية وإزالة الشوائب في محاولة للعودة إلى الأصول الأولى.

ويشير راينهارد شولتسه في كتابه "الإسلام والسلطة" إلى انعكاسات الثراء على المجتمع النجدي في العقود الأربعة الماضية بعد دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، يذكر أن " المثل الإحسانية القديمة لم يتبق منها سوى السلطة الأخلاقية لعلماء الدين الذين أصبحت مهمتهم الرئيسية توفيق تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب مع ثقافة الثراء الجديدة؛ فقد حلت دعوة الشيخ هذه المشكلة ضمن إطار المفهوم التقليدي بأن اعتبرت الثروة والقوة نعمة من الله يجب قبولها"(15).

وتكشف رسالة للشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب نشرت في الطبعة الأولى من مجموعة "الدرر السنية"(16)، عن مرارة شديدة ألمت به إثر انتقاد حاد وجهه له واحد من طلابه، وفيها يذكر ابن حسن كيف أن "ابن عتيق" عاب عليه انشغاله بزراعة أرضه

---

(15) القصيمي بين الأصولية والانشقاق، يورغان فازلا - دار الكنوز الأدبية - لبنان 2001 ص 94.
(16) الرسالة موجودة في كتاب الجهاد من الدرر السنية، طبعة العام 1964 المعروفة بطبعة الملك سعود.ولكنها أزيلت من الطبعات اللاحقة.

والحرث والتعلق بأذناب البقر وترك الجهاد. وفي الرسالة يؤكد ابن حسن على أهمية الأكل من كسب اليد والاستغناء عن الناس، مستشهداً بوصايا الرسول التي تشجع المسلم على العمل وتحض على الأكل من كسب اليد، ويسرد من أقوال المتقدمين مايؤكد على أهمية الاستقلال الاقتصادي للفقيه، حتى لايكون ممسحة يُتمندل بها كما عبر سعيد بن المسيب ذات مرة.

الرسالة تعكس إحدى سمات الشخصية الوهابية الجوهرية التي كانت تركز على جانب العبادة والعمل، وتنفر من الرهبنة والنسك الصوفي.

ويأتي ضمن هذا السياق تفسير الشيخ محمد بن عبدالوهاب للآية رقم 97 من سورة النحل " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون"" ، وهو أن الحياة الطيبة ليست قاصرة على السعادة الروحية والرضا، بل تشمل ماهو أوسع وأشمل فالحياة الهنيئة الرغدة والثراء الذي ينعم الله به على عباده ويقوم المسلم بأداء حقه، هو أيضاً من طيب الحياة المعجلة التي وعد الله بها عباده المؤمنين(17).

هذا النزوع نحو المزاوجة بين طيب الحياتين الدنيوية والأخروية عند المسلم الصالح، يفسر أيضاً سرّ الحظوة الكبيرة التي يتمتع بها أثرياء الصحابة مثل الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف

---

(17) كتاب «التفسير» وهو الجزء العاشر من الدرر السنية، انظر مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وبلغ حداً من الكرم والسخاء كان يقوم فيه بسداد ديون بعض مريديه ومساعدتهم في تغطية تكاليف الزواج أو شراء سيارة. وهكذا الحال مع فهد العشاب الذي توفي عام 1990 مورثاً عشرات الملايين، وقد كان يملك حياً بأكمله غربي بريدة وهو حي الخبيبية ومزرعة كبيرة في المليدة بيعت بعشرات الملايين وعقارات شاسعة. ولكن العشاب كان يلبس بتواضع ويأكل مايسد رمقه، وبلغ حداً من الورع امتنع فيه عن دهان الواجهة الخارجية لمنزله لأنه كان يرى في ذلك إضاعة للمال.

عبدالله الدويش

ولد عبدالله بن محمد الدويش في الزلفي. وتلقى العلم في بريدة على علمائها منذ أوائل السبعينيات، ثم استقر بها حتى وفاته، في الشيحية شمال غرب بريدة قبل مغيب شمس يوم الأحد السابع والعشرين من شهر شوال 1408هـ/ 12 يونيو 1988، عن عمر يناهز السابعة والثلاثين.

كانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها إثر تدهور صحته بأسبوع تقريباً، صام الستة من شوال في مكة، ثم قام بزيارة أقاربه في الزلفي، وبعد أسبوع من استئناف دروسه في مساجد بريدة ساءت صحته منتصف الشهر. لا أظنه عرفني يومها . انتظرته للسلام عليه وهو خارج من الجامع الكبير في الخبيبية بعد صلاة العصر، رأيته متكئاً على اثنين من الأخوان وبشته الأبيض الرقيق مرتخ فوق منكبيه الناحلين، خطوت نحوه فمال علي بجسمه الذاوي وقامته الفارعة وأنا أغالب قصري لأتمكن من

تقبيل جبينه، اعتمدت على أطراف أصابعي ولكنني أشفقت عليه وترددت فدخلت بينه وبين بشته، كان بشته يضوع بالبخور، وكانت روحه الأسيفة الناسكة تنثر شذاها في كل ماحولها. كان يتمتم كلمات بصوت لايكاد يسمع ، فاتر العينين لا يكاد يقوى على الوقوف.

تعرض لأزمة نفسية وصحية مرتين خلال خمس سنوات. وفي أيامه الأخيرة كان عاجزا حتى عن أداء الصلوات. وفي المرة الأولى عام 1983، استمر المرض معه شهرا كاملاً. كان سليم البدن معافى ولكنه كان قد نسي كل شيء. وحينما كان أحبابه يتلطفون به ويلمحون إليه أن وقت الصلاة قد دنى كان يجيبهم بأنه ليس مطالباً بها وأن الله قد أعفاه من أدائها.

أثناء دفنه كان الجبيلي وهو إمام مسجد في الشماس غرب بريدة واقفاً مع المشيعين، زلت قدمه فهوى في قبر محفور مجاور للشيخ، بعد ثلاثة أيام كانت تلك الحفرة مرقد الجبيلي.

"أنا أخطئ عدد أنفاسي، فلا طاقة لي باقتحام الأسواق" قالها الدويش مرة وأنا أقترح عليه أن يسلك الطريق الأخصر إلى مسجد الحميدي جنوب بريدة بعد أن ينصرف من حلقته في مسجد السكيت في حي الشماس. . يقول الرشودي" بقي عبدالله سنوات في غرفته بمسجدي لايعرف إلا الزيتون وخبز التميز، كأني أراه وهو يحمل الرغيف بين يديه" . وكان الدويش يقوم أربع ساعات من الليل ساجداً وقائماً، ويقضي معظم

نهاره في التدريس ، وفي اوقات فرغه كان يلجأ إلى استذكار حفظه من القرآن أو ينشغل بالذكر والتسبيح. كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يعيش حياة بسيطة للغاية متقشفاً متواضعاً. وإذا كان يوم الجمعة لبث في مصلاه بعد الفجر، وبعدما ترتفع الشمس قيد رمح يصلي ركعتين ثم يذهب إلى بيته ويأكل فطوره أو يعود بعدها بساعة إلى الجامع ويصلي لله ساعات ثلاثا أو أكثر حتى يدخل الإمام خطبة الجمعة.وكان مصدر رزقه من تدريسه في المدرسة الدينية، ومن أوقاف خصصت للمدرسة وللإخوان لعلمائهم ولطلبة العلم فيهم الذين يتفرغون للدراسة والتعليم. وكان له متجر عطور شرقية صغير في سوق المجلس ببريدة شاركه وناب عنه في الإشراف عليه عبدالله البراهيم السعودي، وهو من طلابه وقد رحل هو الآخر في حادث سيارة عام 2003 .

فهد العبيد وهابي متصوف

صيفَ 1406 هـ/ 1985 كان إخوان بريدة فئتين كبيرتين، فهد بن عبيد آل عبد المحسن بمريديه، وعبدالله الدويش وطلبته، يجسر الهوة بين هاتين الضفتين محمد الفهد الرشودي وعبدالله القرعاوي، وأسماء أخرى من النوَّاب (المحتسبين المتطوعين) والتجار لهم وجاهة ونفوذ واحترام يأتي في مقدمتهم صالح البجادي والجطيلي وفهد العشاب[18]، وكانت المدرسة الدينية تحتضن أبناء الجميع.

---

(18) وقد فارق هؤلاء دنيانا منذ سنوات.

في ضفة الدويش يأتي شيخه محمد العليط وصالح الرشيد الفرج الإمام الأسبق للجامع الكبير، ونجباء من الطلبة لهم حلق صغيرة مثل سليمان السويد وعبدالله البراهيم السعوي وصالح العمر وبيوتات من أهل الخبيبية. معظم أهل الخبوب والمريدسية وخب الثنيان، وخَزَّانُ الأخوان من العوائل الكبيرة مثل السَعَوي والعُمر وأخوان الفاخرية هم في الأغلب أكثر التصاقاً بفهد، يليهم عوائل أصغر ذات حظوة مثل الدرع والحسني. وقد تكفلت عالتا الحُسني والدَّرْع لسنوات بعشاء يقدم في مجلس وعظ فهد ليلتي الاثنين والخميس، لايحضره إلا خاصة مريديه، ولأبناء هاتين العائلتين منزلة لايدانيها شيء عند فهد، بلغ من تدليله لأطفالهم أنه كان يدخر حلوى (الصعو) والملبَّس الفاخر لهم عند زيارتهم له. كان يدفنها تحت أكوام الورق والظروف على يسار مقعده في ركن مجلسه الضيق بمنزله الطيني الواقع جنوب بريدة شمال مسجد ابن خضير.

كان فهد بن عبيد أبيض البشرة الضاربة إلى الحمرة، ضخم الجسم، محدودب الظهر قليلاً، تملأ وجهه لحية بيضاء قد انفلقت فرقتين وانسابتا خصلتين مما يلي ترقوته على ناحيتي صدره، له محيا أخاذ يزهر بحمرة وخطت وجنتيه وعينين خضراوين نافذتين كعيني صقر، وحواجب عظيمة. ربما كان في يفاعته غاية في الوسامة[19]. ذكر لي فهد عام 1408هـ/

---

(19) من المهم أن يحصل القاريء على صورة للأشخاص الذين يقتحم تفاصيل حياتهم ويقوده الكاتب إلى خفاياها. ونحن لانملك لفهد العبيد صورة فوتغرافية. من المهم أن نعلم أن فهد العبيد كان يتمتع بوسامة وبهاء جسماني يندر وجوده في علماء الدين من منطقة نجد. ومثل هؤلاء يدركون جيدا ماذا يعني أن يتحدثوا عن الجمال وعن الحور العين. كان فهد حصيفا بضرب المثل بصبايا اشتهرن بالجمال لينهض بهمم المستمعين. وهو لذكائه كان يختار عائلتين من بريدة يشكل ذكرهما معا نوعا من التسوية والترضية لطبقتين اجتماعيتين من مريديه من القبليين والعوائل الأخرى من حاضرة بريدة. وبريدة التي نتحدث عنها كلها عن بكرة أبيها حاضرة. خلافا للتحول الكبير الذي عرفته منذ الأربعينيات من القرن الماضي، والموجة الثانية من الهجرة إليها المنهجة التي رعتها الحكومة منذ منتصف تسعينيات القرن الماضي.

1987 في بيته أن الشيخ صالح الخريصي أكبر منه بخمس سنوات، وقال: كانت حجتي الأولى وأنا في السابعة عشرة وجيش الأخوان يومها في مكة. مرة كنت عنده فأمر خادمه محمد الجردان بأن يحضر له كيساً أخرج منه نعلين (زبيريتين)[20] فُصّلتا لقدمين ضخمتين وقال: إنهما كانتا آخر نعلين لبسهما. كان يمشي محتفياً فكوَّنت سنوات من الاحتفاء في أسفل قدميه طبقة متصلبة من الجلد كانت سمتاً واحداً ممسوح الأخمصين كالخف. كان بإمكانه أن يقف حافياً ساعة كاملة فوق طريق معبد أو على الرمضاء في هاجرة تجاوزت حرارتها خمسين درجة. في حالات نادرة رأيته يخلط بياض لحيته بصبغ خفيف كستنائي اللون[21].

مرة أظهر لي (الاخ) كما كان أحبابه يصفونه، في تلك الزيارة نظارة قال إنها عنده منذ ثلاثين عاماً "ولكنني لا أرى اليوم بها شيئا". إذا صافحت فهداً ضاعت يدك في كفه، وإذا دنوت منه أكثر في أيام القيض وثوبه الخام ينضح بعرقه لم تكد تشم منه إلا شذى البخور ونفح العود الهندي الفاخر. كان صاحب دعابة أحياناً يطلقها في لحظات غضبه. أكثر الأشياء التي تستفزه أن ينهمك في قراءته على جلسائه من أوراق أمضى

---

(20) تسمى النجدية أيضا، تصنع من الجلد، ونسبتها إلى الزبير جنوب العراق لسبب لم يتضح لي حيث تتنازعها النسبتان. انظر:

بندر الحمدان، النعال الزبيرية حذاء بسبع أرواح. جريدة الرياض. 24 مارس 2006.
http://www.alriyadh.com/2006/03/24/article140892.html

(21) احتمال الأذى وتجشم المزعجات في الحر والقر لايقوم به إلا ذوو العزيمة الكبيرة، ومن لديهم منزع قسوة نحو الذات وأطرها، ولهذا كانت تلك الصفات الجسمانية لفهد العبيد الناتجة عن عزيمة نفسية تتساوق مع سيطرته الهائلة على مشاعره وتحكمه بعقالها، مثل موقفه تجاه من يفقدهم، و تجليات تلك الملكة وتأثيرها الهائل في كل من حوله. تشير الوقائع التي سردتها إلى نزوع صوفي عند فهد كان يميزه عن كل من عرفتهم نجد من الوهابيين المؤثرين ذوي الحظوة الدينية والمكانة عند الملوك والأسرة المالكة، ذلك النزوع المنبعث من رغبة واعية بأطر الجسد وإخضاعه لسلطة النفس وتحكم الباطن. وليس غريبا مايقال من أنه كان متمنعا فترة من الدهر على الزواج ومفضلاً أن يبقى خفيف الحاذ في شبابه. وقد أمضى فهد السنوات العشرين الأخيرة من عمره بعد وفاة زوجته ورفيقة عمره وأم أولاده عازبا. وهو لم يعرف التعدد طوال حياته حسب ماأعرف.

ساعات وهو يكتبها ويكون من بينهم من لايصغي أو يحدق في الأشياء حوله. دنا منه مرة واحد من المقربين منه وهو عبدالعزيز السيف بعد انتهاء جلسة الضحى وذكر له حاجته إلى رقية "قران" لعنز[22] عنده تعسرت ولادتها، فقال له فهد مازحاً "عجيب أمرك ياعبدالعزيز،أمس امرتك[23] واليوم عنزك".

كان يكتب مواعظه بخط يده بأقلام خاصة وبحبر أزرق يشكلها باللون الأحمر، ولكن يعسر على غيره قراءتها. مرة أخرج لي ورقة وقال لي اقرأ، كانت قصيدة مدح وإطراء فيه أرسلها من الرياض الشيخ علي الحواس وهو كان يرى نفسه ابناً لفهد حيث رعاه الشيخ منذ صغره. وبعدما انتهيت أخذها ومزقها، ولم يعلق بشيء. بعد أيام تكررت القصة مع شخص آخر، طلب منه أن يقرأ القصيدة عينها ثم أخذها ومزقها.

كان فهد العبيد بارعاً في استلاب قلوب من يرى فيهم الذكاء والنجابة. أسلحته الفتاكة هي الغموض والكرم اللامحدود والتدليل، والمخطوطات والكتب التي يندر وجودها. لاتمنعه منزلته وقدره الكبير من أن يقوم بتقشير البطيخة لك وأنت في عمر أحفاده. كانت تلك حبائلَه التي لاتخطيء فريستها، بعد أيام قلائل من معرفتك به ومحبته لك ستجد أنك غارق في بحر نعمته، وترى في كل من حوله أثر رضاه عنك، وحينها عليك أن تتهيأ للمطلوب منك: مريداً متبتلاً في محرابه. وإذا أشاح بوجهه عنك

---

(22) ماعز.
(23) أي امرأتك.

عبس في عينيك عشرات من الأتباع الحانقين، وبعد انتهاء مجلس الضحى ترى قاطرة من مريديه ينتظر كل واحد منهم دوره لينفث في أذن فهد تقريره الإخباري عن كل ماسمع ورأى في الأربع وعشرين ساعة الماضية: عن حادث سيارة عند المستشفى المركزي، أو شجار بين اثنين في الوسعة، وعن امرأة كسعها[24] سفيه على مؤخرتها في قبة رشيد، أو خباز شوهد وهو يعجن الطحين بقدميه، أو شتيمة قيلت في شخصه، فلم يكن غريباً أن يلِمَّ بموجز الأربع وعشرين ساعة الماضية قبل أذان الظهر.

قال لي مرة: طلبت العلم على الشيخ العبادي وحفظت عليه كتابي فضل الإسلام، وأصول الإيمان للشيخ محمد بن عبدالوهاب".لكنه كان يذكر شيخه عبدالله المحمد السليم أكثر من شيخه عمر وهو شقيق عبدالله السليم وأصغر منه. كان فهد يحبه ويفضله على أخيه في الزهد بالدنيا. ويذكر أن بشت (عباءة) عبدالله كان خلقاً لايساوي شيئاً من الدنيا.

ولفهد العبيد كلمات تناقلها الناس من بعده حتى اليوم، ولكنهم كثيراً ما يخطئون في نسبة أشياء إليه هي في الحقيقة لأخيه إبراهيم، من كلماته الشهيرة بين الإخوان ذكره كثيراً للحية سليمان اليعيش في سياق التفضيل والنفاسة، ومنها عبارات في غاية الطرافة، أطلقها وتناقلها الناس خارج حدود المنطقة الوسطى، مثل ضربه المثل لجمال بنات آدم بحسناوات المشيقح وبنات الربدي حين يأتي الحديث عن حور الجنة وجمالهن الخلاب. عام 1406هـ/1985 سمعته يقول "لو أن الله في عُلاه

---

(24) الكسع: أن تَضْرِبَ بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء.

سأل الحمار اللي ينهق ويصوّن: ياحمار، هل الأرض تدور حول الشمس؟ لقال الحمار: وعزتك وجلالك لقد كذبوا". وهذه العبارة شُهِرت عنه وتكررت منه مراراً، وقد سمعتها على شريط كاسيت عند صديق لي في الرياض عام 1411هـ، وصواريخ صدام تهبط على الرياض.

من إخوان بريدة أفراد مستقلون ولكنهم بقوا موطناً للمشورة والتماس الحكمة عند الشدائد،وظهور الشقاق، مثل محمد العبدالعزيز السليم. آخرون مثل عبدالكريم الحميد يزيد معجبوهم وينقصون حسب المواسم، لم يكن لعبدالكريم عام 1406 هـ/1985 إلا اثنان من المحبين في أجواء من النبذ والهجران، فمنذ أن بدأ الخلاف بينه وبين شيخه فهد العبيد عام 1401 هـ/1980 حول كروية الأرض ونزول المطر من السحاب، مروراً بمذكرته العلوم العصرية والآلات السحرية عام 1404هـ/1983 وأصحابه في تناقص. ومنذ العام 1411 هـ /1991 بدا أن سحر شخصيته وطريقة عيشه تخلب ألباب الشباب، حتى بلغت ذروتها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر[25].

من هؤلاء محمد العبدالله أبا الخيل الذي تقدم ذكره في هذه الشهادة المعروف بـ(ولد أبوركعة). وقد كتب كراريس بخط يده، كانت ردوداً على ابن سعدي في حكم استخدام مكبر الصوت للصلاة والأذان، ورد على الألباني في دوران الأرض حول الشمس وكتب مذكرة انتقد فيها سيد قطب في مواضع عديدة من ظلال القرآن، وكتب عن الكنديشنات"المكيفات"

(25) انظر الحاشية رقم 4.

في الثقافة الدينية لدى عامة النجديين. فإنه فضلا عن كونهما صحابيين من السابقين، إلا أن جاذبيتهما نبعت من كونهما كانا مثالين ملهمين للجمع بين التقوى ورغد العيش والثراء. خلافاً لغيرهما من كبار الصحابة ممن لم يكن لهم حظ من الدنيا.

إن استعراضاً مختصراً لمعظم التراجم لعلماء نجد المتأخرين بعد القرن الثامن عشر يوضح انشغال كثير منهم بالتجارة، ولم يكن من غير المألوف أن يكون كثير من تجار العقار بعد الطفرة في السبعينيات من القرن العشرين هم من فئة العلماء أو الشيوخ الذين جمعوا بين الإمامة والخطابة والإفتاء والقضاء أحياناً، وبين الثراء الفاحش.

لقد اعتبر ذلك دائماً إحدى علامات رضا الله عن عبده، مشروطاً بقيامه بواجب تلك النعمة كما في القرآن "وأحسن كما أحسن الله إليك". جاء كل ذلك في سياق من البساطة التي نشأوا عليها والتحفظ من إظهار أمارات الغنى والاعتدال في المسكن.

لقد كان بعض من اشتهروا بالتقوى والعبادة والحسبة والعلم بالدين هم ممن عرفوا بالثراء كما كان الحال مع الشيخ عبدالعزيز بن مرشد والشيخ أبو حبيب الشثري والشيخ حمود بن عبدالله التويجري. وكان الشيخ فهد العبيد كما سيأتي واحداً من أشهر الشيوخ المعروفين بالزهد والتقوى ، ولقد أمضى معظم سنوات حياته لايركب السيارة ولم يسمح بإدخال الكهرباء إلى بيته، ولكنه كان أحد الأثرياء ومن تجار العقار،

والقواطي" المشروبات الغازية. كان يكتبها له محمد السليم ثم تنسخ ويجري توزيعها[26].

هذا التصنيف محاولة لتوضيح التمايزات التي كانت تعج بها جماعة مغلقة على ذاتها، وهي فروق مع أنها لاتكاد ترى بالعين المجردة ولكنها لعبت دوراً كبيراً في انقسامها على نفسها، وإلا فإن الأفكار الرئيسة التي تنتظم عقدهم وتلم شملهم وتجعل منهم لوناً مختلفاً هي موضع إجماع، وكثير من الأخوان كانوا يتتلمذون على الدويش والعليط والرشودي ولهم حظوة عند فهد العبيد في الآن نفسه. ولكن العكس ليس صحيحاً دائماً، فإنه باستثناء وجهاء الجماعة الكبار فلا أعرف أن أحداً من عامة الإخوان أو من شبابهم كان من المقربين إلى فهد ويحظى بمكانة خاصة عند الشيخين الدويش والعليط.

يغلب على الفئة التي يتزعمها العبيد ولاء عميق له، يتعاملون معه كما ينهج أتباع شيوخ الطرق، أحياناً يروق لي وصفها بأنها طرقية حنبلية بـ"تجميع نجدي وهابي"، والناس عند هذه الفئة يجري تصنيفهم على حسب قربهم وبعدهم من الشيخ ورضاه عنهم، فهناك خاصة، وخواص، وجليس وهناك محب، ومبغض ويأتي في أدنى المراتب الضد.وتلك منزلة منبوذ صاحبها.عام 1409 هـ/1988 استطاع صديق قديم بعد عصف ذهني قمنا به سوية أن يحصر طبقات الناس عند فهد ومريديه فبلغ بها عشر طبقات. كانت فكاهة ولكنها حقيقة.كان قدري أن أمر ببعض من هذه

---

(26) تقدم ذكره.

الطبقات، فمرة كنت من الخواص وأخرى من الخاصة، وفي لحظات كلمح بالبصر نعمتُ بامتيازات خاصة الخاصة، ثم هويت إلى الأسفل حتى كنت لفترة عدواً من الأضداد الذين يدعى عليهم في مجلسه ويؤمن الحضور على هلاكهم.

سبب دعاء فهد على بعض من أحبابه السابقين عتب وخيبة أمل أخفق في دفنها بين جوانحه فعبرت عن نفسها بتلك الطريقة.

وفي أوائل الثمانينيات تعرض فهد لانتقاد من بعض الإخوان، بعد أن شاع أنه يقيم صلاة الجماعة في بيته مع بعض أتباعه، وكانت تلك من فهد جرأة كبيرة وأمارة على احتفاظه برؤية خاصة حول المقصد الشرعي من الصلاة والغاية السامية منها، فهو لم يكن راضياً عن واقع المساجد ولا عن التحول الكبير بعد تمدد الإسلام الصحوي، الذي كان إعلاناً بانقراض التدين الحنبلي الوهابي البسيط وتصور دور المساجد وطريقة بنائها وتصميمها. وقد تراجع فهد بعد فترة من الضغوط موزعاً صلوات الفريضة بين مسجد حميدان ومسجد ابن خضير، حيث تقع بيته في منتصف المسافة بين المسجدين.

وتديُّنُ هذه الفئة التي تتبع فهداً وتحذو تعاليمه يجد مصادره في سلوكيات بعض من مطاوعة نجد المتأخرين، ولكن جذوره منثورة في تراث ابن الجوزي وابن رجب وابن القيم مثل كتاب طريق الهجرتين، وبعض من نصوص ابن تيمية في السلوك، وفي وصايا لعبدالقادر الجيلاني الحنبلي

وغيره، تفصح عن هذه الميول غبطة بعبارات متصوفة أوائل كانوا يعتمدون الذوق ويقدمونه على العلم، ويفصلون بين البصيرة والعلم، فهذه الفئة تؤمن بأن صاحب البصيرة قد يهتدي إلى حل معضلات المسائل العلمية ومشكلاتها الكبرى وتستغلق عقدتها على العالم المتبحر، هي شذرات من هنا وهناك أسعدت بعض الكسالى ليعتذروا بها عن التفقه بالشريعة وفق الأصول المتبعة في الطلب، مع تهوين لايجاهرون به للتفقه على الشيوخ ولكنهم يكشفون عنه في جلسات الصفاء وبين المريدين والمستجدين من الأتباع. لايمكن فصل رؤيته عن صلاة الجماعة كما سبق عن قناعته الأخرى في كيفية طلب العلم وتحصيل فقه الشريعة، من دون الحاجة إلى شيوخ وفقهاء يلازمهم الطالب مستدلاً بآية البقرة :(واتقوا الله ويعلمكم الله).وهي رؤية لم يكن يكشفها لأحد من الشباب الذين يحبونه ويألفون مجلسه إلا بعد أن يكونوا قد قطعوا أشواطاً تهيؤهم ليكشف لهم رأيه.

ومع أن الإخوان بجملتهم يقارب تدين عامتهم وخاصتهم تدين البربهاري الحنبلي، جفافاً لا رواء فيه، إلا أن فهد العبيد كان أقرب مثال والأكثر تطابقاً مع تلك الشخصية المثيرة. الدويش نفسه كان لديه نوع من الاعتقاد بأن صاحب العلم القليل الناسك قد يهتدي إلى فك مغاليق صعاب المسائل التي تستعصي على عالم أكثر تبحراً. في شتاء 1407 هـ/1986 سأله سليمان العلوان وكنت حاضراً في مسجد العناز عن عبارة ذكرها أبو بكر الجزائري في تفسير القرآن أن "الله واسع العلم والذات" كان الإشكال في "الذات"، فقال الشيخ: لا أدري اسأل صاحب بصيرة، وبقيت إجابة مبهمة. وبعد أيام سأله الدويش هل سأل عنها كما أوصاه فقال سليمان: لا.

لم أعرف من تقصد. قال اسأل عنها عبدالله البراهيم القرعاوي. وهذه النزعة تسربت من آراء منثورة لابن تيمية وابن القيم، في معرض الحديث عن السلوك وأحوال القلوب.لكنها كانت قشرة لم تبلغ الأعماق، ونبتة في غير أرضها.

بعض من محبي وطلبة الدويش والعليط لهم علاقات ود وثيقة بفهد العبيد، وآخرون لايزورونه إلا في المناسبات الكبرى مثل عيد الفطر والأضحى حيث يقضي ضحى يومي العيد في حوش المسيطير بـ(رواق) حين كان في صحته ونشاطه قبل أن يثقله المرض، وآخرون كانوا يرونه فقط في مجلس وعظه في مسجد ابن زعاق قبل توقفه أواخر 1406هـ/1986 ولا يزورونه في بيته، وآخرون لاصلة تربطهم به. أما من قادته خطاه الأولى إلى مرابع الدويش والعليط فقد كان خليقاً به إذا اعتنى بنفسه وأسعده الحظ واجتهد أن يكون عالماً. لأن الأجواء كانت تساعده على ذلك، وطالب العلم كان له مكانة لايعدلها شيء. كان طالب العلم ضمن هذه الفئة مدللاً، والحنان والعطف يتناوحانه. ومع كل ذلك كان فهد يتمتع بسطوة على الجميع.

كانت كبرياؤه تحول بينه وبين الاعتذار عن عبارات أطلقها تسببت بقطيعة معه وهجران بعض الإخوان له سنوات طويلة. ولم يكن مستعداً بأن يقوم بما هو أكثر من امتداحهم ليمحو مامضى، ولهذا كانت روحه تثقل هيكله وتضعضع بنيانه.

كانت نفسه العظيمة تمور كالبركان وتَحْطِمُه من الأعماق. فبعد أن دنا منه ابنه الأكبر عبدالرحمن وهو في مجلس الضحى صيف 1409هـ/1989 يقرأ على زواره بعضاً مما كتبه، أسر إليه عبدالرحمن في أذنه "إن أخي عبدالمحسن توفي في حادث مروري على طريق سدير" فلم يقطع فهد قراءته، بل أكملها وبعد أن انتهى أعلن بكل طمأنينة للحاضرين بأن " ولدي عبدالمحسن توفي اليوم ". كان قد فقد في كهولته أعز صديق عرفه من آل العجاجي، فاحتفظ بذكراه ولهج بفضائله، وحفظ له عهده عقوداً، كانت خسارته لصديقه جرحاً انبجس عنه نبع من الحب لاينضب، وشوق عارم حزين.

وقد كان محظوظاً أن يعيش بهذه الروح الكبيرة والمهجة العنيدة ثلاثة وتسعين عاماً.

توفي فهد يوم الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر 2001. فاضت روحه في اللحظات التي تجمدنا فيها لنشهد على التليفزيون سقوط برجي مركز التجارة العالمي. بموته تشرذم أتباعه وتهاوى بعضهم وفقد آخرون البوصلة، وافق يوم موته لحظة تدشين عالم جديد. فقد كان معلماً من معالم بريدة، وأسطورة لامثيل لها[27].

---

(27) قد يكون فهد في سنواته التي فاقت السبعين عاماً واعظاً ومذكراً قد قال وكتب مايغطي آلاف الأوراق التي أوصى بأن تحرق بعد موته كما أفصح لي عن ذلك في زيارتي الأخيرة له صيف 1409هـ، 1988، ولكن مايميز فهدا هو بصمته التي تميزه عن غيره، تلك النكهة المتفردة، وقد عبر عن ذلك بعض مما أوردته. فإن كل مانشر هنا هو من الأمور المعلنة والمعروفة عن فهد، قالها في مسجد أو في مجلس وعظه، صحيح أن بعضاً منها كان محصوراً في دائرة الجماعة الصغيرة ولكنه لم يكن سرا، وماعداها فهي مما شاهدته أو تلقيته منه مباشرة، يبقى أن الكاتب يصاب بحيرة حين يقوم بعملية الانتقاء والاختيار من ركام القصص والحكايا والمواقف التي تختزنها ذاكرته، وتشكل كل واحدة منها لبنة تضفر مع الأخريات صورة مقاربة لمن نكتب عنهم، وهذا دائماً يمثل امتحانا كبيرا لأي كاتب يتناول السير الشخصية.

خاتمة

تكشف الوقائع والقصص التي رويتها عن تصوف إخوان بريدة، أنه تصوف في السلوك والتطبيق العملي للحياة في المأكل والمشرب والعبادة ومداومة الذكر والصلاة والتقلل من الدنيا والرضى بالقليل. وهو يشابه إلى حد كبير تصوف أهل الحديث والأثر، ولكن مع وفاء كبير لتعاليم الإمام ابن عبدالوهاب، مع بعض الشطحات التي احتُملت وجرى التغاضي عنها في توجهات فهد العبيد ومريديه.

لقد عشت بين إخوان بريدة قريبا من خمس سنوات خالصة وأنا منهم، وكانوا دائماً كالرقباء والأوصياء على سلامة الطريق وصحة المنهج والأكثر احتساباً من بين الوهابيين، مع شعور عميق وقناعة راسخة أنهم هم صفوة السلف وخيار هذه الأمة. وليس غريباً أن يكون لهم –رغم قلة نفوذهم العلمي والفقهي وغلبة العوام فيهم– حظوة وسطوة وهيبة عند علماء الوهابية الكبار وهو مالمسته في أكثر من زيارة ولقاء جمعنا مع الشيخ عبدالعزيز بن باز وغيره من العلماء. تضافر ذلك مع تقدير كبير للإخوان من قبل الملك والأمراء الكبار في كل مكان يفدون إليه في أصقاع البلاد. ولكن هذا الاحترام الكبير والتقدير تعرض لانكسار عام 1407هـ - 1408هـ/ 1988، بعدما أغلقت مدرستهم الدينية، ثم تضعضعت منزلتهم إثر التغير الكبير الفكري والديني بعد تسرب الفكر الجهادي والتكفيري

إلى أجيالهم الشابة، وتلوث بعض كبار السن فيهم بتلك الأفكار. كما أن رحيل الكبار منهم والمؤثرين فيهم كان عاملاً مساعداً في ذلك التحول ، وذلك يعود لأسباب أرجو أن يكون شرحها في دراسة أكثر توسعاً من هذه الشهادة التي هي إضاءة ورواية عن قوم كانوا فبانوا.

التّصوف في عسير والمِخْلافِ السّليماني

إبراهيم طالع الألمعي(*)

كل متصوف يضع له تعريفا متفقا مع الاتجاه الذي يتجهه هو والدرجة التي وصل إليها في هذا الاتجاه، فمن تعاريفهم: الصوفي من صفا قلبه - من لايملك شيئا ولا يملكه شيء - طلب الحقائق - ويعرفه الغزالي بقوله: أخصّ خصائصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات [1].

(*) كاتب وباحث ولغوي سعودي.

(1) انظر في هذا تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون - عمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت 1972 م.

ويعيد عمر فروخ مصادر التصوف الإسلامي إلى ما يلي :

- العنصر الإسلامي الذي بدأ بالزهد ، منقلبا مع مطلع العصر العباسي إلى مظهر التصوف والإيغال فيه حتى إن (رابعة العدوية) قالت : إن حُبَّها الله لمْ يدَعْ في قلبها مكانا لكره إبليس .
- العنصر اليوناني الذي تسرب منه المذهب (الأيوني) بما يراه من أن الوجود كله في الحقيقة هو الله ، و(الفيثاغوري) الذي يرى بأن وراء العالم المادي عالما روحانيا تشتاق إليه النفوس لا يصل إليه إلا من ألزم نفسه بالبعد عن العُجْب والتجبّر والرياء والشهوات ، ثم (الأرسطية) القائلة بأن الله هو الغاية التي ينجذب إليها العالم في تطوره نحو الكمال .
- العنصر الهندي القائم على التناسخ الروحي المتكرر حتى درجة الوصول إلى (النرفانا) المتخلص من الوجود المؤلم .
- العنصر الصيني ، حيث إن للفيلسوف الصيني (لي آره أو لاوتسه) كتابا سماه تآو(الطريق) ، إذ مضمونه عندهم أقدم من السموات والأرض ، وهو الحقيقة القصوى وكل شيء منه وفيه وإليه يعود ولا يمكن وصفه ولا يُدرَك بالبصر ولا بالسمع ولا بالعقل .
- العنصر المسيحي ، ويظهر هذا في الحب الإلهي لدى الصوفية وعلاقته بالحب في المسيحية، وفي التبتل وترك السعي في الدنيا، وفي الاتجاه الحلولي لدى الصوفية مقارنة بالتثليث لدى المسيحية[2].

---

(2) المرجع السابق : ص 470 وما بعدها.

أما ما أراه غايةً للتصوف لدى البشر – سواء منه الإسلامي أو شبهه من الديانتين السماويتين أو الوثنيات قديمها وحديثها – فليس سوى بحث إنسانيّ عن الأمن ضدّ العدمية، وبحث عن القوة أمام الضعف ، ولجوء إلى الغوص في الشعوريّ المجهول أمام العجز العقلي لإدراك جوهر الفاعل غير المحسوس في الحياة الظاهرة المحيطة، فهو نوع من الأحلام البشرية الشفّافة الشاعرة والتائقة للوصول إلى الفاعل القادر والاندماج فيه إيمانا بقدرة وراءَ الطبيعة ، وعجزٍ عن إدراكها ، مع قدرات خاصة يملكها من يدَّعي الوصول وتهيُّؤٍ للظروف البيئية والاجتماعية البشرية المحيطة به .

التصوف وطقوسيّة البشر

ومهما وجدنا لدى أهل التصوف من الطرق والأشكال ، ومن صنوف التلقي والاتّصال ، فأنا أعيدُ كل هذا إلى الطبيعة البشرية ذات الحاجات إلى الطقوسيات سواء في جوانب الحياة الحسِّيّة ، أو في النواحي الروحية والشعورية . والعلاقة بالغيبيات أكثر ثراءً في المجال الطقوسي، ودليلي على هذا أن الحياة الصوفية لا تنمو نوعيا وسلوكيا بشكل أوسع وأعمق سوى في مراكز الحضارة والتجمع السكاني، كما أن للتصوف جوانبَ تتعلق بالبيئة المحيطة جغرافيا وتاريخيا وبشريا، فهو إذنْ : عمليّةٌ طقوسية بشرية تفترق عن بقية الطقوس العادية بأساليبها التي تستخدمها لإقناع المريدين أو المؤمنين، ووجَدَتْ في العلم المادّيّ عجزا عن التعبير بما يشبع نهم الإنسان في البحث عن مصيره بعد الموت وإدارة شؤون حياته

المجهولة أيضا، كما وجدتْ في الفلسفات القديمة والحديثة وعلوم الكلام من قدريّة وجبريّة واعتزال وغيرها عجزا في إقناعها بتفسير السيرورة البشرية وعدميّتها من خلودها مادّياً وروحيا .

والطبيعة البشرية بفطرتها طبيعة طقوسية لا تعيش دون ذلك، فالحروب طقوس، وأنماط التديّن والاحتفالات والسير في الطرقات والانزواء في الزّوايا أو المغارات أو الغابات أو الصوامع ليست إلا طقوسا إنسانية عملَ البشرُ على ترقيتها وتنويعها تراكميا عبر الأزمنة والمعتقدات بأنواعها، ثم تأتي قناعات كلٍّ بما لديه قاطعةً لا يقبل فيها حتى التأويل، لأن إيمانه لم يأت منفردا ممنطقا بل تراكمياً عبر ملايين السنين .

السياسة والتصوف

يجد السياسيون في مجالات العقائد والآيديولوجيات مرتعا خصبا مبررا للحكم والقيادة، فلا حكم للحاكم بلا سلاح نفسيّ آيديولوجي يُخضعُ بواسطته عامة الناس. ونجاح الحاكم أو القائد يكون بحسب ما يحمله للمحكومين من أدلجة أو قومية أو روحانية تبرر تميّزه عن غيره ممن يحكم، وتقنع عامة الشعب المقود، وتقود له هذه العامة. لهذا نجد التصوف يتأثر بالسياسة بُعدا – وهو الأغلب كما هو عند كبار الصوفية الذين اعتزلوا الحياة الطبيعية سلوكيا ولجأوا إلى التزهّد فيها – وقربا وهو الأقل كما نجد لدى بعض الساسة الذين اعتنقوا الفكر الصوفي لكنهم حَكَمُوا ، مثل (الأدارسة) في إقليم (تهامة) بجزيرة العرب ضمن

موضوعنا هنا، والذين وجدوا في هذا الاتجاه ما أقنع بهم العامة. ومن أمثلة علاقة السياسة بالتصوف ما يلي: (ورد في كتاب (في ربوع عسير) لمحمد عمر رفيع ما يلي: يقول أحد علماء الحفاظية[3]. المعاصرين من سكان قرية (رُجال).: ومن ذلك الشهر قبل دخول الدولة – يقصد السعودية – هدمنا القباب – يعني قبابا كانت على أضرحة بعض أسلافهم – وتولّيتُ ذلك بيديّ طاعةً واحتسابا..)[4]، وكالدولة السعودية التي وجدت في الفكر السلفيّ الوهابيّ ما طوّع لها عامة الناس باعتبارها تحمل دعوة إصلاحية وليست مجرّد طالبة ملك.

فالتغيير المذهبي صاحَبَ الحكم السعودي بسبب تمثيل الحكومة خلال بداياتها في المناطق بفئات يحملون مفهوما أحاديا للدين ولا يقبلون غيره، حتى بلغ صراعهم أشده أخيراً مع الملك عبد العزيز في معركة (السبلة) الشهيرة.

وبعد استشراء فكرهم ونجاحهم في استخدام الدين مبررا ضد النظام السياسي غطاء لهم، بدأت الأنظمة تحاول البحث عما أسمِيَ (الوسطية) دون أن تستطيع حتى الآن إعادة بقية المذاهب الإسلامية التي غُيبتْ عن ساحة البلد بفعل أولئك، وتعود صعوبة العودة إلى بقية المذاهب على اتساعها في واقعها إلى شدة وعظم ما بذلته الدولة لترسيخ الدعوة السلفية وفق مدرسة محمد بن عبدالوهاب، حتى صارتْ كل مخرجات

---

(3) سيأتي الحديث عن هذه العائلة لاحقاً.
(4) في ربوع عسير، محمد عمر رفيع، دار العهد الجديد بالقاهرة 1954م، ص 178.

التعليم في البلاد ناتجا لهذا، ولذا فإنه يلزمها للعودة إلى الوسطية المذهبية زمنٌ أكثر بكثير من زمن التأسيس في ما لو بدأتْ عمليا اليوم بتطبيق المنهجية الواسعة في كل مستويات المناهج العامة والتخصصية .

أما أوضح مثال حاليّ على استخدام الدين ميثولوجياً فهو ما نراه في الثورة الإسلامية الإيرانية ، حيث استخدم نظام الحكم فيها فكرة (حديث المهدي) ومسمَّى السّيّد والنسب الشريف لإقناع العامة بمهديٍّ من هذا النسب الشريف غائب منتظر ينوب عنه المتنفذون حتى زمن ظهوره.

بيئات التصوف والفلسفات

جزيرة العرب لم تكن – في عمومها – منبعا صالحا للتصوف ولا للفلسفات، فطبيعتها الجغرافية كلاسيكية بين الصحراء الممتدة التي لا تسمح بأجواء التجمع البشري وبالتالي الفكري والثقافي، وبين (جبال السروات) التي لا تصلح أيضا للتجمع السكاني المكتظ الذي ينتج مدارس الفكر والفلسفات، وإقليم (تهامة) الذي كان يُعتبرُ الإقليم الوحيد الصالح – نوعا ما – في جزيرة العرب لإفراز الثقافة بشكل حسّيّ يتناسبُ مع طقسها وطبيعتها وطبيعة تربتها، وبتعبير آخر : جزيرة العرب ثلاثٌ من التُّرَب : رمليّة صحراوية ترتبط طبائع إنسانها بها من حيث صعوبة الاندماج، وصخرية جبلية تتمثل في السروات والهضاب ويرتبط إنسانها بها كذلك من حيثُ صلابة التفكير والمشاعر، وسهل تهامة الطِّينيّ الذي تتبعُ نوعَ طينه طبائعُ أهله، فمثلما يسهل عليك جمع الطين المبلل بالماء يسهل

عليك فيها تكوين جماعة متواصلة متآثرة متثاقفة، بينما يصعب تجميع الرمل مهما بلَّلْتَه بالماء . وهكذا يكون أثر البيئة المكانية على ساكنيها. هذا إيجاز لطبيعة الجزيرة العربية وتبعية طبيعتها البشرية لهذا، فمعظمها في القسم الشرقي والشمالي صحراء مستوية تنتج فكرا مستوياً جاهزا قليل التعمق والتعرجات الفكرية، إذ تفكير الصحراء ممتدٌ امتدادا أفقيا أكثرَ من اتجاهاته الرأسية، غير أن سهل (تهامة) الممتد من (مكة) إلى (عدن) بين جبال (السراة) شرقا والبحر الأحمر غربا ذو خصوصية بيئية مختلفة على مستوى الجزيرة نوعا ما كما ذكرنا ، وتعدّ من أكثر مناطق جزيرة العرب التي عرفت حضورا قويا للتصوف، وذلك عائد – عدا ما ذكرناه من الصلاح البيئويّ – إلى عدم التشدد المذهبي فيها وإلى طبيعة السكان المسالمة ، وما يمتاز به هذا الإقليم من أمن وهدوء [5].

اليمن

اليمن الطبيعي والتاريخي هو النصف الجنوبي من جزيرة العرب، ويحده من الشمال بلاد غامد[6]، أما في لسان العرب لابن منظور فهو : ما كان جنوبي الكعبة[7]. وبالتالي فإن إقليم تهامة حتى جنوبي مكة يعتبر ضمن حدود اليمن الطبيعي تاريخيا، وتسمية اليمن السياسي حاليا ليس سوى مصطلح حديث.

---

(5) الإسلامية اليمنية، مجموعة باحثين، مركز المسبار للدراسات والبحوث بتصرف. ص 62.

(6) انظر في هذا : الرحلة اليمانية للشريف حسين بن علي لمؤلفه شرف عبد المحسن البركاتي ط1، دار الوراق، لندن 2007م ص119 وما بعدها.

(7) لسان العرب، ابن منظور، باب النون، فصل الياء، وانظر أيضا: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، منطقة عسير ج1، علي إبراهيم ناصر الحربي ، الناشر : نادي أبها الأدبي 1997م.

فعندما نطلق (اليمن) في موضوعنا هذا فنحن نقصد به اليمن الطبيعي التاريخي لا السياسي الحالي، ويظهر أن اليمن قبيل البعثة النبوية كان كتابيا، فبحسب حديث معاذ بن جبل أن النبي – ص – قال له حين بعثه إلى اليمن : (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعُوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله فإن هم أطاعوك إلخ الحديث)[8]. فللتنكير في كلمة (قوما ..) دلالة العموم ، وقوله : من أهل الكتاب أي : أنهم جميعا أهل كتاب لأن (مِنْ) هنا للتبعيض أي أنهم جميعا جزء من أهل الكتاب ، وهذا أمر من الأمور الكثيرة في التاريخ العربي والتي قد تستدعي إعادة كتابته من داخل الجزيرة بناء على فقه النصوص لا على نصِّيتها الظاهرية ، حيث كُتب جلُّه من خارجها وبشكل سياسي متحيز دون وعي ولا التّصاق بالمكان ولا ينصف الحقائق ولا تاريخ الجزيرة .

وسيكون تركيزي هنا على القسم الواقع في المملكة العربية السعودية من اليمن ، نظرا إلى أن معظم الباحثين في اليمن السياسي الحالي يركزون على ما يدخل الآن ضمن الجمهورية اليمنية، وأهم إقليمين يمنيين تاريخيين في القسم السعودي من الجزيرة حالياً هما : عسير ، المخلاف السليماني.

---

(8) التصوف في تهامة ،محمد بن أحمد العقيلي ، ط1، 1964م ، دار الأصفهاني وشركائه.

إقليم عسير

كان هذا الإقليم عبر تاريخه متأرجحاً في حدوده حسب امتداد من يحكمه، ولم يكن ثابت الحدود الجغرافية ، حتى دخل في الحكم السعودي بعد تعاقب الحكومات عليه. وأغلب تاريخه الإسلامي كان خاضعا لحكم (اليزيديِّيْن) وآخرهم (آل عائض)، وكان حكمهم في مد وجزر بين العثمانيين وإمارات أخرى محيطة . أما موقع الإقليم (المنطقة) الآن فهو وسط الجزء الجنوبي الغربي للمملكة العربية السعودية بين خطي عرض(17،20) و(20،50) وخطي طول (41،30) شرقا شاملا جزءا تهاميا وجبليا وصحراويا[9].

التصوف في عسير (السراة)

حاولتُ الحصول على ما يثبتُ أثرا واضحا للتصوف في السروات (القسم الجبلي من جزيرة العرب) . ولي صلة أخوية مع الباحثَين (د. محمد آل زلفة – د. عبد الله أبو داهش – الأديب المؤرخ : محمد حسن غريب الألمعي) ، وأفادوني بأنهم لا يعلمون حتى الآن في القسم السروي والصحراوي من إقليم (عسير) من مظاهر التصوف شيئا يستحق الذكر.. غير أنني وجدت لدى الأستاذ : محمد يحي محمد طالع من أهالي بلدة

---

(9) المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، منطقة عسير ج1،علي إبراهيم ناصر الحربي ، الناشر: نادي أبها الأدبي 1997.

(امْشَطّ)[10]. في ديار (عَلْكَم) وهي إحدى قبائل عسير السراة من سروات عسير، وجدتُ لديه كتابا مخطوطا باليد حصل عليه من بيت قديم مهجور كان لإمام وخطيب القرية، يحوي مجموعة من الأوراد[11]. قال كاتبه في مقدمته: (بسم الله الرحمن الرحيم – هذا الأساس المبارك الذي منّ به القطب الكامل غوث عصره وفريد دهره ومولانا سيدنا وشيخنا وأستادنا (بالدال) ومرشدنا الشريف الحسني السيد أحمد بن إدريس رضي الله عنه وهو هذا: يُبْتدا أولا بالغسل يغتسل كغسله من الجنابة ينوي فيه الطهارة من كل معصية ويقرا عند الدخول في الغسل هذا الدعاء (ويورد وردا كاملا للغسل ... ثم يدخل إلى الأوراد مبتدئا بالفاتحة والإخلاص وغيرهما ليصل إلى طريقة دعاء خاص بطلب التجليات الإلهية مثل: وأنْ تنعّمني يا ذا الجلال والإكرام في شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا يحجب عنها شيء .... وأفِضْ علَى جميع ذاتي لذة ذلك الشهود حتى أكون كلي لذةً ذاتية إلهية سارية في نفسي من نفسي لنفسي .... وحقّقني يا إلهي بإنسانيتي حتى أكون إنسان العين الكلّيّة الإلهية التي لا يحصرها شيء .....وأسمعني يا سميع يا بصير يا متكلم غاية لذيذ خطابك ومحادثتك ومكالمتك في كل حال من الأحوال بجميع كلياتي حتى لا تخلو ذرة من ذرات أجزاء ذاتي الإلهي لحظة ولا أقل من ذلك دائما سرمدا أبد الآبدين ...)

(10) امْ هنا هي: امْ التعريف في العربية اليمنية القديمة. ويطلق عليها النحاة: طمطمانية حمْيَر لأن النحاة أدركوا العربية الحديثة فقط بواسطة القرآن الكريم والسنة، وهم – النحاة – إما أعجمي أو عربي هجين نشأ خارج الجزيرة، أما العربية اليمنية فلم تزل هي لغتنا الشفاهية الحية ولم تدرس، ولي في هذا بحث منشور تحت عنوان: صناعة الموالي ولغة العرب.

(11) صاحب المخطوط هو عبد الخالق بن سعيد آل محي، الذي كان أيضا معلما للصبيان في قريته، توفي عام 1385هـ /1964، ويظهر أن المخطوط متوارث منذ أيام أحمد بن إدريس، إذ يتضح أنه من إملائه كما ورد فيه.

التي تقابل منطقة خصب (التابعة حاليا لمحافظة مسندم)[64]. اكتشفت بريطانيا التي كانت تفرض سياسة حظر السلاح على ساحل مكران، أن الأفغاني قد نجح في إرسال شحنة من الأسلحة إلى افغانستان، فبدأت تلاحقه. ولكن حاكم إقليم مكران بركات خان[65]، والذي يعتبر أحد مريدي الأفغاني[66] وفر الحماية السياسية للأفغاني. طلبت بريطانيا من بركات خان إبعاد الأفغاني ولكن قوبل الطلب بالرفض. ونستدل على هذه الحادثة بما أورده بن دغار في كتابه "رحلة الكابتن فلوير"[67]: في العام 1915م يلجأ الثائر الأفغاني خليفة عمر المشهور باسم مولانا[68] إلى الأمير بركات على ساحل مكران قادماً من دبي، بعد أن اكتشفت السلطات البريطانية كميات الأسلحة التي أرسلها لأفغانستان عن طريق تجار دبي، ويرفض بركات الطلب الذي قدمه الانجليز لوزيره بإبعاده. بعدها عزمت بريطانيا على التخلص من السيد الأفغاني.

أما قصة مقتل الأفغاني، فيقول المريد: "في ليلة التاسع والعشرين من رمضان، أمر الأفغاني حارسه الشخصي أن يتركه وحيداً اليوم، ولم يحمل معه أية سلاح[69]، وراح يتفقد خيوله وجماله، ثم بدأ يصلي، حتى

(64) مصدر سابق : تسجيل صوتي – مقابلة الشيخ عبدالرحيم – 2005.

(65) في مكران، ويعتبر من أكبر المتورطين في تجارة السلاح على ساحل مكران المير بركات خان، حاكم بيابان.

(66) المريد، مصدر سابق.

(67) بن دغار، رحلة الكابتن فلوير 1876 عبر الساحل في نهاية عهد الحكم العماني مع ملحق الأحداث التاريخية، الفرات للنشر والتوزيع، سبتمبر 2008، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ص 250.

(68) يطلق على السيد محمد عمر الأفغاني في بلوشستان "بمولانا"، المريد، مصدر سابق.

(69) يذكر المريد، بأن الافغاني عندما كان في دبي، دائما يمشي وهو مبرز بندقيته.

أعجب الشيخ سعيد بن مكتوم بالنموذج الصوفي في إحياء الموالد النبوية، فأرسل اثنين من أهالي دبي "خليفة الجلاف" وخلفان بن عيد البسطي إلى منقطة (جلاه) في بر فارس لكي يتعلموا فن إحياء الموالد النبوية في عام 1910م، ولكن المشروع لم يكتمل إذ رجع الاثنان[59].

تأثير الأفغاني

ومن الإشارات التي تدل على شيوع صيت السيد محمد عمر الأفغاني، ومدرسته الصوفية في المنطقة، القصائد المنسوبة للفقيه محمد بن حمود الشحي[60]، إذ يقول في قصيدته مادحا فيها محمد عمر الأفغاني[61]:

انت الذي سميت محمد　　　عمر سلالة صفوة القهار

نهاية المؤسس

في سنة 1915م قام السيد الأفغاني بشراء مائة بندقية من مسقط[62]، ليرسلها إلى أفغانستان. وكان طريق تهريب السلاح يمر عن طريق مكران[63]. فرحل من دبي إلى مكران، مرورا بجزيرة السلامة

---

(59) مقابلة في 1 / 11 / 2010 مع بلال البدور.
(60) نسبة إلى قبيلة الشحوح القاطنة في إمارة رأس الخيمة، راجع : فالح حنظل، الشحوح وتاريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي، الطبعة الأولى، ص 311.
(61) أرجح أنه محمد عمر الأفغاني، على خلاف ماذكر الاستاذ فالح حنظل، بأنه جمال الدين الأفغاني، والدليل أن القصيدة تضمنت كثيرا من المصطلحات الصوفية مثل : الأقطاب والأبدال.
(62) المريد، مصدر سابق.
(63) مكران، إقليم بطول 1100 كم على ساحل خليج عمان، 700 كم في باكستان والباقي في إيران: http:// ar.wikipedia.org، تمت زيارة الموقع في يوم 5 / 6 / 2011.

وهذا واضح الإشارة إلى انتشار طريقة أحمد الإدريسي الصوفية (الأحمدية) في هذه المناطق السروية انتشارا بين المريدين لا انتشاراً حياً بزواياها وطقوسها . علما بأن السروات والتهائم لا تختلف في طقوسها وشعائرها الاجتماعية والدينية ، فساكنوها كانوا يحيون عيد عاشوراء والرجَبِيّة ومنتصف شعبان كما إخوتهم في التهائم، وكانوا هم وأمراؤهم يعتمدون على علماء تهامة اعتمادا كليا حتى عام 1370هـ/1950 -عام وفاة آخر أعلام العلم في رجال ألمع – يعتمدون عليهم في التعليم والفتيا ويحضرون المناسبات الدينية في بلدة (رُجال) برجال ألمع وخلال هذا الحضور يحدث أحيانا إلباس الخرقة في مشهد علمي عام .

تهامة والتصوف

(تهامة) منبعٌ للتصوّف الإسلامي كبيئةً . فهي مهد الرسالة المحمدية ، ويتبرك المسلمون البعيدون عن جزيرة العرب باسمها فيسمون أبناءهم (التهامي) ، وبيئتها العامة تتسمُ بخصب الأرض والتنوع في المعاش وفي الفنون ورقة الهواء ووفرة الأكسجين، كما أن أشكال التجمعات السكانية التي كانت تغلب عليها قابلة للطقوسية في أشكال الاحتفالات وأنواع الغناء وطرائق التعبد، إضافة إلى ما ذكرناه من الرقة الحسِّيّة التي يتمتع بها أهلها، ودرجة استجاباتهم الشعورية والإنفعالية، وهي كذلك منبع للتصوف حنينا من قبل المسلمين البعيدين عن جزيرة العرب ، حتى صار مفهوم (مكة - المدينة - الحجاز) لدى أولئك يشمل جزيرة العرب كلها، فهذا عمر بن الفارض[12].

يبدأ يائيته الصوفية الشهيرة حنينا إلى (كثبان طيّ) لأن الحجاز لدى المتصوفة خارج الجزيرة هي جزيرة العرب كافة ، فيقول :

سائقَ الأظعانِ يطويْ البيدَ طيْ   مُنعماً عرّجْ على كثبانِ طيْ
لمْ يرُقْ ليْ منــزلٌ بعــد النقـــا   لا ولا مستحسَنٌ منْ بعدِ مَيْ

وأين كثبان طيء وديار (النقا) من مكة والمدينة ؟ لكنه حنين البعيد إلى المكان باتساعه .

(12) عمر بن الفارض : ولد في القاهرة (576هـ - 1181م) ، بادئا حياته معتكفا في جبل المقطم شرق القاهرة، ثم رحل إلى الحجاز ليعيش فيها 15 سنة ويعود إلى القاهرة متوفى بها عام (632هـ - 1235م) .. تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، عمر فروخ ،دار العلم للملايين ، بيروت 1972م ،ص519 وما بعدها.

والصوفيّة في تهامة بدتْ لنا فضاءً لاكتساب الشرعية السياسية في مقابل شرعية السلالة النبوية – أو القرشية بشكل عام – في الجبال ، ففي جبال اليمن الجنوبية كان حكم (آل حميد الدين) هو السائد ، وفي شماليه (عسير) حكم (آل عايض اليزيديين الأمويين) . ذلك لأن القرون الهجرية السبعة الأخيرة كانت صراعا لاستقطاب المجتمعات المحلية حول مشاريع نفوذ سياسي تتوسّلُ الدين أو الطريقةً أو المذهب كأيديولوجيا مبررة للحكم . ولعل ما سنورده موثّقا هنا هو مقتطفات من جدلٍ دوَّنه (الحسن بن أحمد عاكش الضمدي) أحد كتاب السيد أحمد الإدريسي[13]، الذي استطاع أن يؤسس لبداية سلطة سياسية تستبطن الصوفية طريقة، وتتوسل النسب الشريف سياسيا في وقتٍ تصعدُ فيه شوكة السلفية مع محمد بن عبدالوهاب ، حيث مثَّلَ السلفيةَ في هذا الحوار الشيخ : ناصر بن محمد الكبيبي الجوني (من رجال ألمع) ومن معه من فقهاء عسير برعاية وحضور أميرها – آنذاك - : علي بن مجثل[14] الذي تقبل تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب ممالأة لمدها القادم إزاء ارتفاع شأن الأدارسة وقوة طريقتهم (الأحمدية) .

أما أقدم ما عُرفَ عن تاريخ التصوف في تهامة فهو ما أورده محمد بن أحمد العقيلي عن كتاب (ظهر الإسلام)[15] من أن (ذا النون

---

(13) وسيأتي الحديث عنه لا حقا ومجالسيه
(149 علي بن مجثل المفيدي : تولى إمارة عسير بعد سقوط إمارة آل المتحمي (أبو نقطة) الذين كانوا يستمدون حكمهم من آل سعود ويتبنون الدعوة الوهابية، وكانت إمارته خلال منتصف القرن الثالث عشر الهجري وانتهت عام 1288 هـ/1871 على يدي القائد التركي رديف باشا، وبعده تولى الإمارة ابن عمه : عايض بن مرعي . ينظر في هذا بتوسع : تاريخ عسير في الماضي والحاضر، هاشم بن سعيد النعمي، ط مؤسسة مرينا، الرياض، خاصة بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة – عام 1999م .
(15) أحمد أمين ص168 ج1.

المصري) رحل إلى كثير من البلاد كـ (وهران) في المغرب و(بيت المقدس) و(أنطاكية) و(اليمن - تهامة) حوالي عام 237هـ /851، والمعروف أن ذا النون المصري هو رجل التصوف الأول في وقته[16].

ومن أشهر رجالات التصوف في تهامة خلال العهد الأيوبي :

1. الشيخ : محمد بن أبي بكر الحكمي المتوفى عام609 هـ/ 1212.
2. الشيخ : محمد بن الحسين البجلي المتوفى عام 621هـ/1224 .
3. الشيخ : علي بن عمر الأهدل المتوفى عام 602هـ /1205.
4. الشيخ : يوسف المكدش المتوفى عام 630هـ /1233.
5. الشيخ : بالغيث بن جميل 651هـ/1253.
6. الشيخ البحر المتوفى عام 640هـ/1243.

اما أشهر رجالات التصوف في تهامة إبان القرنين السادس والسابع الهجريين (في عهد دولة بني رسول) :

1. أحمد بن موسى بن عجيل ، صاحب معارضة (الغارة) الشهيرة للصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني ، وهو جد أسرة (آل الحفظي العجيليين برجال ألمع) والمتوفى عام 690هـ/1291.
2. إسماعيل الحضرمي المتوفى عام 676هـ/1277.
3. أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي المتوفى عام 704هـ/1304.
4. محمد بن يعقوب أبو حربة المتوفى عام 724هـ/1323 [17].

---

(16) التصوف في تهامة، محمد العقيلي، مرجع سابق، ص 15.
(17) المصدر السابق ص20.

- رجال ألمع:

جزء صغير من تهامة، وتتبع إقليم عسير، وكانت منارة علمية بوجود عائلة آل الحفظي (العجيليين) وغيرهم كالعلامة: ناصر الكبيبي الجوني في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، بل كانت العاصمة العلمية لمنطقة عسير بلا منازع عبر أربعة قرون مضت (وتحديدا من 1000هـ/1591م – 1370 هـ/1950م).

- عائلة آل الحفظي العجيليين والتصوف:

عرفتْ تهامة عبر تاريخها الإسلامي عددا من الفرق الدينية، ومنها : الطريقة الصوفية، فقد كان التصوف معروفا من قبلُ في هذه الأنحاء، لكنّ أحمد بن إدريس الذي وفد إلى المخلاف السليماني في تهامة سنة 1245هـ/1829 عمل على إحياء هذه الطريقة إن لم يكنْ أضاف إليها شيئا من الخصائص التي تتفق مع طريقته (الأحمدية) المعروفة . وقد بعث هذه الطريقة مرةً أخرى حفيده محمد بن علي الإدريسي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري العشرين الميلادي[18].

أما التصوف في رجال ألمع فقد كان ظاهرا لنا في شعر العلماء هناك ناشطا واضحا ، يقول شاعرهم مشيرا إلى تصوف العالم الشاعر أحمد بن

(18) انظر في هذا : الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية 1200هـ/1785 - 1351هـ/1932 – د . عبد الله أبو داهش ، نادي أبها الأدبي ، ط2 1406هـ/1985 ، ص325 وما بعدها. وكذلك : التصوف في تهامة، محمد بن أحمد العقيلي ، ط1 ، مطابع دار الأصفهاني وشركائه جدة 1964م .

عبد القادر الحفظي :

قطبٌ وليٌّ وصوفــيّ صفـاً   وأحمدُ الفعلِ بالـ (حفظيّ) تخاطبهُ

وكان ارتداء الخرقة[19]. كانت لدى الصوفيين في رجال ألمع والمخلاف السليماني من أبرز المظاهر الروحية في معتقداتهم، ومن أشهر أقطاب التصوف في تهامة خلال هذه الفترة : أحمد بن عبد القادر الحفظي في رجال ألمع، وأحمد بن إدريس في صبيا ، وكانا يُلبسانِ الخرقة للمريدين من أتباع الصوفية ، وأشار إلى ذلك أحمد بن عبد القادربقوله :

وأناّ قـدْ عقلنـا وارتبطنـا   بأصحابِ الكساَ فلنا التّهانيْ

وإرسالِ الخواطرِ في دعاءٍ   بظهر الغيبِ ما فيه التــواني

وقد قسّم الباحث عبد الله أبو داهش الشعر الصوفي في هذه المنطقة إلى قسمين : روحي ويكاد ينحصر في قليل من شعر آل الحفظي في رجال ألمع خلال أوائل القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي كقول أحمد بن عبد القادر :

وساعَدَتِ العناية حين قالت   كلِ الأثمارَ واطــرحْ كل فانِ

وخـلّ الخـال خالٍ في خــلاء   وهذا البابُ فادخلْ كل خانِ

---

(19) تتكون الخرقة من طاقية الشيخ أو قميصه أو العمامة أو الطيلسان أو غير لك، وهي ثلاثة أنواع : خرقة الإرادة وخرقة التبرك وخرقة التشبيه، ويكون إلباس الشيخ لمريده في حفل بهيج يسمى (حضرة) . ويسندها أهل التصوف إلى النبي وينكر عليهم ذلك الفقهاء. انظر : الإسلامية اليمنية ، مصدر سابق، ص79.

ولا علــمٌ ولا عمـــــل أراهُ ولا رأسٌ ولا ربــحٌ يرانـــــيَ
خليٌّ مفلــسٌ من كلّ شـــيءٍ غريقٌ في البحـــارِ بلا كنـــانِ
غرست بشاطئِ الواديِّ نخيلاً فقلْ لي هل يكونُ الجانُ جاني ؟

ويقترب من الحلولية المعروفة لدى الصوفية حين يقول :
من أجلهمْ بالكساَ للاتّحادِ وللْ محلولِ فيه وفيهمْ أفضل البشرِ

ومثله عن الحلول قوله :
همْ في فؤادي حلولٌ وهو ينظرهمْ بالعينِ إنْ بعدوا عني وإنْ قربوا

وقد ظل التصوف مظهرا حقيقيا في شعر رجال ألمع ، إذ بدت قصائد شعرائه رقيقة بعيدة عن التقليد الشكلي وذات نغم شعري حزين .

وقد ورد أن الشيخ أحمد بن عبدالله الضمدي عزم من وطنه (ضمد) إلى مدينة رجال ألمع فأخذ عن القاضي أحمد بن عبدالقادر بن بكري العجيلي في علم الطريقة واستجاز منه[20].

أما في المخلاف السليماني، فما وجد من نتاج شعري خلال القرن 13 الهجري لا يشير إلى وجود شعر صوفي واضح يشبه ذلك الشعر في رجال ألمع أوائل القرن 13 الهجري ، لكن الشعر الصوفي الحقيقي في المخلاف

---

(20) نيل الوطر،الشيخ محمد محمد زبارة ، صفحة 136.

السليماني ظهر في شعر محمد بن علي الإدريسي خلال النصف الأول من القرن 14 الهجري/العشرين الميلادي[21].

غارةُ ابن عجيل كتأسيس للتصوف في رجال ألمع:

سبق أن ألمحنا إلى أن الرّوحانية (بكل تجلياتها واتجاهاتها ومدى عمقها) ترتبط ارتباطا وثيقا بالمكان أكثر من ارتباطها بالزّمان، ولهذا نراها تزهو أكثر زهوها في المناطق الحضرية. وعليه فقد كان التّصوّف في الجزيرة العربية يتركز في تهامة أو في (اليمن) بشكل أعم. ولما نعرفه عن ظاهرة التصوف في رجال ألمع بتهامة، وما عُرف عن أهله شعرا ونثرا وسلوكا، وما شهدناه ورواه آباؤنا الذين كانوا يحيون المناسبات الإسلامية بأنواعها مع علمائهم في بلدة (رُجال)[22]. كليلة (عاشوراء) و(نصف شعبان) وليلة (الرجبية) وتلكم الطقوس الجميلة التي عشناها نحن تبعا لتلكم المناسبات الروحية حيث نحتفل بنوعية الأكل حسب المناسبة والقرى والإمكانات، وبتزيين كل مواشينا بالحنّاء، وتتزين النساء بكل ممكن من الزّينة، أما في مركز العلم (بلدة رُجال) فتقام حلقات الذكر الخاصة التي تستخدم الأوراد الصوفية بشكل جماعي.. ولأن معظم رواد العلم في هذه المنطقة هم العجيليون سلالة الولي أحمد العجيلي، فسأعرض الغارة – باعتبارها وِرْدا شعريا –،وسلالته هم من سأتحدث عنهم وعن بعض مظاهر التصوف في شعرهم وما ورد عن ذلك.

---

(21) انظر في هذا: الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية، مرجع سابق ص 325 وما بعدها.

(22) أهم بلدة تاريخية في رجال ألمع، وكانت مقرا حضاريا وتجاريا وعلميا بريادة العلماء العجيليين فيها، وقد أصبحت اليوم من أهم المظاهر الأثرية التاريخية في المملكة.

الغارة[23] :

صاحبها : أبو العباس أحمد بن موسى بن عجيل ولد سنة 608هـ/1211 لبيت من أشهر بيوت اليمن علما ومكانة وسيادة، وهم بنو عجيل الفقهاء، وإليهم تنسب مدينة (بيت الفقيه) من قبيلة (الزرانيق) إحدى القبائل اليمنية، وتوفي سنة 690هـ/1291م كانت له صفات علمية وروحية عالية وردت في ترجماته التي وصفته ، ومنها وصف العلامة الحسن بن أحمد عاكش إياه بقوله : العلامة الوليّ المشهور ، في البراري والبحور ، إمام من أئمة المسلمين ، وعمدة المتقين ، وقدوة المتورعين الزاهدين يعتقد الناس هناك فيه الولاية ، ويزار قبره ، وممن زاره الرحالة الشهير : ابن بطوطة الذي ذكر أنه زار قبره ولبث عنده ثلاثا..

وقال أحدهم مخاطبا ابن عجيل :

هـاتِ منكَ يابنَ موسى إِغاثهْ عاجلاً في مَسيرِها حثّاثهْ

وفي هذا دلالة على مكانته الروحية الصوفية التي بلغها.

وقال عنه ابن بطوطة : (من كبار الرجال وأهل الكرامات) وقال من كتبوا عنه : له كرامات خارقة وأحوال صادقة، وبعضهم ذكر بعض هذه الكرامات .. وله زاوية تسمَّى : (زاوية ابن عجيل).

---

(23) هي من نظم : أحمد بن موسى بن علي بن عمر بن عجيل اليمني، تحقيق الدكتور: عبد الله بن محمد أبو داهش ، مطابع الجنوب أبها، ط 1406هـ/1985.

أما المستشرق الألماني الشهير (كارل بروكلمان) فقال عنه : أحمد بن موسى بن علي بن عجيل توفي سنة 690 هـ/1291 له (غارة ابن عجيل)[24].

معنى الغارة[25]:

حاول عبد الله أبو داهش تفسيرها معجميا فلم يقتنع ، فلجأ إلى البعض من أهالي تهامة لتفسيرها ، وقد كان موفّقا بالفعل ، وسأفسّرها بما وصل إليه هو ، وبما نعرفه فعلا عن مفهومها اللغوي والاصطلاحي المشهور هنا في كلّ مناطق اليمن التاريخي الذي أعتدّ فيه باللهجات التي قد لا يكون وصل إليها لغويو الأمصار خارج الجزيرة، والتي لا تجدي فيها المعاجم.

نحن وآباؤنا توارثناها مع (واحي الغنم) وهو مناغات الغنم بأصوات وكلمات أحيانا ومنها : (ألاااااا يا غارة الله) ، أو ونحن نحمي المزارع ، وأغلب ما تطلق فيه الجملة : وقت الحرارة الشديدة أو الظّمأ وقلة الغيث أو حلول المصائب، عندها يلجأ البشر إلى إطلاق هذه الجملة بلحن مؤثر شجيّ حزين، وتصاحبها الدّعوات وقد أتقن هذا العالم الكبير ومن قبله الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني توظيف لغة الأرض في نظمها بطريق صوفيّة رائعة.

---

(24) الكتاب : الغارة ، نظم أحمد بن موسى العجيلي، تحقيق د. عبد الله أبو داهش ط1 ، مطابع الجنوب، أبها.
(25) المصدر السابق.

ولأنّ هذا العالم الجليل هو جدّ أسرة آل الحفظي البكريين الذين وصلوا هذه المنطقة ما بين عامي 998هـ/1589 - 1001هـ/1592 ، فأثرى علماؤهم الزمان والمكان، وكان منهم من وصفه السلطان العثماني في الأستانة بـ (أقضى قضاة المسلمين – أحمد بن عبد الخالق)[26]. وكان لعلمهم وقضائهم شهرة - عندما كانت المنطقة على مذهبها الأصلي (الشافعي) – وكذلك من شعرهم الكثير الجميل ، مما حوى كل التوجّهات ومنها التّصوف بدرجاته ، ومنه ما يظهر في شعرهم ، وبفضلهم عرفنا الكثير عن تاريخ منطقة عسير وعلومها . غير أن اندماج هذه الأسرة العلمية في السلفية الجديدة التي تبنتها الدولة السعودية جعل من بقي منهم يقضي على كثير من تراثهم أو يخفيه ، تُقْيةً عن تخطئة الغالب السياسي المؤدلج ، ولم يزلْ بنوهم حتى الآن يخافون عندما يذكر تصوف أجدادهم أو شافعيتهم!

ولم يتناول محقق (الغارة) تماسَّها مع نص (الغارة) أو (الاستغاثة) للصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني ، لعدم علمه بها كما ذكر لي . وسأوردها هنا قبل غارة العجيلي ، ليمكن قراءة التآثر الكامل أو شبه المتطابق بين العلمين الصوفيَّيْن .

---

(26) وثيقة سلطانية باسم السلطان محمود توجد بمكتبة الملك عبد العزيز في الرياض، ونسخة منها لدى أحد أحفاده الأستاذ إبراهيم الحسن الحفظي.

نصّ (الغارة) أو (الاستغاثة) لعبد القادر الجيلاني[27]:

إن أبطأت غارة الأرحام وابتعدت فأقرب الشيء منّا غارة الله

يا غارة الله جـدي السير مسرعة	في حـــل عقدتنا يا غــــارة الله
يا غارة الله جدي واسْرعي عجــلا	تأتــي به مسرعاً يا غـــارة الله
يا غارة الله هاهــم قد بغوا وطغوا	فِعْلَ الحرام أتوا يا غـــارة الله
يا غارة الله أمسـوا عاكفـين علـى	فعل الحـرام ألا يا غــــارة الله
يا غارة الله حلــــي في منازلهـم	ودمريهـم ألا يا غـــــــارة الله
يا غارة الله تأيــيـــــداً لموتهـمُ	وشتتي شملهم يا غــــارة الله
يا غارة الله تنكيســــــاً لرأيهــم	وخربي دورهـم يا غـــارة الله
يا غارة الله لا تبقـــي لهم سنـداً	وهدمي ركنهـم يا غـــارة الله
يا غارة الله لا تبقـي لهم ولـــداً	وأذهبي مالهـم يا غـــارة الله
ضيق أحاطت به الأهوال تزعجنــي	وكدرت عيشتـي يا غـــارة الله
يا غارة الله لمـــا زادي ألـمـي	من الهموم التي من قـــدرة الله
وجهت قلباً كسيـــراً محرقــاً وجلاً	مستعجلاً في الذي أرجو من الله
وقلت يا رب يـــا رحمـن يا ملـكٌ	ويا رحيمٌ ألا يا غـــــــارة الله
ناديت : لما تهيج النـــار في كبـدي	يا غارة الله من لي غـــارةَ الله
كوني معي عنـــد أكداري مساعدة	وفرجي كربتـي يا غـــارة الله
أقول لما نقيـــــض النـوم يقلقنـي	بجنح ليلٍ ألا يا غــــــارة الله

(27) أبو صالح السيد محي الدين عبد القادر الجيلاني. ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب . ولد بـ (جيلان – بلدة شمال إيران حاليا سنة 561هـ/1165 . طلب العلم في بغداد وعلم فيها وأفتى خلال مرحلة اضطراب سياسي شديد بين العباسيين والأتراك والصليبيين، وزهو مذهب الباطنية . من مؤلفاته : إغاثة العارفين وغاية منى الواصلين، أوراد الجيلاني، الرسالة الغوثية، سر الأسرار في التصوف . وتوفي في بغداد عام 470هـ/1077.

فكي خناقي الذي قد ضاق في عجلٍ ونفّسي كربتي يا غـــــارة الله
يا غارة الله لا خِـــلٌّ يساعـدني من الأنـــام ولا أرجو ســوى الله
لا يُرتجى كشف ضـر في الأمور أتى وحادثــــات بـدت إلا من الله
فثق به في مهمــــــات الأمـور ولا تجعل يقينك يومـــاً غيـر بالله
إن الشدائد مهما ضـاقت انفرجت لا تقنطـــنّ إذاً من رحمة الله
له علينا جزيــل الفضـل منتشـراً في كــل آونــة فضــل من الله
مالــــي مــلاذ ولا ذخـر ألـوذ به ولا عمــاد ولا ركـــن سوى الله
أرجـــــوه سبحانــه ألاّ يخيـبَ لي ظنــا فحسبيَ ما أرجـوه في الله
ربٌّ تفـــــرد في حكـم وفي صفـة فلا مماثـلَ في الأشيـــاء لله
يا نفس قولي إذا ضـاق الخنـاق ألا يا غارة الله حتـــــي غارةَ الله
لا تيأسي نفحــــــةً تأتــي فربتمـا تأتيـك بعد إيــاس رحمة الله
مالـي ســوى الله ربي دائمـاً أبـداً أخـذا بثــــأري ألا يا غارة الله
فاستعمل الصبر فيما جاء من تعب فليس بالصبـــر تخفى نعمة الله
ما استعل الصبـر إنسـان فضـل به رأياً ولا جـــاءه بؤس مـــن الله
الصبـر في جملـة الأشيـاء مغتنـم وصاحب الصبر محمود لدى الله
فلم تـزل طـــول ما عمــرت متكلاً فيما ينوبـــك من أمــر على الله
ثم الصلاة ومحمـــود السلام على محمد المصطفى من خيـرة الله
والآل والصحب ثم التابعين لهـــم في سنة المجتبـــى ذي سنة الله
ما حثحث الركب مؤتماً لكاظمـــة يبغي جوار النبيِّ الهادي إلى الله
الحمد لله حمداً دائمـــاً أبـــداً والحمــــد لله ثم الحمـــــد لله
الحمــــد لله رب العالمــــين على مـــا كــان يلهمنــي الحمــــد لله

(الغارة) لأحمد بن موسى العجيلي :

إنْ أبطـــأتْ غارةُ الأرحام وابتعدتْ عنـــــاً فأقربُ شيءٍ غارةُ الله
يا غارةَ الله جُدِّي السيرَ مُســـــرعةً لحـــلِّ عُقْدَتنا يا غـــــارةَ الله
ضاقتْ وضاق بها في كل ناحيـــــة وأظلَمــــتْ جـــــللا فالحمد لله
لا يُرْتجَى كشفُ ضراءٍ ونـــــــازلة في كـــلِّ حادثـــــــة إلا مـن الله
فثقْ بربك في كل الأمـــــــــور ولا تجعلْ يقينـك يومـــــا غير بالله
إنّ الشدائد مهما ضاقت انفرجـتْ لا تقنطـنَّ إذاً مـــن رحمة الله
له علينا جزيل الفضل منتشــــــرا في كل حادثـة فضـــل من الله
كمْ من لطائفَ أولاها العبادَ وكـــمْ أشياء لا تُحْصَـى فضلا من الله
فاجْزَعْ بقلبٍ سريع مُحْـــرَقٍ وجـــلٍ مستعطف خائـف من خشية الله
وقل إذا ضاقت الحـــالاتُ مبتهـــلا برفع صَـــــوت : ألا يا غارةَ الله
ما لي ملاذٌ ولا ذخـــــرٌ ألـــوذُ به ولا عمـــادٌ ولا ركـــنٌ سوى الله
ربٌّ تفــــرّدَ في ملك لـه وعَـــــلاَ وفضلـــــه واســـع والحمد لله
أرجوهُ سبحانـــه أن لا يُخَيِّــــبَ لي ظناً فَحَسْبــتيَ ما أرجوهُ في الله
فقمْ وحثَّ التماديْ كمْ عسى ومتـــى كمْ أيها النفـسُ إعراضٌ من الله
آهٍ على زمنٍ منِّي مضـــــى فُــرُطاً سَبَهْلَلاَ لـمْ يكنْ مـــن طاعة الله
ألومُ نفسيْ وقلبي كلمــــا رجعــــا عن المعاصـي بتوفيـــق من الله
وربما بَكَياً خوفَ الذّنــــــوبِ ومــا قدْ أسلفاَ مـنْ خطيئات إلى الله
وكمْ أجــرُ التَّونِّيْ كـمْ متـى وإذا كمْ تاهت النفس أعوانا من الله
يا نفسُ قوليْ إذا ضاق الخنـــاقُ ألا يا غـــارة الله جُدِّيْ غـــارةَ الله

لا يا سنــى نفحــةٍ تأتيــك ربتمـــا تأتيــك بعد إيـــاسٍ رحمة الله
استعملِ الصّبرَ فيما جاء منْ بؤسٍ وصاحبُ الصبرِ محمودٌ من الله

دُعاءُ الغارة للعجيلي:

جاء في الكُتيب الذي حققه عبد الله أبو داهش والذي حوى (الغارة) على أنه نص واحد ، بينما هما نصان (الغارة – ودعاؤها) ، كما فاتته غارة الجيلاني ، ولذا أنبّه .

كما ذكر المحقق أنه حذف كلاما بعده احتراما منه للعقيدة الإسلامية .. وليس مهما للباحث المتجرد حكمه الخاص ولا مَن الأقرب والأصوب عقيدة : العالم الفقيه الكبير أم المحقق ، وكان عليه إيراد كلام العلامة ولن ينوب أحد عن أحد أمام الله ، غير أنني أعيد تصرفه إلى مراعاة بعض الأوضاع المنهجية السياسية المحيطة به[28].وسأحاول لاحقا الحصول عليها كاملة من هناك.

النص :

إنْ أبْطَأتْ غارةُ الأقطاب ما التّحقتْ تأتي به مسرعاً يا غـــارةَ الله
ضِيْقٌ أحاطتْ به الأحوالُ تزعجنـــي وكدَّرتْ عِيْشَتِيَ يا غـــارةَ الله
يا غارةَ الله لـمــاض زادَ بــيِّ أملــيِّ من الهموم التي من قــدرة الله
وجدتُ قلباً كسيرا مُحُــرَقاً وجــلاً مستعجلا في الذي أرجو من الله
وقلتُ يا ربُّ يا رحمـــــنُ يا مــلك ويا رحيـــمُ ألا يا غـــارة الله

(28) ولمن أراد أصل المخطوطة فهي في :برلين 3753 رقم 2 ، باتافياثان314 كما ورد في تاريخ الأدب العربي لـ كارل بروكلمان .

ناديتُ لما تهيـــجُ النـــار في كبـــدي　　يا غــارة الله من لي غـــارة الله
كونيْ معي عنـــــد أكدار مساعدة　　وفرجـــي كربتي يا غـــارة الله
أقلُّ مــا بيَ مـــن غيـــظٍ يُقَلِّقُنـــي　　بجنح ليل ألا يا غــــــارة الله
يا غـــــارة الله للملهوف معتـــــذرا　　تُغيثُ لهفتنــا يا غـــــارة الله
يا غارة الله للمظلوم منتصـــــــرا　　بِهُلْكِ أعدائنـا يا غـــارة الله
يا غارة الله هاهـــــمْ قد طغوا وبغوا　　فعلَ الحرام أتوا يا غــارة الله
يا غارة الله أمسوا عاكفـــين علــى　　شُربِ الخمورِ ألا يا غــارة الله
يا غارة الله حُلِّيْ في منازلهـــــــم　　ودمِّريهمْ ألا يا غـــــارة الله
يا غارةَ الله تأبيداً لفردهـــــــــمُ　　وشَتِّتِيْ شملهـمْ يا غـــارة الله
يا غارة الله تنكيسا لردّهـــــــــمُ　　وخرِّبيْ دورهـمْ يا غـــارة الله
يا غارة الله لا تبقي لهم سنـــــــدا　　وهدّميْ رُكنهـــمْ يا غــارة الله
يا غارة الله لا تبقي لهم جُنُــــــداً　　وأذهبي مالهم يا غـــارة الله
يا غارة الله لا خلٌّ يساعدنـــــــي　　من الأنام ولا أرجو ســوى الله
ما لي سوى الله ربي دائما أبـــــدا　　يأخذْ بحقي ألا يا غـــــارة الله
ما لي بضرٍّ ولا خلٍّ يساعـــــدني　　ولا عمادٍ ولا ذخرٍ ســـوى الله
ثم الصلاةُ على المـــختارسيدنــا　　محمد المصطفى مرسلٌ من الله

وتبدو العلاقة لفظا ومعنى شبه متطابقة بين دعاء الغارة للعجيلي وبين (غارة الجيلاني).

ويظهر لي أن الغارة من الجيلاني إلى العجيلي كانت عبارة عن أوراد صوفية شعرية يتغنى بها أصحابها بألحان شجية تؤثر عاطفيا

وشعوريا في نفوس من يؤديها، إذ من المعلوم أن من يندمج ويغوص في دعاء أو غناء جميل يجد لذة عميقة وشفاء نفسيا يبعده عن قضايا حياته وزمنه.

– ومن صريح الحث على التصوف ورموزه في عسير (رجال المع) قول الشيخ محمد بن أحمد الحفظي :

فخذْ ذات اليمين إلى شعاب — وسلّ النفس في منْ قدْ تسلّى
وطالعْ في الرسالة للقُشيْريْ — وفي الإحياء تنظرْ أيّ مجلى
وما فعل (ابنُ أدهمَ) أو فضيلٌ — ومن سكن البيوت ومنْ تخلّى
وشيخ زماننا أعني عقيلا — تعقّلْ عنه فهو أتم عقلا

وقد تختلط مصطلحات التشيع والتصوف في شعر آل الحفظي كما في قول العلامة محمد بن أحمد :

عصائب في نجدٍ تمهّدُ للمهدي — وتحيي موات الدين في القرب والبعدِ
فوالدهمْ شيخ الطريقة كم لـه — من الأجر في إحيائه سبلَ الرشْدِ[29]

---

(29) ديوان : نفحات من عسير، جمع محمد بن إبراهيم زين العابدين الحفظي، مطابع عسير 1974م.

المخلاف السليماني(30)

الأدارسة

وصل السيد أحمد بن محمد الإدريسي (الحسنيّ نسبا المغربي مولدا .. من ذرية إدريس بن عبد الله المحض) إلى مدينة (صبيا) في المخلاف السليماني في مطلع القرن التاسع عشر . ولد في بلدة (العرايش) من أعمال (فاس) بالمغرب سنة1759م ، ودرس على شيوخه هناك وأهمهم : عبد الوهاب التازي ، ثم اتجه إلى مكة سنة 1799م ، وكان محترما لدى علمائها وأمرائها ، ثم انتقل إلى (زبيد) باليمن حيث أجاز طريقته للسيد : عبد الرحمن الأهدل وأولاده إجازة عامة ، وتُدّعى طريقته : (الأحمدية) نسبة إلى اسمه ، وعنوانها هو عنوان الطريقة الشاذلية ، إذ يسلك أتباعها بالتهليل والأدعية مسلك الشاذليين . ثم انتقل إلى (صبيا) إحدى مدن المخلاف السليماني التي كان يحكمها أشراف أبي عريش واستوطن هناك حيث كانت إقامته فاتحة لطريقته الأحمدية، واعتبر وليا من الأولياء المحليين وتوفي سنة 1837م . من آثاره :

---

(30) يطلق المخلاف على المنطقة الساحلية الممتدة في تهامة من حلي بن يعقوب شمالا إلى شرجة حرض جنوبا (المُوَسَّم) حاليا، ويطلق على معظمه الآن (منطقة جازان) . أما وصفه بـ(السليماني) فنسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي الذي نجح في توحيد مخلافي (حكَم وعثّر) في القرن الرابع الهجري . وأشهر الأسر التي حكمته : أسرة الأشراف السليمانيين، أشراف آل خيرات، أسرة السادة الأدارسة ، ثم دخل المخلاف ضمن الدولة السعودية الثالثة .

انظر في هذا : العقيق اليماني في وفيات وحوادث المخلاف السليماني، عبد الله بن علي النعمان . العقد المفصل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي ط جدة دار البلاد . خلاصة العسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد تحقيق د. هاني بن زامل مهنا (دكتوراة)، مدرسة الدراسات الشرقية جامعة درم بريطانيا 1405هـ/1984 . وسواها .

- المنتقى النفيس
- أعطار أزهار حدائق التقديس
- كيمياء اليقين
- رسالة القواعد.
- أوراده وصلواته الـ 14.
- السلوك.
- روح السنة .

ثم توالى بنوه على المكانة حتى تمكنوا من الحكم على يدي السيد : محمد بن علي الإدريسي المولود في (صبيا) سنة 1876م ، حيث جمع بين دراسته في (الكُفْرة) مقر السنوسيين ببرقة في المغرب العربي – ليبيا حاليا - وبين الأزهر والسودان وتزوج بابنة شيخ الطريقة الأحمدية هناك هارون الطويل ، ثم عاد إلى صبيا واضطلع بمهمة المقاومة ضد العثمانيين حتى استقل بالإمارة ووصل حكمه جبال عسير وقبائل حاشد وبكيل شرقا وأحيا طريقة جده (الأحمدية) بشكل عملي ، ولا تزال آثاره باقية في محافظة (صبيا) بالمخلاف السليماني (منطقة جازان حاليا)[31]. وبالغ بعض أعدائه السياسيين في وصف احتياله على الناس بالكرامات، حتى ذكروا أنه كان يستخدم الكهرباء التي عرفها مع الطليان في القرن الأفريقي ولم يكن الناس هنا يعرفون عنها شيئا، لإثبات كراماته لهم[32].

(31) انظر التفاصيل عنه في : سياسة بريطانيا في عسير أثناء الحرب العالمية الأولى، دراسة وثائقية، الدكتور : فاروق عثمان أباظة ط دار المعارف ص26 وما بعدها . وكذلك : مناظرة أحمد بن إدريس مع فقهاء عسير 1832 – الحسن بن أحمد عاكش الضمدي، تحقيق الدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش ط1 -1987 دار المدني جدة .

(32) الرحلة اليمانية للشريف حسين بن علي، شرف بن عبد المحسن البركاتي ط1 ، دار الوراق – لندن 2007م .

وفي لقاء صوتي[33] - مع السيد : حسن أبو الحسن الإدريسي (83 عاما) أثناء زيارتي إياه في جدة ذكر لي أن ما قاله الخصوم السياسيون ومن تبعهم عن السيد محمد الإدريسي ليس صحيحا، لكنّ ما لا يشك فيه أحد أن عوامّ الناس في تهامة آمنوا كثيرا بولاية (الإدريسي) إلى حد متجاوز ، وقد عرفتُ أنا ونخبة في (ألمع) بقايا ممن يحلف به فيقول : (في وجه ابر إدريس لقد حدث كذا) وخصوصا من النساء اللاء عرفنا وسمعنا بعضهن أثناء طفولتنا ...

مناظرة الإدريسي مع بعض فقهاء الوهابية في عسير:

مناظرة شهيرة بين كل من أحمد بن إدريس المغربي والعلامة ناصر بن محمد الكبيبي الجوني وفقهاء عسير . وهذه المناظرة وقعت في مجلس الإدريسي بمدينة(صبيا) ، ويحكي كاتبها قصة عدم فهم طائفة من علماء (عسير) يحضرون مجالس الإدريسي، إذ لا يفقهون ما يقوله ويشمئزون منه ، ومنهم الفقيه عبد الله بن سرور اليامي الذي اتخذ بلاد (عسير) وطنا ودان بمعتقد الطائفة النجدية في إطلاق لفظ الشرك الأكبر على جميع الأمة المحمدية من غير تفرقة بين الموحد منهم والمشرك الذي يعتقد النفع والضر في غير الله .... ثم إنه – ابن سرور – كتب نسخة فيها اعتراضاته وقد أوردها المؤلف... حتى وصل الأمر إلى استعداد الفقيه ناصر الكبيبي – أحد علماء رجال ألمع آنذاك - بمناظرة الشيخ برعاية حاكم عسير علي بن مجثّل الذي كانت صبيا تابعة له، وهي مناظرة بين من

(33) وثقتُه في فبراير 2011.

كان يطلقُ عليهم (مطاوعة) من أتباع أمير عسير وبين السيد الإدريسي ، دار معظمها حول ما يحمله أولئك (المطاوعة) من تعاليم الشيخ محمد ابن عبدالوهاب ومدرسته، وبين ما يحمله الإدريسي ومن حوله من فقهاء (تهامة) من المذاهب الأخرى ومنها تفسيرهم مفاهيم التصوف الذي يرون أن الآخرين لن يفقهوه . ومن هذه المناظرة قول جامعها الحسن بن أحمد عاكش الضمدي(34):

ولما استقر المجلس بأهله ... تنحنح الفقيه ناصر الكبيبي وابتدأ بخطبة في الوعظ على قاعدتهم ، وثنّى بدعوة النجديّ ، وكان براعة استهلال كلامه : أن الناس كانوا في جاهلية ، يعبدون الأصنام ، ويستحلون المحرمات ، فتجرد للدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . فقال السيد أحمد : صواب الكلام ، فبعث الله رسوله محمد بن عبد الله .... قال الكبيبي : محمد بن عبد الوهاب مجدد الإسلام .

فقال السيد : لا ننكر فضله ولا مقصده الصالح في ما صنع ، وقد أزال بدعا وحوادث ، ولكن شاب تلك الدعوة بالغلو ، وكفّر من لا يعتقد في غير الله تعالى من أهل الإسلام ، واستباح دماءهم وأموالهم بلا حجة ... قال الكبيبي : ما فعل إلا ما هو صواب .

(34) ولد في بلدة ضَمَد بالمخلاف السليماني 1221هـ 1806م في أسرة علمية شهيرة . درس في وطنه وفي بيت الفقيه وزبيد ومكة وصنعاء، ثم اشتغل بالتدريس، وهو من أشهر أدباء عصره في منطقته. له قصائد ومقامات رفيعة وله العديد من المؤلفات، انظر : الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية. عبد الله أبو داهش ص 215 : مرجع سابق .

قال السيد أحمد بن إدريس : هو عالم من العلماء والعصمة مرتفعة عن غير الأنبياء ، وهو يخطئ ويصيب، ولكنْ لا يحل لكم التقليد له في ما أخطأ فيه لأن ذلك هو ما كلفه الله تعالى على مبلغ علمه ، وأنتم لجهلكم بمعزل عن أخذ دليله، ومعرفة مهْيَعِ سبيله . فقال الكبيبي : الشرك الأكبر قد عم الأقطار كلها ، والناس كلهم قد ارتدوا عن الإسلام في المشرق والمغرب واليمن والشام ، ولولا أن الشيخ محمدا جدد الإسلام لكان الناس في ظلمات الكفر .

قال له السيد أحمد : معاذ الله تعالى ما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يسلك هذا المسلك ، أنت رجل حديث السن، وأنا عرفت في مكة سعود بن عبد العزيز وعلماء حضرته أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب : عبد الله وأخوه حسين وسليمان وهم علماء يعرفون الحجة ويلتزمون اللوازم عند واضح المحجة ولم يكن اعتقادهم ما أنت عليه، وإنما أنت نشأت في بلد أهلها عوام ، وما عرفت من يرشدك إلى الصواب ، بل حفظت شيئا وغابت عنك أشياء . حتى أن الإدريسي عذر محاوره بقوله :

(... وإنما أنت محمول على السلامة ، لكونك ساكنا في البادية ، وفي الحديث (منْ بداَ جفاَ) ، وقد خاطب جفاة الأعراب سيد الخليقة (ص) بما كدر خاطره فصبر ولنا به أسوة .

وهي مناظرة ممتعة طريفة بحق بين رجل الطريقة السيد (أحمد الإدريسي) وبين الجانب السلفي الوهابي وصحبه[35] ..

من أوراد الطريقة الأحمدية - الحصون المنيعة النبوية لسيّد العارفين قطب المحققين أحمد بن إدريس رضي الله عنه (هذا هو العنوان في المصدر)[36] : الحصون المنيعة هي وردٌ طويل متصل ، تكررُ فيه بعض الآيات أو جمل الدعاء (ثلاثا أو سبعا) ، وبدايته بما يلي :(اللهم إني أقدّم إليك بين يدي كل نفَسٍ ولمحة وطَرْفة يطرفُ بها أهل السموات وأهل الأرض وكل شيء هو في علمك كائن أو قد كان . أقدم إليك بين يدي ذلك كله أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق (ثلاثا) .. إلخ) . ومن الورد نوع قد يختلط فيه مصطلحات لم أستطع حتى الآن البحث عن أصولها (عبرانية – آرامية ....إلخ ووضعت تحتها خطوطا) كالمقطع التالي : (لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق يلجمه بلجام قدرته أَحْمَى حيثما أَطْمَى طميثا (وكان الله قويا عزيزا) . بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص كفايتنا (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) أحون قافٌ أدمٌ حَمٌّ هاءٌ آمين) . ومن طريف ما أعجبني في وِرْد (الحصون المنيعة) ما يتكرر فيه من التعوذ مِن (شرّ كل ذي شر ، ومن شر الجن والإنس والشياطين والسلاطين والأعراب والسباع والهوام واللصوص ... والجنون والجذام والبرص والفالج ، مما جعلني أسترجع

---

(35) انظر في هذا : مناظرة أحمد بن إدريس مع فقهاء عسير 1248هـ/1832 ، جمع الحسن بن أحمد عاكش الضمدي (1221هـ/1806 - 1290هـ/1873) ، وتحقيق: عبد الله أبو داهش مرجع سابق .

(36) توجد أورادٌ (الحصون المنيعة النبوية...) ضمن كتاب : أحزاب وأوراد الطريقة الأحمدية الإدريسية للإمام السيد أحمد بن إدريس رضي الله عنه ، تحقيق : السيد محمد الحسن الإدريسي ، رقم الإيداع : 1908/ 1993م ، أصدرته مشيخة عموم الطريقة الأحمدية الإدريسية ، وقد أهدانيه السيد حسن أبو الحسن الإدريسي خلال لقائي إياه في جدة .

استشهاده بالحديث النبوي في مناظرته مع فقهاء عسير الوهابيين (مَنْ بدا فقدْ جَفا) ، وأربط نظرته إلى جفوة البدو ببيئته التي أثرت في نفسه وحسه من المغرب – مصر – مكة – السودان – ثم زبيد – فصَبْيا في قلب المخلاف السليماني ، وهي كلها أماكن ترقق الشعور والحس والسلوك عكس بقية مناطق جزيرة العرب ..

خاتمة

بدخول الدولة السعودية الثالثة إلى عسير ، رسخ هناك منهج دعوة الشيخ محمد بن الوهاب رسوخا سياسيا إداريا وتعليميا ومذهبيا ، وصار آخر علماء آل الحفظي، ذوي المذهب الشافعي، كالقاضي الشيخ إبراهيم بن محمد زين العابدين أحد العلماء الذين نهجوا النهج الوهابي إداريا رغم ما عرف عنه وعن أسلافه من المرونة المذهبية ، وهو كاتب اتفاقية الحدود السعودية اليمنية الحالية بخط يده .

أما في المخلاف السليماني ، فكان وضع الأدارسة ساخنا بين كمَّاشتي الشريف حسين بمكة، والإمام يحي حميد الدين في صنعاء فوقع محمد بن علي الإدريسي معاهدة أخوة وجوار مع الملك عبد العزيز كان ضمنها نشر دعاة في المخلاف من طرف الملك عبد العزيز عملوا بدورهم على إزالة بقايا المذاهب الأخرى وفي مقدمتها بقايا الطريقة الصوفية الأحمدية، وهدَمَ السيد محمد الإدريسي بنفسه قبة قبر والده وجميع الأضرحة الأخرى، ومُنِعَ نساءُ البادية من غشيان الأسواق وغُيِّرتْ كثيرٌ من

المظاهر الاجتماعية، ثم تلاشتْ كل بقايا مظاهر الفكر الصوفي نهائيا على يدي أحد دعاة الملك عبد العزيز وهو : عبد الله القرعاوي خلال العقد السادس من القرن الرابع عشر[37].

(37) تاريخ المخلاف السليماني، محمد بن أحمد العقيلي - ج2 – ط3 – ص : 75س8 بتصرف .

الصوفيّة والمجالس العلميّة في الحجاز الحديث

محمود عبدالغني صباغ(*)

المؤسسة الصوفية في الحجاز بالقرن التاسع عشر: ازدهرت الزوايا الصوفية في الحجاز خلال العصر العثماني، لتحسن الأوضاع المعيشية والإقتصاديّة عمّا كانت عليه في العصور السابقة،حتى لقي بناؤها اشتراكاً من كافة طوائف المجتمع المحلي ومن خارجه فكان هناك ما أنشأه كبار شيوخ الطُرق، والعلماء، وأعيان الأهالي، والتجّار، وأمراء المقاطعات الإسلامية والمحسنون وفاعلو الخير - كما ترسخت متانتها الوقفية مع صدور قوانين التنظيمات العثمانية للأراضي والأوقاف منتصف القرن التاسع عشر.

(*) كاتب وباحث سعودي مهتم بالتاريخ والتراث الحجازي.

وانتشرت الطُرق الصوفية في منطقة الحجاز في ذات الفترة، حتى إن بعضها انطلق منها، مثل الطريقة الإدريسية[1] التي أسّسها أحمد ابن إدريس في مكة المكرمة، والطُرق [المشارب] التي تفرعت منها، مثل الطريقة الختميّة (المرغنيّة)، والطريقة السنوسيّة، والطريقة الرشيديّة – وجميعها طُرق حديثة العمر نسبياً انطلقت في القرن التاسع عشر. فيما سبقتهم الطريقة السمّانية بالانطلاق من الحجاز، حيث أسسها محمد بن عبدالكريم السمّان[2]، مسؤول الضريح النبويّ، من المدينة المنورة، في منتصف القرن الثامن عشر.

(1) الطريقة الإدريسية: نسبة للإمام المتصوّف أحمدبن إدريس (وكانت تسمى في حياته بالطريقة المحمديّة الأحمديّة)، من علماء مكة، (أصلا من أهل فاس)، مكث بمكة زهاء ثلاثة عقود وكان من فحول العلماء العاملين والصوفية المحققين أخذ عنه أهل الحجاز العلوم الجمة ودخل أكثرهم في طريقته، وحين نفي من مكة المكرمة، عام 1827م، واستقر في قائم مقامية صبيا التابعة لمتصرفيّة عسير، وضع نواة إمارته الشهيرة بها. وقد تفرع من الطريقة الإدريسية طرق إدريسية في الملايو وارتريا، والطريقة الصالحية في الصومال، والطريقة الرشدية في السودان. علما بأن ابن إدريس نفسه كان ينتمي إلى الطريقة الشاذلية-الخلوتية. ومن الكتب التي كتبت عن السيّد أحمد بن إدريس من طلابه: مناقب السيدأحمد بن إدريس لمحمدعثمان الميرغنى، ومناقب السيدأحمد بن إدريسلإبراهيم الرشيد، وكتاب عقد الدرالنفيس لإبراهيم الرشيد، وكتاب التطريز النفيس باسم سيدى أحمدبن إدريس لمحمد الأمير العمرانى الخلوتى السمّاني.

(2) محمد عبدالكريم السمّان (توفي عام 1775م)، من علماء المدينة المنورة، ومسئول الضريح النبوي. مزج بين الطرق الخلوتية، والقادرية، والنقشبندية، والشاذلية – التي كان يظفر بإجازاتها جميعا - في قالب جديد عرف بالسمّانية.

والسمّانية – طريقة مُستقلة وإن كانت رسمياً هي امتداد للخلوتية، بحسب مسلسلات الإجازة عند السمّان. والسمّان هو صاحب كتاب المناقب الكبرى، وخليفته من بعده كان صدّيق بن عُمر خان. كتب عنه تقي الدين بن عمر الزرعة الحنفي المكي (توفي 1775م)، كتاب درة عقد جيد الزمان، وفيض مواهب الرحمن، في بعض مناقب قطب المعارف، سيدنا ومولانا العارف، الشيخ محمد السمّان.

ويذكر الشيخ حسن عجيمي[3] (1639-1701م)، في مخطوطه "خبايا الزوايا أهل الكرامات والمزايا"، أنه بالقرن السابع عشر الميلادي،كان في مكة المكرمة وحدها ثماني عشرة زاوية أو مشهداً، وأربعون طريقة صوفية، ذكر أسانيدها في كتابه المخطوط وأجازها لرفيقه الشيخ أبوسالم العياشي من أهل تونس في خطاب مؤرَخ في سنة 1664م، وذكرها الشيخ العياشي في رحلته للحج.

وأطلق أحمد ابن إدريس طريقته في مطلع القرن التاسع عشر من مكة. وانضم اليه أبرز علماء مكة، على رأسهم، إمام المقام ومفتي الشافعيّة محمد صالح الريّس[4].

---

(3) الشيخ حسن بن علي بن يحيى بن عمر بن أحمد العجيمي (1701-1639م): يُسمى بأبي الأسرار، وأبي البقاء، واشتهر بـ[الصوفي الكبير]. من أهل مكة، على المذهب الحنفي. وهو محدّث الحجاز، ومُسند مكة، وأحد الشيوخ الثلاثة الذين ينتهي إليهم غالب أسانيد مَن بعدهم من العلماء في الحجاز واليمن ومصر والشام (إلى جانب عبدالله بن سالم البصري المكّي، والشيخ أحمد النخلي المكّي). من شيوخه في الحديث في مكة: عيسى الثعالبي، ومحمد بن سليمان الروداني، وعبدالله وسعيد باقشير. كان قد تسلّكَ (من سلوك الطريقة واتباعها) في كل الطرق التصوفية التي كانت معروفة بمكة المكرمة.

من مشايخه في الطريقة [العارف بالله] أحمد محمد القُشاشي، الذي لقنه الذكر وألبسه الخِرقة. والسيد [العارف بالله] عبدالرحمن بن أحمد المكناسي الشهير بالمحجوب. له من كُتب التصوف: خبايا الزوايا، ورسالة في معرفة طرق الصوفية، واتصال الرحمات الإلهية في المسلسلات النبوية، وإقالة العَثرة في بيان حديث العترة. وقد جمع أسانيده تلميذه تاج الدين أحمد الدهّان بعنوان كفاية المستطلع ونهاية المتطلع. وبيت العجيمي من أشهر البيوتات العلميّة المكية وأعرقها، كانوا من الشوافع فتحنّفوا، وكانت مساكنهم في شِعب علي ثم انتقلوا إلى حارة الشامية.

(4) محمد صالح بن إبراهيم الريّس (1824-1773م). من أهل مكة. مفتي مكة منذ عام 1800م.. اشتهر في التفسير والحديث والفقه الشافعي والعربية والتصوّف. تسلّك في طريقة أحمد ابن إدريس. اشتهر في الفقه الشافعي، وكانت له إحاطة عظيمة بالخلاف في الأصول والفروع. من مؤلفاته في التصوّف: جزء ضخم في كرامات الأولياء، وخطب في مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم. دُفن بشعب الحجون. ومن تلاميذه الشيخ عمر عبدالكريم بن عبدالرسول، والشيخ صالح زواوي.

كان لتلك الزوايا وظائفها التعليمية والدينية، وكانت مدعومة بالأوقاف الجليلة التي تسد احتياجاتها، وبالنذور والهدايا الطرقية التي يُقدمها الأهالي وأثرياء الحُجاج والعُربان وأمراء المقاطعات الإسلامية، وتُغني القائمين عليها ليتفرغوا للوظائف التعليمية والدينية المنوطة بهم.

وفي مكة المكرمة كانت أبرز الزوايا، زاوية السنوسي التي شيّدها محمد بن علي السنوسي على سفح جبل أبي قبيس في حدود عام 1828م. واشتهرت إلى جانبها الزاوية التابعة لمؤسسة الطريقة النقشبندية، التي شيّدها أيضاً في أبي قبيس عبدالله الأرزيجاني، وكان الشيخ سليمان أفندي النقشبندي قيّما عليها.

لقد ازدهرت في مكة، في تلك الفترة، ظاهرة الطُرق، فكان إلى جانب الطُرق السنوسيّة،والنقشبنديّة الطرق القادريّة [الجيلانية]، الشاذليّة،الإدريسيّة، البدويّة [الأحمديّة]،المرغنية،العلويّة، الرفاعيّة، والبكطاشيّة.

وبموجب تقارير من أمراء مكة، وحُجج، كانت تُمنح نظارات الزوايا، والخدمة في الأضرحة، الى أفراد أو بيوت بعينها. فكانت زوايا السيّد البدوي بمكة، وخِدمة ضريح العادلي موروثة في بيت القُدسي المكّي

صدر عن مركز المسبار

مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

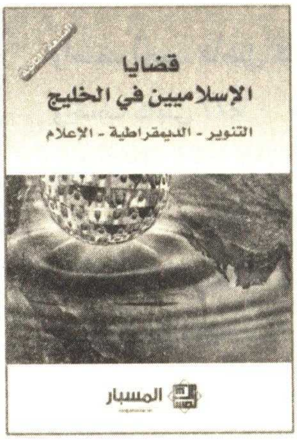

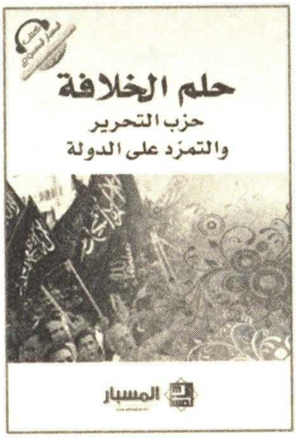

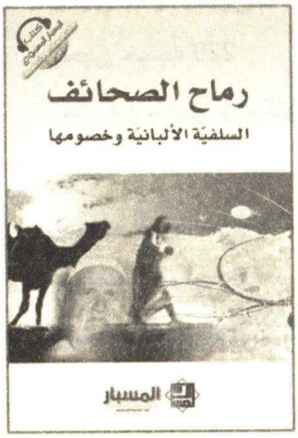

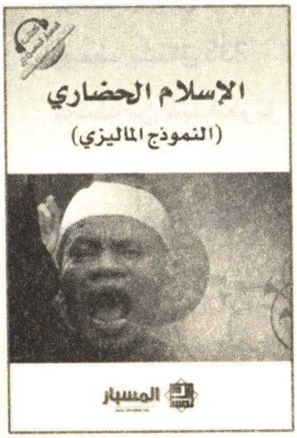

إسلام بلا دماء
تيّار اللاعنف الإسلامي
المسبار

الحركة الإسلاميّة
في كردستان
المسبار

الشعائر الدمويّة
جبهة الإنقاذ الجزائريّة
من التأسيس إلى النكبة
الجزائر
العاصمة
الجزائـــــر
المسبار

الصفويّة
التاريخ والصراع والرواسب
المسبار

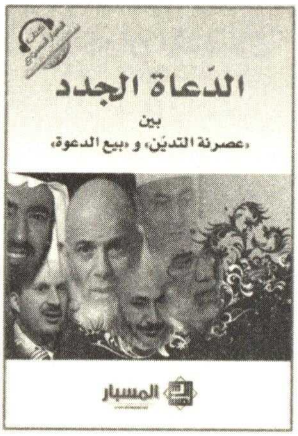
الدّعاة الجدد
بين
«عصرنة التديّن» و «بيع الدعوة»
المسبار

الحوثيون
سلاح الطائفة وولاءات السياسة
المسبار

السلفيّة الجهاديّة
دار الإسلام ودار الكفر
المسبار

الإسلام الأوروبي
صراع الهويّة والاندماج
المسبار

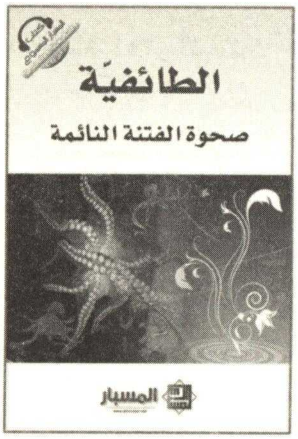
الطائفيّة
صحوة الفتنة النائمة
المسبار

صناعة المفتي
التعليم الديني
المسبار

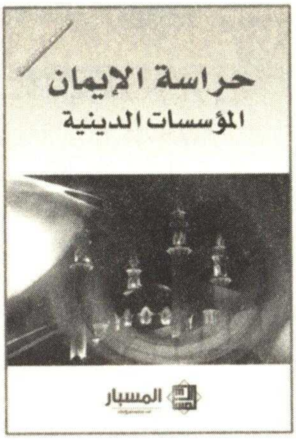
حراسة الإيمان
المؤسسات الدينية
المسبار

الإخوان المسلمون
والسلفيون في الخليج
المسبار

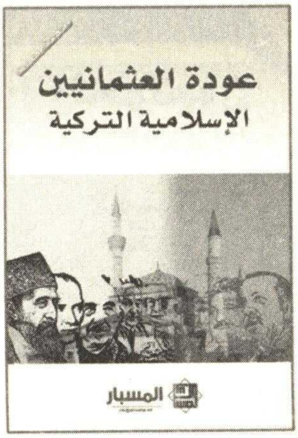
عودة العثمانيين
الإسلامية التركية
المسبار

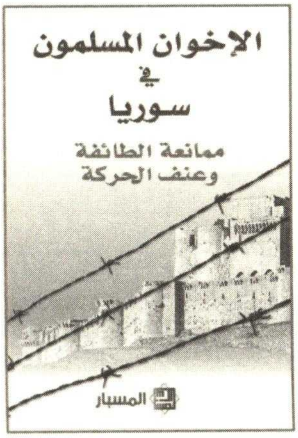
الإخوان المسلمون
في
سوريا
ممانعة الطائفة
وعنف الحركة
المسبار

من قبضة بن علي
إلى ثورة الياسمين
الإسلام السياسي في تونس
المسبار

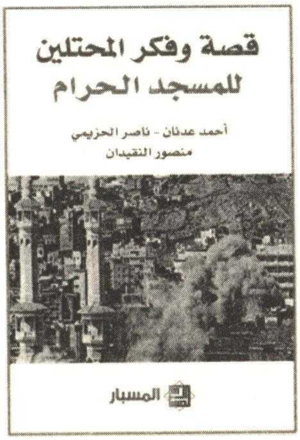
قصة وفكر المحتلين
للمسجد الحرام
أحمد عدنان - ناصر الحزيمي
منصور النقيدان
المسبار

رشيد الخيّون
100 عام من
الإسلام
السياسي
بـ العراق
1 الشيعة
المسبار

رشيد الخيّون
100 عام من
الإسلام
السياسي
بـ العراق
2 السنّة
المسبار

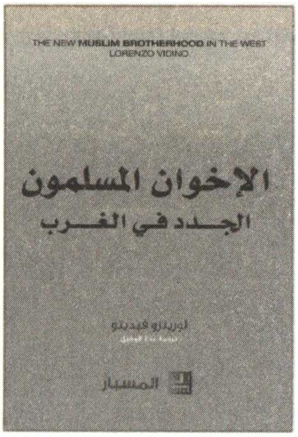
THE NEW MUSLIM BROTHERHOOD IN THE WEST
LORENZO VIDINO
الإخوان المسلمون
الجـدد فـي الغـرب
لورينزو فيدينو
المسبار

الطبعة 2
التصوف
في
السعودية
الخليج
المسبار

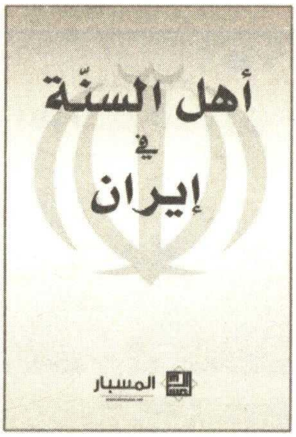
أهل السنّة
في
إيران
المسبار

مناكفة في بيت العدو
الحركة الإسلامية
في
إسرا ئيل
المسبار

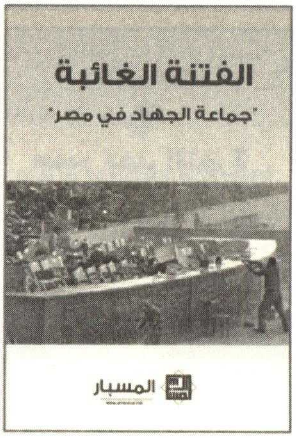
الفتنة الغائبة
"جماعة الجهاد في مصر"
المسبار

سُوّاح من أجل الدعوة
جماعة التبليغ
المسبار

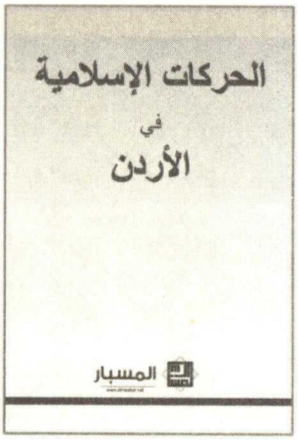
الحركات الإسلامية
في
الأردن
المسبار

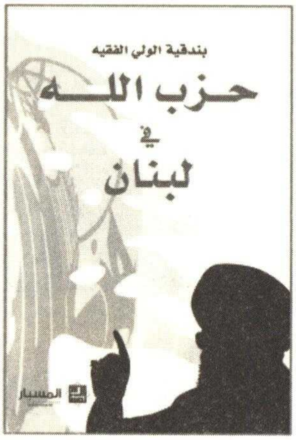
بندقية الولي الفقيه
حـزب اللـه
في
لبنان
المسبار

عقيدة الطاعة وتبديع المختلف
السلفية الجامية
المسبار

منصور النقيدان
الملوك المحتسبون
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية
(1927 - 2007)
المسبار

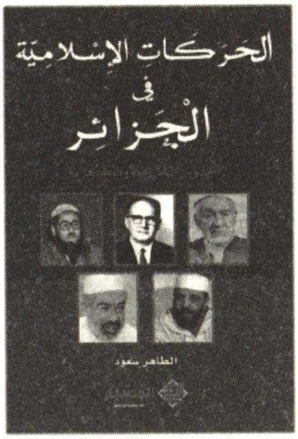
الحركات الإسلامية
في
الجزائر
الطاهر سعود

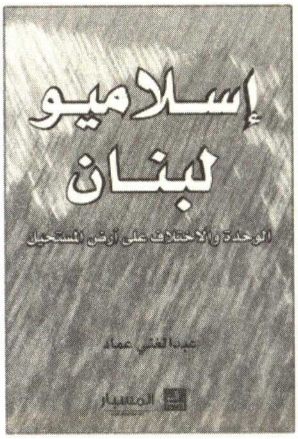
إسلاميو
لبنان
الوحدة والاختلاف على أرض المستحيل
عبدالغني عماد
المسبار

انقلاب الإسلاميين
أم
ثورة الياسمين؟!

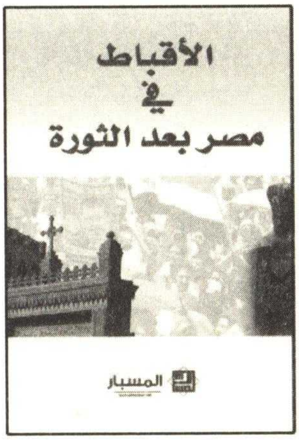
الأقباط
في
مصر بعد الثورة
المسبار

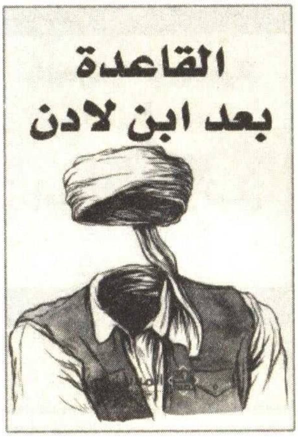
القاعدة
بعد ابن لادن

الحكومات الغربية
و
الإسلام السياسي
بعد 2011
المسبار

الإسلام النائم
التصوف في بلاد الشام
سوريا
المسبار

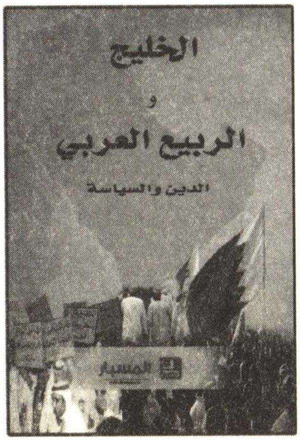
الخليج
و
الربيع العربي
الدين والسياسة
المسبار

مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

www.almesbar.net

المراسلات البريدية:

ص.ب. 333577

دبي، الإمارات العربية المتحدة

للاشتراك:

هاتف: 4774 380 4 971+

فاكس: 5977 380 4 971+

info@almesbar.net

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من الناشر

الطبعة 5

التصوف في السعودية والخليج

المسبار

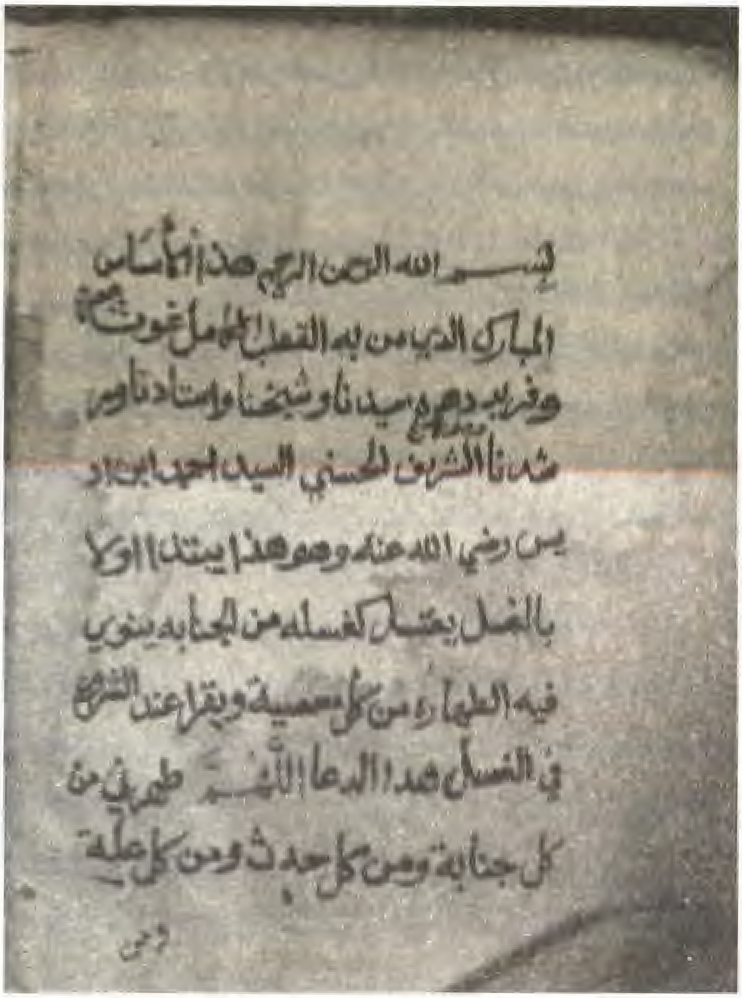

بسم الله الرحمن الرحيم هذا الأساس
المبارك الذي من به القطب الكامل غوث
وفريد دهره سيدنا وشيخنا واستادنا و
ممدنا الشريف الحسني السيد احمد ابن ادر
يس رضي الله عنه وهو هذا يبتدئ اولا
بالغسل يغتسل كغسله من الجنابة ينوي
فيه الطهارة من كل معصية ويقرا عند الشروع
في الغسل هذا الدعا اللهم طهرني من
كل جنابة ومن كل حدث ومن كل علة

الصفحة الأولى من مقدمة مخطوطة وطن امشط من السراة والبالغة 206 صفحات ضمن مكتبتي الخاصة، والتي يوجد أصلها لدى الأستاذ محمد طالع.

كان يقوم بها مفتي الشافعيّة في مكة العلاّمة محمد سعيد قدسي[5] ثم خلفه في ذلك ابنه الشيخ علي قدسي (ت: 1878م). وكان مقر زاوية سيدي أحمد البدوي بالجودرية، وزاوية سيدي علي البدوي بشِعب عامر أما ضريح الشيخ العادلي فكان بمحلّة الشاميّة.

كان المكيّون يتسلّكون في نهاية القرن التاسع عشر، في الطرق على أيدي مشاهير شيوخ الطرق، ومنهم من يحصل أن يشغلوا منصب علماء فقه بالمسجد الحرام. كانت الطريقة النقشبندية تُمنح من الشيخ محمد مطهر أو من الشيخ محمد الخاني الخالدي، والطريقة الخلوتية تُمنح من شيخها في مكة السيد أحمد نصر[6] و شيخها الآخر السيّد محمد بن علي الكناني[7] والطريقة الشاذلية تُمنح من السيّد إدريس بن سعد الظبياني أو محمد العربي، والطريقة الختميّة تُؤخذ من السادة الميرغنيّة.

وقبلهم اشتهرت زاوية الشيخ المكّي أبوسرير عند باب العمرة بالقرب من البازان. كانت الزوايا تُنشأ من قبل مشائخ يهبون حياتهم للتدريس في زوايا أو دور صغيرة يُنشؤونها، أمثال الشيخ عمر أبوسرير

---

(5) الشيخ محمد سعيد قُدسي الشافعي المكّي (غير معروف- 1846م): مُفتي الشافعية في مكة. ولد بمكة. أخذ الطريقة من الشيخ أحمد بن إدريس في مكة. ومن مشايخه في مكة: الشيخ عمر عبدالرسول العطار الحنفي، والشيخ محمد صالح الريّس. دُفن بالمعلاة.

(6) السيّد أحمد نصر بن أحمد علي الشافعي (1891-1820م). قدِم مكة عام 1848م، كان مُلازماً برواق باب إبراهيم.

(7) الشيخ محمد بن علي الكناني المكّي الشافعي (1891-1815م). من طُلاب الشيخ جمال شيخ من أوائل من عمل بالكُتب في باب السلام مع آل الباز. كان ذا ثراء. وترك ابناً، هو الشيخ محمد بن محمد الكناني. وهم أرحام بيت مرداد المكيّين.

الشجري المكّي، المتوفى في جدة عام 1629م، ويوجد له بها ضريح استحال مزاراً شهيراً.

وكان مُفتياً في مكة المكرمة مثل السيّد عبدالله بن صالح زواوي[8] يجمع بين مشيخة الإفتاء الشافعي، وهو أرفع منصب رسمي في الهرمية الفقهية التقليدية لمذهبه، وبين رئاسته لطريقة صوفية لها اعتبارها الروحي وأتباعها في المسلك.

ويذكر الرحالة الهولندي سنوك هورخرونيه[9] الذي مكث في مكة منذ عام 1884م، توزع الجاليات الاثنيّة في مكة بحسب الطُرق، فكانت الطريقة النقشبندية مثلاً شائعة بين حجاج وطُلاب التُرك والجاوة في مكة. كما شهد هوروخرونيّه إبان مكوثه بمكة عِراكاً بين الشيخ سليمان أفندي مع خليل باشا حول الظفر بلقب مشيخة المؤسسة النقشبندية في مكة.

---

(8) الشيخ عبدالله بن محمد صالح زواوي (1850 - 1924): مفتي الشافعية في مكة. تقلّد في عهد الشريف حسين منصب رئيس مجلس شورى الحجاز، ثم رئيس مجلس شيوخ الحجاز، ثم رئيس عين زبيدة. كانت حلقته بالحرم في الحصوة خلف باب بني شيبة، وكان درسه في التفسير، ومن أبرز طلابه ابنه عبدالرحمن زواوي، وحسني كتبي، والشيخ محمد علي التركي (من أهل عنيزة). أخذ أسانيد الشيخ السنوسي الكبير من والده الشيخ محمد صالح الزواوي.

(9) ترك سنوك هورخرونيه أحد أهم مصادر تاريخ مكة بالقرن التاسع عشر. وقد مكث سنوك (الذي تقمّص شخصية الحاج عبدالغفار) في مكة بين عامي 1884 و1885م. أما مدوّنته التاريخية المعنيّة فقد صدرت بعنوان: Mekka: In the Latter Part of The 19th Century by Cnouck Hurgronje.

ومن أشهر الزوايا في مكة في القرن التاسع عشر:

- زاوية السنوسي (سفح جبل أبي قبيس).
- زاوية النقشبندي (سفح جبل أبي قبيس).
- زاوية عبدالقادر الجيلاني (حي المُدعى). كانت تقع شرق المسجد الحرام من جهة المسعى ويُرجّح أنها وُقفت قبل عام 1664م، وهي سنة رحلة المؤرخ العياشي لمكة. كانت مُخصصة بدور وخلوات لسكن الفُقراء، ومُستلحَقة بأوقاف يصرف ريعها على أنشطتها.
- زاوية أبي بكر الصدّيق (حارة المسفلة). يُرجّح أنها وقفت قبل عام 1734م.
- زاوية الجنيد (الشبيكة).
- زاوية الرفاعي (سوق المعلا بالجهة الشمالية بجانب مقسم عين زبيدة)، وقد ذكرها السيّد أحمد زيني دحلان في سالنامة الحجاز.
- زاوية البدوي.
- زاوية الميرغنية (الهجلة بحارة الأغوات)، أسسها السيد محمد عثمان الميرغني(10).
- زاوية السمّان (في باب الزيادة)، وقد ذكرها الدحلان في سالنامة الحجاز.

---

(10) [العارف بالله] محمد عثمان ميرغني الشهير بالختم (1793 - 1852م). وُلد بمكة، وهو على مذهب الأحناف. كان شيخ الطريقة الميرغنية في مكة. درّس بالمسجد الحرام. ولازَم السيّد أحمد بن إدريس في مكة، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ثم تسلّك في طريقته الإدريسية. من تآليفه الصوفيّة: الأنوار المتراكمة وشرحها المُسمى فيوض البحور المتلاطمة، ومجموع صلوات: فتح الرسول ومفتاح بابه الدخول لمن أراد إليه الوصول.

- زاوية سيّدي الحداد (جياد)، وقد ذكرها الدحلان في سالنامة الحجاز.
- زاوية الشيخ بابقي (جبل أبي قبيس).
- زاوية الشيخ عبدالكبير (بالشبيكة تحت قبة العيدروس).
- زاوية المغاربة (حارة المسفلة وتُعرف برباط سيدنا عثمان).
- زاوية الشيخ مسافر (الشبيكة بجانب قهوة الحمّارة)، وقد جدّد هذه الزاوية سليم سلطان من تجّار مكة، وبنى فوقها كتّاباً في عام 1865م.
- زاوية القادري (بشعب عامر بسفح الجبل على يسار الذاهب الى المصافي).
- زواية السيّد علي البدوي المتوفي في مكة عام 1232هـ (أول شعب عامر قريب من سوق المعلا).
- زاوية القطبانية (أول المعابدة).
- زاوية أبوسرير (باب العمرة).
- قبر الشيخ محمود (جرول).
- مزار المساوي. (بمقابر الشبيكة)، فيها ضريح الشيخ علي المساوي المتوفي منذ عام 1583م.
- رباط السادة – رباط البصري (حي السوق الصغير بزُقاق الحُمُرة المُحاذي للشبيكة). استمد اسمه من اسم واقفه الإمام المُحدث عبدالله بن سالم البصري، أحد مُحدّثي الحجاز الثلاثة الكبار من أصحاب الأسانيد العالية، كما عُرف برباط السادة؛ لنزولهم فيه. وقد اشترط الواقف في وقفيّة رباطه أن يكون على

السادة آل باعلوي، فيما كان يلتصق بالرباط أوقاف البصري المشهورة.

- رباط الكوشك (حي المسفلة). وكان يحتوي على زوايا دراويش الأزبك القاطنين في مكة.
- كان انتشار الزوايا في تلك الحدود، يُشكل ظاهرة بارزة في مدن الحجاز، حيث كانت تفوق في أعدادها وتجهيزاتها المدارس، كونها كانت تقوم مقامها آنذاك، ناهيك عن أغراضها الروحية الأخرى.

أما في المدينة المنورة، نسبة إلى مخطوط **وصف المدينة المنورة في عام 1303هـ** [11] للشيخ علي بن موسى أفندي كانت من أشهر الزوايا الفاعلة في حدود عام 1885م :

- زاوية ابن علوان (بحارة ذروان).
- زاوية الشيخ الجنيد(وتتبع الشيخ الجنيد ومقرها حارة ديارالعشرة في دار أبي أيوب الأنصاري).
- زاوية السنوسي(العنبرية بالمناخة).
- زاوية الخِياري(البرابيخ).
- زاوية الدسوقي(زقاق الطيار).
- زاوية الرفاعي(زقاق البدور).

---

(11) علي بن موسى أفندي: لا يُعرَف تاريخ ولادته أو وفاته، ولكن السيّد عبيد مدني ذكر أنه كان حياً حتى سنة 1902م في رسالته وصف المدينة المنورة في عام 1303هـ - 1885م، المنشورضمن مجموعة في رسائل في تاريخ المدينة المنورة، التي عُني بنشرها وتحقيقها الشيخ حمد الجاسر، وطُبعت عام1972م.

- الزاوية السعدية (بالساحة).
- زاوية السمّان (وكانت بالدار التي كانت تقابل باب النساء من الحرم الشريف وفيهامحل غسل جنازة الصديق الأعظم، فيما يذهب الشيخ عبدالقدوس الأنصاري أن مقرها الأصلي كان فيما سبق دار ريطه بنت العباس).
- زاوية السيّد البدوي (وهي زاويةالسيّد أحمدالبدوي وكانت تجاه باب الرحمة).
- زاوية السيّد عبدالقادر الجيلاني (وهي للطريقة الجيلانية، ومقرها في سقيفة الأمير).
- زاوية شيخ المولوية (بالساحة).
- زاوية الصاوي (وهي للشيخ الصاوي ومقرها في زقاق المواليد بحارة الأغوات المعروف بزقاق رباط الشيخ مظهرالنقشبندي).
- زاوية القُشاشي (بزقاق القشاشي المتفرع من زقاق الطيار).
- زاوية الشيخ عبدالباقي عاشور (ومقرها في سوق القفاصة، وكانت مُخصصة لتدريس طلاب العلم المُجاورين).
- زاوية المحضار (مقرها باب قباء).
- زاوية الشاذلية (وهي مجموعة من الزوايا لصغيرة حول المسجد النبوي).
- زاوية الدندراوي (باب المجيدي).
- الزاوية التيجانية (باب المجيدي).
- زاوية الطريقة النقشبنديّة (ومقرها في بُضاعة).

وفي جدة يذكر الشيخ أحمد الحضراوي في **الجواهر المعدّة** أسماء زوايا جدة التي صادفها: زاوية السادة الشاذلية (حارة اليمن) التي بُنيت عام 1882م، وراء القشلة من جهة البحر، وزاوية السنوسي، وزاوية الآسنوي (حارة اليمن)، وزاوية الميرغني (حارة اليمن).

وكان في جدة أيضا:زواية السيّد البدوي في محلة المظلوم قرب سوق الجامع، و"كانت تُعلّق فيها مسبحة من الخشب كبيرة، حجم حباتها مثل حجم البيضة وكان يُدَّعى أنها المسبحة التي كان يستخدمها السيّد البدوي للذكر، كما كانت هناك جبّة خضراء وعمامة عظيمة، وغيرها"[12]. وكان هناك في حارة المظلوم زاوية أخرى للطريقة القادرية، وفي حارة الشام زاوية للطريقة الجيلانية، وفي العيدروس قريباً من مستشفى جدة الحكومي العام زاوية العيدروس. كما كان في جدة الزاوية السمّانية التي بناها أحد سلاطين أندونيسيا.

واشتهرت في جدة، كباقي مدن الشرق، مزارات الأولياء الصالحين، فكان هناك مزار الشيخ العلوي (بباب مكة)، ومزار الشيخ أبوسرير حيث يسجّى ضريحه بزواية معروفة في آخر سوق الندى، ومزار الشيخ أبوحّنة، ومقام للشيخ أبوعُنبة، ناهيك عن الضريح الأشهر للإمام المعروف بالمظلوم.

---

(12) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز، ص 324.

وفي الطائف يذكر حسن العجيمي في مخطوط **إهداء اللطائف من تاريخ الطائف**، الزوايا التاريخية التالية:

- قبر زيد بن ثابت (بالجبانة) خارج المسجد "اشتهر عندهم بقبر صاحب الراية وهو مشهور البركة".
- قبر الشيخ [العارف بالله] سيدي أبي العباس أحمد بن علي الميورقي من ناحية الباب الشرقي من مسجد سيدنا عبدالله بن عباس.
- زاوية السيّد الولي أحد سادات اليمن وهو بالقرب من بستان الرقبة.
- ضريح السيد الهادي اليمني بقرية الهضبة. المتوفى في حدود 1640م.

ولم تكن ظاهرة الزوايا، وانتشار الوازع الصوفي حصراً على التجمعات الحضرية أو جماعات الأهالي في الحجاز.

لقد لاحظ هورخرونيه أن الطريقة التي تجد احتراماً شديداً في المُدن الحجازية، وكانت تجري فيها بالتوازي مع سلطة التعاليم الدينية الأساسية – كانت في المقابل لدى بطون قبائل حرب وباقي القبائل البدوية بالحجاز تنفرد بالسلطة الروحية. حيث طبيعة البدوي التي تأنف من التعاليم الدينية الصارمة، فيجد مقابل ذلك في الطريقة السنوسية سلوى، حيث طلبُ "الشفاعة السنوسية لدى رجال قبيلة حرب هو الخلاص الروحي من الأوحال والذنوب الدنيوية، وهذا يتم فقط بالاعتراف بممثلي

الشيخ السنوسي في بلاد حرب". ولما كانت السنوسية تحظى باحترام شديد عند أبناء قبيلة حرب، وعلى الرغم من وعورة وخطورة السفر عبر أراضي الحجاز، كان "موكبهم السنوي المُسمى (ركب الإخوان) يسير سنوياً بسلامة من مكة الى المدينة دون أي حوادث اعتداء"(13).

والشيخ فالح الظاهري المهنّوي (1840-1910م)، من عرب الظواهر، من أهل بدر، لما سمع عمه أمير الحرب في طريق المدينة الشيخ عباس بن أحمد الظاهري، بوجود [العارف بالله] الشيخ محمد بن علي السنوسي بالمدينة المنورة عند زواية العنبرية، اجتمع به في العاشر من سبتمبر 1852م وأودع ابن أخيه بزاويته. ولازم الشيخ فالح شيخه السنوسي الكبير حضراً وسفراً طيلة سبع سنوات، وحج معه ثلاث حجات، حتى ألبسه الخِرقة، وسمّع عليه الكتب الستة، وسمّع عليه الحديث المُسلسل بالأولية(14).

وكان لابن إدريس (شيخ الطريقة الإدريسية) مسجدٌ في حي المعابدة، سُميّ باسمه بعد رحيله عن مكة في 1827م، وكان أحد مريديه يُسمى محمد شاويش [النفيعي]، ينتمي الى قبيلة عتيبة، يدير ذلك المسجد، وقد تسلمت عائلته من بعده مهمة إدارة المسجد، حتى سُمي لاحقاً على اسمهم: مسجد الشوشان.

---

(13) سنوك هورخرونيه، ص56.

(14) التحق الشيخ فالح فيما بعد بالحركة السنوسية في المغرب، وتزوج بواحة الجغبوب، ثم رجع إلى مكة سنة 1888م نزيلاً عند الشريف عون الرفيق، مدة ثلاث سنوات،ثم رجع إلى المدينة المنورة سنة 1891م، ودُفن بها عام 1910م. (الترجمة: من الدليل المشير للحِبشي، ص 325). ولفالح بن محمد الظاهري المهنوي ثبت بعنوان حسن الوفا لإخوان الصفا، نشره وعلّق عليه وصححه الشيخ محمد ياسين فاداني.

كانت الزاوية مدرسة دينية ودارا مجانية للضيافة والمكوث. حيث يذكر قومندان حرس المحمل المصري عام 1901م، وأمير الحج أعوام 1903 و1904 و1908، شرحاً ضافياً في كتابه مرآة الحرمين لدور الزاوية التي وجدها في الحجاز: "هذه الزوايا تؤدَى بهاالصلوات الخمس جماعة بعدالآذان له و الإقامة، و يُقرأ في الصباح نصف جزء من القرآن وبعد الغروب يقرأ مثله وفي كل زاوية مكتب لتعليم القرآن، وفي الزوايا بساتين تحوي النخيل والعنب والتين، وأحسنها نخلة النجيلة، ولكل زاوية شيخ يكرم من مر بها من غني أوفقير و مصدر المال الذي عند الشيوخ من زكاة الإبل والغنم والحبوب الخ..التي يقدمها العُربان للزوايا اختيارياً لأنه حق شرعي"(15).

وانفسح في طول الحجاز عقد الزوايا السنوسية حتى وصل إلى بضع وعشرين زاوية مطردة يرجع لها أتباع كُثر، كان لها تأثير شديد في الحياة العامة في الحجاز، كما لعبت بالقدر ذاته دوراً جوهرياً في وحدة الثقافة والتجارة الحِرَفية وتدفقات البشر بين مراكز الحجاز وبقية المراكز في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي، طيلة مسار القرن التاسع عشر وأجزاء من القرن العشرين.

كانت مُنشآت الزوايا السنوسية، ذات الهندسة المُتقنة والساحرة، تشي بتنظيم شديد الفراسة،وملائة مالية ووقفية متينة. لاحظ الحضراوي،

---

(15) إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين،ص382.

تميّز معمار وهندسة الزاوية السنوسية بجدة، دون غيرها من الزوايا وكانت ملاحظته تنسجم مع باقي شواهد المنشآت المتناثرة على شريط الساحل الحجازي.

كان الحجاز، مُنطلَق الحركة السنوسية، منذ عام 1828م، لمركزيّته الدينية والعلميّة وموقعه الإستراتيجي الذي يجمع علماء وقيادات الهند بالمغرب. واختيرت مواقع الزوايا بعناية شديدة مدفوعة بأهداف سياسية ودعائية واضحة – تركت تأثيرها العميق في الثقافة والوجدان الحجازي.

كانت الزوايا تحتفل بعدة مواسم اعتاد الأهالي الاحتفال بها- هي من صميم الثقافة الحجازية.مثل: ليلة النصف من شعبان وليلة القدر، والإسراء والمعراج، وغيرها،علاوة على أيام خاصة بالطرق نفسها. وفي عام 1678م أمر قاضي مكة كوكبي زاده أصحاب الزوايا بضرب الدفوف، والخروج بالزفاف على ما جرت به العادة والقانون إلى المولد الشريف بعد منعٍ سابق[16].

يصف محمد علي مغربي طبيعة تلك الاحتفالات التي استمر قيامها إلى عهود متأخرة:

---

(16) الطبري، إتحاف فضلاء الزمن (2 / 119).

"وكانت لهذه الاحتفالات شنّة ورنّة تذبح فيها الذبائح وتمد فيها موائد الطعام الكثيرة وتوزع فيها الحلوى ويمارس فيها شيخ الطريقة وأتباعه أسلوب طريقتهم، وتتخللها الأغاني التي ينشدها المنشدون وتسير فيها مواكب كبيرة يتقدمها شيخ الطريقة وأتباعه، ويشترك فيها الدهماء، والأطفال، وهم يغنُّون مايعتبرونه ذكراً، وفي مثل هذه التجمعات قد يحدث من المساوئ مايبرأ منه الذكر الصحيح، وما لايرضاه الخلق القويم"(17)

وإن من هذه الزوايا ماأُنشئ للتربية الروحية للحياة الصوفية، كزوايا الصوفيين الذين ينقطعون فيها للعبادة، ومنها ما أنشئ لهدف تعليمي، ويغلب على ذلك زوايا العُلماء الفحول، وساعدهم على ذلك أن بعض زواياهم كانت تُستلحق بدور وخلوات ومرافق حضرية ومكتبات كبيرة.. مما جعلها مقصداً لطلاب العلم والمريدين والأتباع.

-الظاهرة السنوسية في الحجاز:

الحركة السنوسية حركة إصلاحية انطلقت من الحجاز، تعود فترة زهوها في الحجاز إلى ما بين 1828م إلى عام 1918م.

وحين عزم السنوسي تشييد باكورة زواياه بسفح جبل أبي قبيس، جُوبه بممانعة لأن الموقع الذي اختاره يرتفع مقدار طابق واحد أعلى من بناء الكعبة، لكنه مالبث أن أقنع الشريف المحلي، حتى أنه عرض عليه المساعدة فى البناء، ولكن ابن السنوسي اكتفى بالاعتذار المتقدم والإذن له

(17) محمد علي مغربي، مصدر سابق،ص 324.

فقط بالبناء.. هذه القصة ساهمت في تعزيز هالة القداسة التى أحاطت بانطلاق الحركة منذ بواكيرها. لقد بدأ بناء زاوية أبي قبيس الاستفتاحيّة في نهاية 1242هـ (الموافق 1827م)، وخُلص منه بعد عام من ذلك - أي في حدود عام 1828م[18].

كان محمد بن علي السنوسي (1787 - 1859م)، مؤسس الحركة السنوسية، قد اتصل بالحجاز بدءاً من عام 1825م، وهو ابن السادسة والثلاثين ربيعاً. ومكث فيه زهاء خمسة عشر عاماً (كانت هي فترته الأولى). درس فيها السنوسي على يد قاضي الأحناف في مكة ومفتيها آنذاك الشيخ عبدالحفيظ بن درويش العجيمي الذي أخذ منه الإجازة والأسانيد العالية، وقرأ عليه صحيح البُخاري وموطأ مالك، وكان العجيمي يُلقّب في مكة بأبي حنيفة الصغير. كما درس السنوسي على يد الشيخ المكّي عمر بن عبدالكريم بن عبدالرسول العطار، ومفتي الشافعيّة في مكة الشيخ محمد صالح الريّس.

وفي مكة التقى السنوسي بمُرشده الأول [العارف بالله] أحمد ابن إدريس، الذي أخذ منه الحديث والسُّنة وأسانيد الطريقة الصوفية الإدريسية [كانت تُسمى: المحمدية الأحمدية]، ولم يستغرق الانضمام إليه

---

(18) تعيد بعض المصادر تاريخ انطلاق السنوسية إلى تاريخ 1837م، وهو ذات العام الذي تعده أيضاً تاريخاً لافتتاح زاوية أبي قبيس، وهذا غير دقيق، فالزاوية افتتحت في منتصف عام 1828م، لكنها بعد وفاة ابن إدريس في أكتوبر 1837م بصبيا، انفردت بمركزية احتضان الطريقة السنوسية. وكان عدد من طلاب ابن إدريس قد اختلفوا بعيد وفاته حول خلافته التي آلت للسنوسي، فخرج بعض الطلاب وأنشئوا طُرقهم الخاصة، مثل محمد عثمان الميرغني من أهل مكة الذي أسس الميرغنية وانتقل بها إلى السودان، والرشيدية التي أسسها إبراهيم الرشيد وهو من أهل السودان (وكان خليفته الدندراوي مؤسس الطريقة الدندراوية).

أكثر من خمسة عشر يوماً ليعتبر الأخير أن السنوسي هو "نائبه"، ويصدر إقراراً يقضي بخلافته له في إعطاء العهود وتلقين الذكر. حتى إن ابن إدريس قال للسنوسي وقتها، كما يذكر حفيده أحمد الشريف: "أنت نحن ونحن أنت"(19).

وفي مكة تسلّك السنوسي الطريقة الخلوتية والعويسية من شيخه عبدالحفيظ العجيمي، وتسلّك الطريقة النقشبندية والقادرية من عبدالله شاه، أما السهروردية فتسلّكها من كلٍّ من مُعلمه ابن إدريس وعبدالله شاه. والسنوسي اتصل بالأسانيد العالية لعلماء الحجاز الكبار. ابراهيم الكوراني (توفي 1697م)، حسن العجيمي (توفي 1701م)، وصالح الفلاني(20) (توفي 1803م)، وهو كثيراً ما يذكر الفلاني والكوراني في مؤلفاته ومن المثير أن نرى أن كليهما كان مُهتمّا بقضية الاجتهاد.. تماماًمثل السنوسي، وقبله شيخه ابن إدريس.

وابن إدريس هو قاعدة مشروع السنوسي الإصلاحي الكبير. أخذ منه السنوسي مناولةً في بطحاء مكة وكان من مرافقيه بعد أن طُلب من ابن إدريس مغادرة مكة بعيد دعوته إلى فتح باب الاجتهاد وإلغاء التقليد المذهبي، منفياً مع أعوانه إلى صبيا عسير عام 1827م، حيث لازمه على فترات متقطعة انتهت بوفاة ابن إدريس في أكتوبر عام 1837م. وقد روى

---

(19) أحمد الشريف، الأنوار، ص 68.

(20) صالح الفلاني ثم المدني (توفي 1803م): من سادات علماء الحجاز. المشهور بالإسناد العالي. كان يجيز الأحاديث، ويمنح اجازة مكتوبة بخط يده. له ثبت أسماه (قطف الثمر في أسانيد المصنفات في الفنون والأثر) وآخر أكبر اسمه الثمار اليانع. يروي مؤلفات [العارف بالله] الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي، ودلائل الخيرات عن الشيخ أحمد النخلي. (المصدر: من ثبت الكزبري للفاداني).

عن شيخه أحمد بن إدريس وهو في بندر الليث في منتصف طريقه إلى صبيا منفياً قوله "بوجود ابن السنوسى بمكة ما كأننا فارقناها".

لقد أطلق السنوسي دعوته الإصلاحية من مكة المكرمة إبان مكوثه الأول طيلة خمسة عشر عاماً حشد خلالها الأتباع والإخوان والمريدين، ولكنه أخفق في إنشاء دولته على أراضي الحجاز، مُكتفياً بدولته التي أنشأها في برقة بليبيا.

والحقيقة أن كلاً من الحركة الوهابية في نجد، والحركة السنوسية في الحجاز، تقاطعتا في عدد من السمات، منها الموقف المناهض للمركزيّة العُثمانية، وطابع النزعة الإصلاحية إزاء تطبيق المُعتقد "الصحيح" وبث الأخلاق "الحميدة"، وفي تطويع القبائل البدويّة وتوطينها في هِجَر زراعية [زوايا في الحالة السنوسية]، وفي ذات تنظيم الإخوان الحركي وحث أبناء القبائل على الجهاد.. ولكنهما اختلفتا في تسامح السنوسية مع قبور الأولياء والاندراج في طقس طُرقي، كما أن السنوسية لم تلجأ إلى فصل الإمارة عن الإمامة، كما فعل محمد عبدالوهاب الذي تحالف مع أمير الدرعية محمد بن سعود. فيما الحالة السنوسية دمجت كلاً من الإمارة والإمامة في شخص السنوسي الكبير.

وبعد وفاة ابن إدريس، صعد زخم زاوية أبى قبيس، وأضحت مقصداً للعُلماء ومركزاً وقاعدة للحركة السنوسية بالحجاز.

واستطاع السنوسي أن يبرم الخيط على طول الساحل الحجازي، وأن يُنظّم عقد الزَوايا فيه. يقول بريتشارد: "من المفيد جداً أن نشير إلى أن السنوسية نالت مقاما رفيعا في الجزء الغربي من جزيرةالعرب"(21).

واضطر السنوسي للرحيل عن مكة إلى برقة في 1841م، تاركاً خلفه معاونه عبدالله التواتي قيّماً على زاوية أبي قبيس.

وحين عاد السنوسي إلى الحجاز في المرة التالية، مكث به ثماني سنوات حفلت بنشاط حركي واسع استهدف خلاله أبناء قبائل حرب وبني حارث، والحجاج المارين بدروب الحج. فأسس زوايا عَدَا تلك التي في أبي قبيس والمناطق الحضرية، في أنحاء قبائل الشمال.

ويلاحظ هورخرونيه: "أما في مقاطعات الحجاز التي تسكنها قبائل"حرب"وغيرهامن الأعراب فإن السنوسية تحظى بأرفع التقدير، نظراً لأن دعوتها العمليّة قد نجحت إلى حد بعيد في أن تجلب أبناء الصحراء الذين ينفرون من كل سلطة كما أنهم بعيدون جداً عن الإسلام الصحيح، وضمتهم تحت زعامتها"(22).

لقدكانت الزواياالسنوسية في واقعها كمايقول بريتشارد: "مدارس، ومحطات قوافل، ومراكزتجارية، ومراكز اجتماعية، وحصوناً،

---

(21) ايفانز بريتشارد، سنوسيو برقة، مصدر باللغة الانجليزية.

(22) هوروخرنيه، ص56.

ومحاكم، ومصارف نقدية، ومستودعات، ومأوى للفقراء، ومواطن حمى ومدافن، كل ذلك أدى إلى كونها قنوات يسير فيها نهر البركة الربانية"[23].

ووصلت الزوايا السنوسية في الحجاز إلى بضع وعشرين زاوية (ثمانية منها أُنشئت في حياة السنوسي الكبير)، أشهرها :

1. زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة، وهي أول الزوايا السنوسية على الإطلاق، تأسست عام 1828م مُلحقَة بمسجد ومدرسة للتعليم ومساكن لقبول الطلاب الزائرين والمسافرين. وكان أول شيخ لها العلاّمة عبدالله التواتي، ثم بعد مقتله، عُيّن السادة: مصطفى الغماري، حامد غانم المكاوي، علي حامد، الشارف حامد، الصادق السنوسي حامد؛ على التوالي.
2. زاوية الطائف. ثاني الزوايا التي أسسها السنوسي (في عام 1836م)، وقد بناها أيضاً في مكان مرتفع على سفح جبل ابن منديل، تأسياً بنمط بناء زاوية أبي قبيس، وعيّن عليها محمد بن صادق البكري من أهل الطائف[24]. وسُميّت الزاوية فيما بعد مسجد الريع، أو مسجد الطرابلسي.
3. زاوية المدينة المنورة، مقرها في العنبرية بالمناخة أنشئت عام 1849م، وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الشفيع، ومن بين من تولى مشيختها، العلامة مصطفى الغماري، ومحمد عبدالله الزاوي، وعبدالسلام فركاش.

---

(23) ايفانز بريتشارد، سنوسيو برقة، مصدر باللغة الانجليزية

(24) لاحقاً اقترب البكري كثيراً من السنوسي ورافقه إلى برقة، وتزعم زاوية جديد في تونس، وقام بالنيابة عن السنوسي في الاتصال بالمقاومة الجزائرية للاستعمار.

4. زاوية جدة.
5. زاوية ينبع النخل. بقرية السويق.
6. زاوية ينبع البحر.
7. زاوية بدر. أنحاء المدينة.
8. زاوية الحمراء. أنحاء المدينة.
9. زاوية العيص. أنحاء المدينة.
10. زاوية وادي الصفراء. أنحاء المدينة.
11. زاوية منى. أنحاء مكة.
12. زاوية جُعرانة. أنحاء مكة.
13. زاوية رابغ. ساحل الحجاز.
14. زاوية الليث. ساحل الحجاز.
15. زاوية أُملج. ساحل الحجاز الشمالي.
16. زاوية ضبا. ساحل الحجاز الشمالي.
17. زاوية الوجه. ساحل الحجاز الشمالي.
18. زاوية الفارعة. شمال الحجاز. أنحاء تبوك.
19. زواية صمد المفالحة. أنحاء وادي فاطمة
20. زاوية الجموم. أنحاء وادي فاطمة.
21. زاوية الهنيّة. أنحاء وادي فاطمة.

كان السنوسي في عودته الثانية إلى الحجاز كمن يريد البقاء أبداً. كان يقصد بنفسه زواية أبي قبيس ليُدرّس الطلاب الفقه المالكي والطريقة.. وهي ذات الفترة التي ألّف خلالها عدداً من الكتب منها كتابه

بغية المقاصد وخلاصة الراصد المسمى بالمسائل العشرة (1847م)، ورسالة كتبت لمقدمة كتاب **موطأ الإمام مالك** (1850م).

ولكنه بعد إلحاح زعماء برقة الذين صاروا يبعثون الوفود تلو الأخرى حثاً له للرجوع إلى ليبيا، رتّب الأمور بالحجاز بعناية، وعيّن مشائخ للزوايا وزوّدهم بما رآه، وحثّهم على سلوك طريقته في إرشاد العباد، وأناب عنه في زاوية أبي قبيس الشيخ محمد إبراهيم الغماري، وأبقى ابنيه (محمد المهدي، ومحمد الشريف) ووالدتهم وجدّهم في مكة، وأمرَ محمد الغماري، وأحمد البقالي بتعليمهم والاعتناء بهم (1858م).

وللسنوسيّة بُنيتها المعرفية ورموزها الحركية، وقد حظيت في الحجاز بتنظيم هرمي رفيع، وبناء تنظيمي صارم، يعلوه رئيس جماعة، ويرافقه مجلس خواص الإخوان (شورى)، وشيوخ زوايا، وطبقة من الإخوان مهتهم التجنيد للحركة.. ناهيك عن فرق رفيعة للاستخبارات والاتصال والنيابة.

لقد جهر ابن السنوسي بتصوفه ناهيك عن أنه أخذ عن جل علماء المتصوفة في ذلك الوقت وتلقى معظم أسانيد طرقهم، ولكنه كما يقول الدجاني عنه، أنه أكسب "صوفيته طابع السنة ولجمها بحدود الشرع وأكسب فقهه طابع الروحيّة المتألقة"[25]. كما أن كُثرا اعتبروا مُعلمه (ابن

(25) أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية.

إدريس)، بمثابة صوفي مُجدد (Neo-Sufi) لتنقيحه الطقوس الصوفية من كثير من الممارسات التي علقت بها - والسنوسي بطبيعة الحال سار على خُطاه.

لقد اكتسبت الطريقة السنوسية احتراماً شديداً في الوعي الجمعي الحجازي، وقد لاحظ هوروخرنيه في زيارته لمكة عام 1884م، أن السنوسية تحظى باحترام عميق بين الأهالي، إلى درجة أنها كانت تحتفل بمرور حَوْل على وفاته في تقليد سنوي، حتى بعد ثلاثين عاماً من رحيله[26]، وحينما أطلق الشريف حسين بن علي ثورته العربية الكُبرى عام 1916م، اتخذ من شكل معمار زاوية السنوسي بأبي قبيس شعاراً لدولته الجديدة[27]، إما تفاؤلاً أو خشوعاً أو حتى التماساً للشعبيّة. والطريف أن الإخوان "الوهابيون"، حين دخلوا مكة، بعد كسوف عهد الشريف حسين، كان من أول أعمالهم، تخريب سقف مسجد أبي قبيس في 10 نوفمبر 1924م[28] ربما إعلاناً عن عهد جديد.

---

(26) هورخرونيه، ص55.

(27) محمد عمر رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ص267.

(28) الغازي، إفادة لأنام، 4 / 617.

- داخل المؤثرات الصوفيّة مع الموروث الاجتماعي لمنطقة الحجاز:

تحضر المؤثرات الصوفية بشكل بارز –وعفوي- في الاحتفالات والعادات الشعبية الخاصة بمنطقة الحجاز، كان احتفال المولد ينعقد في مكة بشيء من التقليد الشعبي الراسخ:

في ظهر يوم الحادي عشر تُطلق المدافع إعلاناً لهذه المناسبة، ومع صلاة المغرب التي هي بداية اليوم الثاني عشرمن ربيع الأول يبدأ تجمع الناس بأعداد خيالية وتأتي النساء بملابس العيد في كامل الزينة وكذا الأطفال، فيحدث في ساحة المسجد [الحرام] الكثيرمن الصخب، وتوزع الحلوى حتى في المسجد، وبعد الانتهاء من صلاة المغرب تُضاء المصابيح في المسجد بأعداد متدفقة ويبقى الجمهور بعد ذلك قرابة نصف ساعة في حركة دائمة يُحيي بعضهم بعضاً، والقليل منهم يستمع إلى الإمام يتلو قصة المولد حيث يكون في مكان الصدارة شريف مكة والوالي العثماني مع حاشيتهما. وحينما تنتهي قراءة المولد يحصل هرج كبير داخل المسجد فالكل يريدأن يرى الشريف ورجاله حيث يمشون بخطى وئيدة ويحملون القناديل المضيئة عبر أسواق القُشاشية وسوق الليل إلى بنايةالقبة في الشعب (شِعب علي) حيث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النور لأول مرة.

وأمام هذا الموكب يسير "الريّس" وهو كبيرالمؤذنين ينشد المدائح النبوية، وعند الوصول إلى مكان الميلاد النبوي يدخل هذاالحشد إلى مكان المولد حيث وضعت هناك قبة، حتى أن من بنى القبة عيّن موقع إهلاله حين الولادة وجعل مكانه نقرة مجملة بالمرمر يطيّبها السادن، فيأتي الزوار يلمسونها بأكفهم تبركاً ويقرؤون الفاتحة وبجوار موضع المولد مكان يكون فيه بعض الدراويش من أهل الطرق الصوفية يقرؤون المولد ويقيمون حلقة الذكروالرقص، ويقرؤون شيئاً من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تقام صلاةالجماعة. وخلال الليل تقام حفلات السمر في حين يقوم المتصوفة بتكوين حلقات يرددون فيها بصورة جماعية قصائد"البردة" و"الهمزيّة" وأشعارالمديح الأخرى[29].

فيما يتقدم شاب حسن الصوت فينشد الأشعار ويترنم بالمدائح وهم يرددون معه بعض الصلوات، نحو:

"صلى عليك الله ياعلم الهدى ماحنّ مشتاق إلى لقياك"،

ثم يقرأ قصة المولد حتى إذا بلغ: "وولدته آمنة مختوناً" قام الجميع إجلالاً وتعظيماً، ووقفوا دقائق في إجلال وإكبار تخيلاً منهم وضع آمنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يؤتى بالمجامر وطيب البخور فيتطيب الكل، ثم تدار كؤوس المشروبات من"شربيت"وغيرها، ثم تقدم قصاع الطعام فيأكلون وينصرفون.

(29) هورخرونيه، ص 47 - 48.

ومن الأهلين (أي الأهالي) من يقيم في بيته تلك الليلة أويومها حفلة يدعو إليهامن يريد من أصدقائه، وعندما يتكامل جمعهم، يقرأ أحدهم قصة المولد، وأكثرالقصص، قراءة وتلاوة، القصة التي رتبها كبير بيت البرزنجي[30] من علماء المدينة النبوية وهي قصة مسجوعة، وعند ذكر إهلاله في القصة يقوم الجميع وقوفاً، يرتلون كلمات الترحيب: "مرحباً يامرحبا جد الحسين مرحبا يانورعيني". ثم تُمد الموائد بما تهيأ من طعام، وينصرف بعد ذلك كل إلى شأنه[31].

أما في المدينة المنورة، فكان المولد النبوي في العهد العثماني يُعمَل بتقاليد بروتوكولية ذات ترتيب مختلف. فبعد طلوع الشمس صبيحة الثاني عشر من ربيع الأول يقوم أربعة من الأئمة في صحن الحرم الشريف فيرقى الأول على الكرسي المخصوص للقراءة، ويقرأ الحديث وينزل بعد أن يدعو للسلطان ثم يرقى الثاني فيقرأ عن المولد والولادة ويدعو وينزل، ثم يرقى الثالث ويقرأ الرضاع، ثم يدعو وينزل، ثم يرقى الرابع ويقرأ الهجرة ويدعو وينزل وينصرف الجميع بعد أن يشربوا "الشربيت" ويأخذوا "الحلاوةاللوزية"[32].

---

(30) مولد النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر البرزنجي طُبع أول مرة عام 1301هـ، وله بغية العوام في شرح مولد سيد الأنام.وجاء في قصيدة البرزنجي:

وقد سن أهل العلم والفضل والتقى ... قياماًعلى الأقدام مع حسن إمعان

بتشخيص ذات المصطفى وهو حاضر ... بأي مقام فيه يذكر بالدان

(31) محمد عمر رفيع، مصدر سابق، ص124.

(32) ابن موسى، رسائل في تاريخ المدينة.

إن طقس المولد، مثله مثل الزيارة الرجبية والشعبنة والاحتفال بليلةالمعراج – طقوس اجتماعية خاصة بالثقافة الحجازية أكثر من كونها تعاليم مذهبية تتبع مرجعية تقليدية.

كان أهالي مُدن الحجاز، يخرجون في جماعات كبيرة في مواسم الزيارة، شهر رجب، وينخرطون في تجمع يُسمى "رَكَبْ"، وكان كل ركب من جدة أو مكة يصطحب مُنشداً -أو مُزهداً- ينشدُ في الطريق المدائح النبويّة، مثل الهمزية، والبردة للبوصيري. وكان في كل مُدن الحجاز إلى بدايات العهد السعودي عادة "الترحيم والتذكير"، وصفة الترحيم أن يصعد المؤذن إلى أعلى المنارة العالية فيطلق صوته في جوف الليل قائلاً: "يا أرحم الراحمين ارحمنا" .. أما التذكير فهو نوع من الإنشاد الديني الرياضي الذي يحتوي على أسماء الله وصفاته العليا، يُذكرّ بها الغافلون السادرون في دنياهم، ويكون في أكثر ليالي الجُمع والأعياد، والمناسبات الدينية.

-تحولات الذهنية في الحجاز:

كانت البنية المعرفية في الحجاز تشهد مع بداية القرن العشرين عملية تحوّل قيمي من داخلها.

كان الشبان الحجازيون الذين تلقوا تعليماً حديثاً في الخارج، أو أولئك الذين نشئوا على صيحات النهضة العربية الكبرى في مكة، قد بدأوا

في تشكيل موقف مستقل من التاريخ، وشرعوا في التماس دروب المدنيّة، واقتباس روح العصر.

كان شابٌ حجازي من رواد النهضة، هو عبدالرؤوف صبان، يُعبر عن ذلك الصعود في الوعي بين شبان الحجاز. لقد ابتُعث الصبان، الذي يتحدر من أبرز عوائل مكة التجارية، إلى مصر في بعثة الخديوي عباس منذ سنة 1909م، وتخرّج من دار العلوم المرموقة، وحين عاد "كان ثائراً على ما تحفل به حياة المجتمع إذ ذاك من الخُرافات نتيجة التأخر والجمود"[33].. كان وهو يقضي الأماسيّ في مجلسه بدار الشيخ محمد حسين نصيف يتعرضان للمواكب الخاصة بمشايخ الطرق ومريديهم يسفهون آراءهم ويحصّبونهم بالحجارة.

ولم يكن الصبان سلفياً كصنوه النصيف، حيث عُرف بتصوفه "البلدي" البسيط الناقد لمظاهر الدروشة والغلو الطرقي.

يقول عمر عبدالجبار عن الصبان، إنه التقاه مرة "عند بئرزمزم بجبته القصيرة وعمته البيضاء ومسواكه الطويل متأبطاً محفظته وسجادته وبيده مسبحته المئوية الطويلة وكان من طلاب الشيخ محمديوسف خياط فنشأ صالحا تقيّاً متصوفاً"[34] ومن ناحيته يُعدد الشاعر الثائر محمد حسن عواد، في إضمامة **أدب الحجاز** (صدرت عام 1925م)، صفات

---

(33) مغربي، مصدر سابق ص323.

(34) عمر عبدالجبار، سير وترا جم ص159.

الحر العصري، من أبناء جيله، فيصفه بذلك "الشاب الذي لا تروَّج عنده الخرافات الرشيدية ولا التّرهات الشاذلية، ولا الألاعيب الرفاعية".

ويذكر شرف البركاتي- أحد قادة جيش الشريف الحسين في **الرحلة اليمانية** للقضاء على ثورة الإدريسي ضد الحكومة العثمانية المتحصّن في لواء عسير في 1911م، - مجموعة ملاحظات تؤكد سخريته من "الكرامات" الصوفية التي كان يلجأ لها الإدريسي (حفيد العلاّمة أحمد ابن إدريس) ويريد بها التأثير على عُربان تهامة وتطويعهم السياسي والعسكري، مستغلاً "اعتقادهم الصلاح والتقوى في سلفه وظنهم أنه على منوال آبائه ومما زادهم لأمره انقياداً وقوّاهم فيه اعتقاداً ما أظهره لهم من الألعاب التي حسبوها لبساطتهم كرامات، بل ظنها الكثير منهم معجزات"[35] وذكر منها استخدامه صندوق الكهرباء المُحرّك للأعصاب عند المسّ، واستغلال جهل المحليين به، فحين تسري الكهرباء في أجسادهم، كانوا يصيحون من فرط بساطتهم "المدد يا إدريسي"، كما كان يستخدم النور المتصل بالتيار الكهربائي، وهو ذو لون أبيض بخلاف ضوء الغاز الذي يعهدونه، ليُغرر بهم ويوهمهم باتصال الوحي به.

ويذكر محمد علي مغربي، وهو شاب عصري، عمل سكرتيراً لزعيم الأدب الحديث في الحجاز محمد سرور الصبان (وزير المالية السعودي أيضاً) :

---

(35) شرف البركاتي، الرحلة اليمانية، ص 14.

"أدركت قبر السيدة حواءأم البشر بمدينة جدة في أوائل الأربعينات من القرن الهجري الماضي تتوسطه قبة عظيمة ومن أمام القبة وخلفها ممر طويل، ويدخل الناس والحجاج خاصة لزيارة أمنا حواء في الحجرة التي تعلوها هذه القبة وقد زينت هذه الحجرة بالستائر، وأطلق فيها البخور ويتولى أحد المشائخ -وكان في ذلك العهد من بيت القاضي بجدة -إدخال الحجاج، وتلقينهم الدعاء للزيارة، ويتقاضى الشيخ المذكور من الزائرين النقود التي يدفعونها مكافأة له .

وحينما استولت الحكومة السعودية على الحجاز ودخل الملك عبدالعزيز مدينة جدة سنة 1344هـ / 1925م كان من أوائل الأعمال التي قامت بها الدولة السعودية هدم مايسمى قبة حواء وقفل الزوايا المنسوبة إلى الطرق الصوفية وإبطال البدع التي كانت سائدة في ذلك الزمان، والتي كان يتقرب بها الناس كما يظنون إلى الله تعالى، ولقد سبق للدولة السعودية الأولى أن أزالت قبة حواء ثم أعيد بناؤها في العهد العثماني في ولاية الحاج عثمان باشا القرملي الذي أسندت إليه ولاية الحجاز سنة 1257هـ/1841م وبقي في الولاية إلى سنة 1261هـ /1845م"[36].

كانت ظاهرة الزوايا الصوفية في الحجاز، تجري في انسجام مع بقية مدن المشرق، حيث انتشرت الزوايا في القاهرة، دمشق، حلب، والقدس، وغيرها.. استمرت بها حتى مطلع القرن العشرين، حيث لعبت دوراً هاماً في تنظيم شؤون الناس.. لكنها أيضاً بدأت في الانحسار مع

(36) محمد علي مغربي، أعلام الحجاز (3 / 138).

التحولات التي مسّت مجرى الثقافة السائدة وأخذتها نحو تبدل قيمي تبلوّر في شكل أجهزة الدولة الحديثة. وهو شكل وجد في أقنية التعليم النظامي، والصحافة، والأحزاب السياسية بديلاً لمؤسسات الطريقة والزوايا الصوفية.

كان الشاب المكّي عقيل بن أحمد العطاس (مواليد عام 1903م)، يخضع للدروس التقليدية التي نشأ عليها أبناء جيله، ولكنه سيتسرب من درس العلاّمة السيّد [العارف بالله] عيدروس بن سالم البار، ليلتحق بمدرسة الفلاح الحديثة مع افتتاحها عام 1912م، ومضى يختلف إلى نادي الشيخ عبدالسلام كامل، وهي ندوة للشباب الحجازي الناهض كان يجتمع بها إبّان الثورة العربية (1916-1918م) ليناقش قضايا الأدب الحديث والخطابة السياسية. وبدلاً من أن يترقّى الشاب عقيل العطاس في مراتب طريقة السادة آل باعلوي، أصدر مجلته الخطيّة **الارتقاء**، وألحقها بمجلته **العصر الحديث**، التي كان يُحررها مع نخبة من ناشئة الأدب الحديث في الحجاز، يجهرون فيها بآراءهم المُتحررة والعصرية ويعلنون رَغبات اللحاق بالنهضة المدنيّة الحديثة.

-عذابات الصوفية في العهد السعودي:

كان العهد السعودي في الحجاز، بمثابة عهد إبدال قيمي جذري، نتيجة اتباع الدولة السعودية المنهج السلفي ذي التعاليم الإصلاحية الصارمة، والمتصادمة في جوهرها مع المظاهر الصوفية والطُرقية.

يقول الشيخ محمد العربي التبّاني: "وفي سنة دخول السعوديين لمكة المكرمة 1343هـ / الموافق 1924م رأيت عند الأشراف وأنا ذاهب الى المعلا رجلاً من أهل مكة خارجاً من المسعى من زقاق المليبارية الضيّق قائلا: اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد، وصادف نزوله جماعة من الغُطُغُط الى الحرم فالتفت اليه رئيسهم حنِقا مشيراً اليه بعصاه قائلا : (اذكرون ولا تعبدون) أي (اذكروه ولا تعبدوه)، فبُهت الرجل خائفا منهم"[37] كان هناك شريف فاسي من أهل مكة يجلس عند مقام ابراهيم وكان يجلس إلى جانبه سعود العرافة من أعيان الإخوان، وكان إذا جاء ووجده قبّله وصافحه ببشاشة واعتناء، وكان له وِرد من الصلاة على النبي يقرؤه كل يوم، فلما تحقق أنه يصلي على النبي، أنكر عليه وقال لم لا تقرأ القرآن؟ فقال: إني أقرؤه في وقت غير هذا، فقال: ما أراك إلا تصلي على النبي، ومن يومها صار يقابله بفتور[38]

وقد فسح الاخوان للكُتبيين في السنين الأولى من دخولهم الحجاز بجلب دلائل الخيرات غير المُهمّش، فيما منعوا النسخة التي تحتوي على الهوامش. ثم منعوا جلبه مهمّشاً أو غير مهمّش. وقد جلب منه الكُتبي المكّي الشهير عبدالصمد فدا أربعمائة نسخة فألزموه بإرجاعها إلى مصر أو يتلفوها، فتركها لهم[39] وقد نشرت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إعلانا بمكة حذرت فيه الناس من كتاب **دلائل الخيرات**. وفي سنة 1376هـ / 1956م نُشر في جريدة **البلاد السعودية**، تحذير مُبالَغ في

(37) أبوحامد بن مرزوق، براءة الأشعريين،(1 / 179).
(38) أبوحامد بن مرزوق، مصدر سابق(1 / 180).
(39) أبوحامد بن مرزوق، مصدر سابق(1 / 180).

صياغته من **دلائل الخيرات** و"أنه أشد ضررا على الأمة من كتب الزندقة والإلحاد وأن مؤلفه يهودي"[(40)] وبعد دخول مكة في العهد السعودي، في أكتوبر 1924م، جرت مناظرة بين كتلة علماء مكة وكتلة علماء نجد، في الأصول والفروع.. أُرغم علماء مكة بعدها على إصدار بيان يُبطلون فيه "البدع" التي تُنافي التوحيدَ[(41)].

وفي حدود عام 1928م، أمر رئيس هيئة مراقبة القضاء فضيلة الشيخ عبدالله بن الشيخ بحصرالزوايا التي بمكة، ثم دعا مشايخها بعد أن كان قد رتّب لكل لزاوية رجلاً من أهل السلف، وقد حاول بعضهم مقاومة ذلك الإحلال، بذريعة تملكهم المباشر للزوايا، التي تلاصق دورهم فعلاً، وأنها ليست أوقافاً عامة.. ولكن ذلك لم يُجد نفعاً.

ومن ثم توجّه الشيخ عبدالله بن حسن إلى المدينة المنورة يُرافقه مُعاونه الشيخ محمد التركي ومحمد تقي الدين الهلالي، وانضم إليهم من المدينة الشيخ محمدعبدالرزاق المصري خطيب المسجد النبوي ومراقب الأمورالدينية فيه، للنظر في شؤونها الدينية ولتفقد دوائر الأوقاف والمعارف وغيرها، فقام بتنظيمها وترتيب كوادرها ووضع لجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نظاما شرعياً يسيرون عليه.ثم التفت إلى مشائخ الطرائق، وكانوا قد تراجعوا في طقوسهم العلنية بالمسجد النبوي، بعد أن مُنعوا من ذلك وأُمروا أن يذكروا الله في أنفسهم تضرعاً.

---

(40) أبوحامد بن مرزوق، مصدر سابق(1 / 181)

(41) بيان علماء مكة، ومنهم محمد حبيب الله الشنقيطي، وعمر باجنيد، ودرويش عجيمي، وأحمد النجار، وجمال المالكي، وحسين مالكي، وعبدالرحمن زواوي، وآخرون. (المصدر من: دعوة الشيخ ومناصروه، ص 38 - 40).

كانت أغلب الطرق قد تركت الاجتماع العلني إلا التيجانيين، فإنهم نقلوا وظيفتهم من المسجد إلى الزاوية وهو قصر بباب المجيدي، اشتروه بـ 140 ألف فرنك، تبرع بها أحد أثرياء الجزائر.

واستدعى الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ، شيخَ الطريقة التجانية بالمدينة، الشيخ ألفا هاشم(42)، وهو ابن أخ الحاج عمرالفوتي أحد أركان الطريقة، ودارت بينهما مناظرة نقلها الشيخ محمد تقي الدين الهلالي. وطلب آل الشيخ من ألفاهاشم التراجع عن أداء طقوس طريقته التجانية(43)، والتعهد كتابياً بإنكاره لعقائد طريقته في صحيفة، فطلب ألفاهاشم مهلة طالت عن ثلاثة أشهر بين التسويف والمراوغة والمماطلة، حتى إنه أشتكى عليه الى أمير المدينة(44).

وفي أكتوبر 1926م، وصل فضيلة الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح الحجاز، فعُيّن إماماً وخطيباً بالمسجد الحرام. وكان به أئمة كثيرون، فألغوا جميعاً، ونُصّب وحده – وكان من أهل السلف. وكان أبوالسمح يخطب ارتجالاً حسب الأحوال والظروف، ومضى على ذلك قريباً من عام، ثم جاء الأمر من الملك بالتزام ديوان شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب(45).

(42) العلاّمة ألفا هاشم بن أحمد سعيد الفوتي (1865 - 1931م)، من مواليد السودان هاجر إلى الحجاز عام 1906م، كان زعيماً للتكارنة في المدينة المنورة، وشيخ متبوع للطريقة التيجانية فيها، تخرّج على يده من أهل الحجاز: الشيخ حسن المشاط، والزعيم حسين باسلامة.

(43) وتنطوي طريقة التجانية، على أوراد من ضرب: "اللهم صل وسلم على عين الحق"، "عين ذاتك العلية"، ووصف النبي بالأسقم وغير ذلك.

(44) محمد تقي الهلالي، مجلة الشهاب، العدد 151.

(45) زكريا بيلا، الجواهر الحسّان، (1 / 364).

واندلعت أزمة كبرى في المدينة المنورة حين طلب رهطٌ من علماء الحنبلية الكلاسيكية من السيّد أحمد الشريف السنوسي، المُجاهد الليبي الشهير، الذي كان قد انتقل للمكوث بالمدينة المنورة منذ عام 1924م طلبوا منه التبرؤ من أوراد السنوسية ومن كتابات السيّد محمد المهدي السنوسي، وإعلان التوبة منها[46]، وقد شقّ على أحمد الشريف ذلك، وهوالمجاهد الإسلامي والسياسي العربي الكبير، والمرجع الديني العريض، فأعلن عن رفضه للامتثال للتعاليم الوهابيّة، فما كان من مشائخ الحنبلية إلاّ تكثيف الطلب من الملك عبدالعزيز بإخراجه من المملكة، ولكن الملك عبدالعزيز تباطأ في الامتثال لرغبتهم، حتى جاء حتف السيّد السنوسي صبيحة يوم الجمعة 10 مارس 1933م، وهو بالزاوية السنوسية بالمدينة المنورة، فدُفن ببقيع الغرقد.

أما ذروة الجفوة فقد تصاعدت مع الاقصاء الرسمي الذي تعرض له السيّد محمد علوي مالكي عشية قرار هيئة كبار العلماء الصادر عام 1981م، الذي جاء فيه: بنشر المالكي "للضلال والبدع والخرافات والدعوة إلى السوء والشرك والوثنية"، واعتبار الصوفية رديفا للإلحاد [47].

---

(46) رواية حفيده راشد الزبير السنوسي لمحمد سعيد القشاط، وقد أوردها في كتاب ليبيون في الجزيرة العربية، ص155.

(47) قرار هيئة كبار العلماء المرقم 86 في 11/ 11/ 1401هـ في الدورة السادسة عشرة المنعقدة بالطائف في شوال عام 1400هـ. وجاء فيه: "نظر مجلس هيئة كبار العلماء فيما عرضه سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مما بلغه من أن لمحمد علوي مالكي نشاطاً كبيراً متزايداً في نشر البدع والخرافات، والدعوة إلى الضلال والوثنية، وأنه يؤلف الكتب ويتصل بالناس، ويقوم بالأسفار من أجل تلك الأمور، واطلع على كتابه الذخائر المحمدية، وكتابه الصلوات المأثورة، وكتابه أدعية وصلوات .... وقد تبيّن للمجلس صحة ما ذكر من كون محمد علوي داعية سوء ويعمل على نشر الضلال والبدع وأن كتبه مملوءة بالخرافات والدعوة إلى الشرك والوثنية". و"رأى أن يعمل على إصلاح حاله وتوبته من أقواله، وأن يبذل له النصح ويبين له الحق [....] لمواجهته بما صدر منه من العبارات الإلحادية والصوفية".

- المدرسة المكيّة:

المدرسة المكيّة، مُسمى اصطلاحي يقصد مجاراة بنية التعليم الديني الكلاسيكي الموروث في الحجاز.

كان العلم في مكة مطلع القرن العشرين قد انتهى في العقيدة عند لحظة الأشعري والماتريدي، وفي السلوك عند لحظة الغزالي. أما الطريقة فقد آلت إلى طريقتي السادة العلويّة، والسادة الخلوتيّة. وفيما انفتح الفقه على مذهبيّ المالكية والشافعية أولاً، ثم مذهب الحنفية ثانياً، ومن بعدهم الحنبلية، ظلت المدرسة المكيّة رهينة معرفة فقهية تقليدية فِرقيّة ومذهبية، ومعرفة صوفية طرقية، اكتنفهما التمسّك بقيم التقليد والاتباع وهيمنت عليهما طبائع السمع والطاعة، وادعّى أهلها "تفوّقاً" على الآخرين، وانخرطوا في (باراديغم) علمي يقتصر على: الوازع الديني مع روافد علمية ضعيفة (كمبادئ الرياضيات والفلك).

وفي تفكيك خارطة الإجازات العلمية التي انتهت لدى المتأخرين من علماء الحجاز، نكتشف أن المدرسة المكيّة كانت في صميمها مدرسة حديث شريف. يُعزى ذلك، لجهود ثلاثة علماء مكيين مسندين نشطوا في أثناء القرن السادس عشر الميلادي في تحصيل الإجازات، إلى حد أنه ينتهي إليهم غالب أسانيد من بعدهم من العلماء في الحجاز (وطائفة كبيرة من علماء اليمن ومصر والشام)؛ وهم حسن بن علي العجيمي المكّي

(توفي عام 1701م)، وعبدالله بن سالم البصري المكّي (توفي 1722م)، وأحمد بن محمد النخلي المكّي(توفي 1717م).

وتتوزع مكوّنات المدرسة المكيّة على عدة مراتب.

في عام 1884م لاحظ هرورخرونيه: "كانت هوية أغلب مشائخ مكة العلمية تتوزع على عدة مراتب: فهو شافعي المذهب الفقهي، أشعري العقيدة، قادري الطريقة الصوفية"(48).

وفلسفة التصوف، في المدرسة المكيّة، تؤكد على الاشتغال بالفقه أولاً، ثم التصوف ثانياً. بمعنى أن "مبناها العلم والعمل" – كما في تعبير أحمد زيني دحلان. لذا يغلب على علماء مكة لقب فقهاء الشافعية أو المالكية، لا أولياء الصوفية ومُرشدي الطرق. فهم شافعيّة (أو مالكيّة) أولاً، ومن ثم يشتغلون بالأوراد والأذكار، ويتسلّكون الطريقة.

وأبلغ من يشرح فلسفة التصوّف بحسب المدرسّة المكية، هو رئيس مدرسيّ مكة بالقرن التاسع عشر أحمد زيني دحلان، الذي يقول: إن "الطرق الموصلة إلى الله تعالى كثيرة.. كلها مبنيّة على الاستقامة والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب النفس بتزكيتها وتطهيرها من الأخلاق الذميمة وتحليتها بالأخلاق الجميلة حتى تُشرق عليها الأنوار وتتجلى لها الأسرار ... وذلك يحتاج بعد امتثال المأمورات واجتناب

---

(48) هورخرونيه، مصدر سابق،ص 193.

المنهيّات إلى كثرة العبادة والمجاهدات ومُخالفة النفس بترك الشهوات مع كثرة الذكر والفكر".على "أن أهل الطرق لهم كيفيات في تدريج السالكين بالأذكار والأفكار الى أن يصلوا إلى مرتبة العارفين بالله" .. على أن "ذلك لا يكون إلا بمُلازمة شيخ مرشد ناصح صالح عارف بأمراض النفس ودسائسها وشعب الطريق وعوارضها، فيه روح السالك وينقله من حال إلى حال حتى يبلغ مراتب الكمال"(49).

في القرن السابع عشر كان كبار المتصوفين من علماء الحجاز: أحمد بن محمد القُشاشي (توفي 1660م) وإبراهيم الكردي الكوراني (توفي 1691م)، قد لعبا دوراً تأسيسياً في مزج تعاليم الطُرق الصوفيّة الهندية (مثل الشاطرية والنقشبندية)، بتعاليم الطرق الصوفيّة المصرية (عند مشائخهما زكريا الأنصاري وعبدالوهاب الشعراني)، وتجذيرها في التربة المكيّة والحجازية المحلية.

فيما كانت الطريقة المستحوذة على غالبية المشهد المكّي منذ القرن الثامن عشر الميلادي (وإلى اليوم) هي مزيج بين الطريقتين العلويّة

---

(49) مرويات وإجازات أحمد بن زيني دحلان، مخطوط.

والخلوتيّة، كما أسّسها أحمد زيني دحلان، برأسماله الرمزي الكبير، التي هي عنده "أحسن الطُرق التي استمر أهلها على الاستقامة"(50).

ويُمكن تنزيل التيار الصوفي في الحجاز راهناً في مسارين اثنين.

هناك مسار الأهلين القدامى (المدرسة المكيّة): وهم رموز وروّاد وورثة المدرسة المكية. وأبرز من يُمثلها مدرسة آل علوي مالكي، التي جمعت رايات كل الشيوخ القُدامى، وفئات السادة آل باعلوي القدامى. وهي مدرسة تقتبس الغزالي، ومن ثم لا تتعصب لأي منهج طرقي، فهناك استعارات من العلويّة، والخلوتيّة والشاذلية، والإدريسية. وهي مدرسة تُعلي من شأن الفقه، قبل التصوف، وتشترطه كمدخل للأخير.

وثمة تيار آخر، أقل حضوراً وتجذراً، يتشكل من المتأخرين، المتأثرين بالطُرق التيجانية والشاذلية، التي تريد استئناف نشاطها من جديد في التربة الحجازية، وهؤلاء يقدمون التصوف على الفقه. وهم على عكس تعاليم المدرسة المكيّة. ومن أبرز رموز هذا التيار الطرقي، الشيخ الحافظ النحوي [الموريتاني]، والعلماء الشناقطة.. وهي مغرية للشباب

---

(50) والطريقة العلوّية، كما يراها أحمد زيني دحلان: "مبناها على العلم والعمل على حسب ما شرحه الإمام حجّة الإسلام الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين ... وعند هذه الطريق: الأذكار التي جمعها قطب الحقيقة والإرشاد الحبيب عبدالله بن علوي الحداد، في كتابه المسمى مفتاح السعادة". أما الطريقة الخلوتيّة، بحسب الدحلان: "فمبناها أيضاً على العلم والعمل، أيضاً على ما شرحه الإمام حُجّة الإسلام الغزالي .. وقد قسّم أهل هذه الطريقة النفس باعتبار ترقيتها في المقامات إلى سبعة أقسام فقال النفس الأولى الأمّارة، والثانية اللوّامة، والثالثة الملهمة، والرابعة المُطمئنة، والخامسة الراضية، والسادسة المرضيّة، والسابعة الكاملة" .. وجعلوا أذكارا مُختلفة لكل مرتبة .. "وقد شرح طرف من ذلك العلامة الشرقاوي في كتابه المُسمى بربيع الفوائد في ترتيب صلوات الطريق والأوراد". (المصدر: مرويات وإجازات أحمد بن زيني دحلان. مخطوط).

المُستعجلين لنتائج "الكرامات". وينكر رواد المدرسة المكيّة التقليدية على هذا التيار، مستعينين بمقولة الإمام مالك: "من تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقّه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومن تفقّه وتصوّف فقد تحققّ"(51).

-جينالوجيا المدرسة المكيّة:

-أحمد زيني دحلان (1816م-1886م)-أب المدرسة المكيّة:

هو الحافظ الفقيه، إمام الحرمين الشريفين، مفتي الشافعية وفقيه وشيخ علماء الحجاز ورئيس المدرسين(52) في عصره. لم يحُل بينه وبين لقب مفتي مكة سوى مذهبيته التي لم تكن على المذهب الحنفي الرسمي.كان يُدرّس التفسير والحديث والفقه وأصوله والتصوّف. وقد درس وتخرج على يديه معظم علماء الحجاز في عصره، وكثيرمن علماء المسلمين درسوا أو أخذوا منه.كان دوره رياديا كواسطة بين جيلين، وتأسيسياً في بعث التعليم المدرسيّ بشكل أكثر ازدهاراً في مكة. منه انبثق المشهد العلمي العريض في مكة المكرمة.

اشتهر بدرايته العظيمة بالتاريخ، حتى عدّه يوسف شاخت مؤرخ مكة الأول في القرن التاسع عشر. كان يُعد شخصية معرفية كبيرة، وحين

(51) مقولة الإمام مالك من حاشية العلاّمة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزيه في الفقه المالكي. وشرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي قاري.

(52)حين انتهى الدحلان من طباعة كتابه الفتوحات الإسلامية، قرّظه تلميذه عبدالحميد بن فردوس الأفغاني المكّي:

أعني رئيس العلم في مكة .. مُفتي الأنام اللوذعيّ الأريب

افتتحت أول مطبعة حديثة في مكة عام 1882م،[المطبعة الميرية]، تم تعيين الدحلان قيّما عليها. عُرف بنقده الشديد للوهابية[53] وميله إلى التصوّف.

الدحلان هو لحظة التقاء الطريقة العلويّة الحضرمية، بالطريقة الخلوتيّة المصريّة[54] وقد قام بدور تأسيسي في "توطين" الطريقتين العلويّة والخلوتيّة وبثّهما بين أجيال مكة الصاعدة. هو أول شيخ محلي يخترق سلسلة الدم الحضرميّة في مكة، ويتلقّف الطريقة العلويّة، ويُنزلّها بدوره الزعاماتي الى أعداد لا تُحصى من المكيين على اختلافاتهم المذهبيّة والطرقيّة، واختلاف أصولهم العرقية – وهي طريقة علويّة بنُسختها المُتداخلة مع الطريقة الخلوتيّة، التي تحصلّ عليها بدوره من تأثير السادة الدِّمياطية الذين لعبوا أدواراً علمية هامّة في فراغات الحرم المكّي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

والدحلان هو عُمدة الإسناد في التصوف بمكة على زمانه. فيه تجتمع روايات محمد حسين الحِبشي (مفتي الشافعية بمكة المتوفى عام1864م)، وعبدالرحمن بن علي السقّاف، ومنهما إلى عبدالله بن علوي الحداد مع روايات عثمان الدمياطي، ومنها إلى: الشيخ محمد الأمير

---

(53) له في ذلك: الدررالسنية في الرد على الوهابية.

(54) أخذ أحمد زيني دحلان الطريقة العلوية عن: محمد بن حسين الحبشي (مُفتي الشافعية بمكة المتوفى عام1864م)، وعن عبدالرحمن بن علي السقاف. والأول يروي عن عبدالله بن حسين باعلوي، والثاني يروي عن والده الحبيب علي بن عمر السقاف بسلسلة سند تتصل إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم. أما طريقة السادة الخلوتية فأخذها دحلان عن شيخه المباشر عثمان بن حسن الدمياطي (جاء إلى مكة عام 1832م) وعن الشيخ أحمد الدمياطي (مفتي الشافعية في مكة المتوفى عام 1853م)، وكلاهما أخذ عن الشيخ عبدالله الشرقاوي بسلسلة تتصل بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم . (من مخطوط: مرويات وإجازات الدحلان).

الكبير المالكي، و[القطب] محمد بن سالم الحفني، ومحمد الشنواني، وعبدالله الشرقاوي.

وقد ألّف السيّد دحلان كتباً كثيرة في شتى فروع المعرفة وصلت إلى نيف وعشرين مؤلفاً، كان أشهرها في التاريخ المكّي. ومن مؤلفاته في التصوف والسيرة:

- **السِّيرة النَبويّة والآثار المحمدية** / جزءان.
- **بيان المقامات وكيفيّة السلوك.**
- **الأنوار السنيّة بفضائل ذرّيّة خير البريّة.**
- **النَّصائح الإيمانية للأمة المحمَّدية.**
- **رسالة جواز التوسل.**
- **تلخيص الرسالة القشيرية.**

ومن أشهر مايُروى عنه في الحديث: الأربعين النووية، وكتب الحديث المشهورة للشيخ محمد سعيد سُنبل المكّي.

ومن مشاهير تلاميذ أحمد زيني دحلان في مكة المكرمة، ممن أصبح مفتياً، أو عالماً، أو إماماً، أو مُدرّساً بالمسجد الحرام: محمد سعيد بابصيل (مفتي الشافعية بمكة)، الشيخ عبدالرحمن سراج (مفتي مكة وشيخ علمائها)، الشيخ محمد بسيوني، السيّد بكري شطا، السيّد حسين الحِبشي (مفتي الشافعية بمكة)، عباس بن صديق (مفتي الأحناف بمكة)، محمد حسين المالكي (مفتي المالكية بمكة)، محمد سعيد يماني، السيّد

أحمد زواوي، الشيخ عبدالقادر شمس، السيّد أحمد بن حسن عطّاس، عبدالقادر مشّاط، عبدالملك الفتني، أحمد بن أمين بيت المال، السيّد علوي السقاف (شيخ السادة بمكة)، عبدالله الريّس، عبدالحميد قُدُس، صالح بافضل محمد صباغ، الشيخ أحمد العطار، عبدالرحمن عجيمي، السيّد عثمان شطا، السيّد عمر شطا، علوي صالح بن عقيل، أحمد بن عبدالله بن جعفر فقيه، أحمد قنق، أحمد بافقيه الشافعي، حسن بن زهير المالكي، الشيخ حسن عرب، السيّد سالم العطاس، السيّد سلطان داغستاني، صالح كمال، سليمان العتيبي الحنفي عبدالحميد بن فردوس، عبدالرحمن جمال، عبدالقادر صابر، عبداللطيف عطية، عبدالله باروم، عبدالله الخضري، عبدالله زبير، عبدالملك داود، علي خرّاز، علي قُدس، علي كمال، السيّد عمر عبدالله السقاف السيّد عمر العطاس، محمد نور الجبرتي، محمد حيوتي، محمد مكي كتبي. وطبقة تلتْهُم لا تُحصى.

وقد وقفنا على إجازة بخط يد السيّد أحمد زيني دحلان، يمنح فيها إجازة كاملة للطريقتين العلويّة والخلوتية للإخوة عمر وعثمان وبكري شطا في 1282هـ /الموافق 1865م، ومن ثم وقعنا على إجازات من الأخويّن عمر وبكري لطبقة تالية متفرقة من بينها إجازة للشيخ حسن بن عبدالرحمن العجيمي[55].

(55) مرويات و إجازات أحمد زيني دحلان، مخطوط.

-آباء موازون:

-الشيخ رحمة الله بن خليل العثماني(1811-1890م)، أسس مدرسة الصولتية بمكة المكرمة (عام 1876م) وهي أقدم مدرسة نظامية بالجزيرة العربية لا تزال قائمة إلى اليوم.وبخلاف تأسيسه للصولتيّة،أخرجت حصوته لتدريس الفقه الحنفي خلف المقام الحنفي صباحاً،حشد من أعلام مكة منهم:الشريف الحسين بن علي (ملك الحجاز)، أحمدأبو الخيرمرداد(شيخ الائمة والخطباء بالمسجدالحرام) الشيخ عبدالرحمن سراج(مُفتي الأحناف)، أمين محمد مرداد، عبدالرحمن حسن عجيمي، عبدالله الغمري حسن عبدالقادر طيب، عبدالرحمن دهان، أسعد دهان، حسن كاظم، عبدالله أبوالخيرمرداد، عبدالحميد بخش، حسن دحلان، محمدحسين خياط، عابد بن حسين مالكي، أحمدنجار، محمدحامد(مديرالفلاح) محمد سعيد بابصيل(مفتي الشافعية)، محمد سليمان حسب الله، عبدالله زواوي، محمدزين العابدين محمد صالح كمال، محمدعلي كمال، درويش عجيمي، وبكررفيع.

-الشيخ جمال عبدالله بن شيخ عمر الحنفي (غير معروف - 1868م). الشهير بالشيخ جمال. مفتي مكة وشيخ علمائها. محدّث وفقيه ومُفسّر. لم يكن أفقه منه في زمانه في الفقه المالكي. ولد بمكة ولزم الشيخ عبدالله سراج. له **الفتاوي الجمالية**، **ورسالة في فضائل ليلة النصف من شعبان، ومناقب السادة البدريين،**

ومناقب عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، والمنهج الأعدل في مناقب السيّد علي الأهدل...

تخرّج على يده طبقة كاملة من علماء المسجد الحرام، مثل: عبدالرحمن بن عبدالله سراج، عبدالله محمد صالح مرداد، الشيخ حسن طيّب، عبدالملك الفتيني، عبدالرحمن عجيمي، والشيخ عبدالقادر شمس.
-الشيخ محمد بن سليمان حسب اللهالشافعي المكي (1828-1917م). يُلقَب بـ[الحبر العلام، والبحر الطمطام].أحد روافد الطريقة الخلوتيّة في الحجاز. اتصل بالشيخ عبدالغني الدمياطي المكّي، وعنه يروي عن الأمير الكبير.

الطبقة التالية:

- السيّد حسين الحِبشي (- 1912م).مفتي الشافعية في مكة، وابن مفتيها العلامة محمد بن حسين بن أحمد الحبشي. تلميذ أحمد زيني دحلان. كان يُدرّس أصول الفقه والحديث والتفسير والتصوّف. ويمنح اجازات في ذلك، ومن تلاميذه الشيخ عبدالحميد قُدُس المكّي.

والحِبشي يروي **عقد الجوهر الثمين** في أربعين حديثاً من أحاديث الرسول عن السيّد أحمد بن عبدالله البار، عن العلاّمة عبدالرحمن الكزبري (توفي 1806م)، عن العلامة أحمد بن عبيد العطار

(توفي 1813م)، عن إمام الحجاز اسماعيل العجلوني. وهو يُرادف الدحلان في هذا.

-قاضي القضاة عبدالرحمن عبدالله سرَاج (1833-1896م).جمع منصبيّ مفتي مكة وشيخ علمائها في عهد الشريف عبدالله أمير مكة. ينحدر من عائلة مكيّة عريقة تصدّرت العلم والإفتاء والتدريس والقضاء على المذهب الحنفي الرسمي في العهد العُثماني(56) كان والده الشيخ عبدالله سراج شيخاً مكياً مرموقاً من الطبقة التي تلت أحمد زيني دحلان. أخذ عن الشيخ جمال شيخ (تلميذ والده)، وعن الشيخ أحمد زيني دحلان، وعن الشيخ رحمة الله الهندي، وأجازوه بسائر مروياته الخاصة والعامة. له ولدان من علماء مكة: الشيخ محمد علي، والشيخ عبدالله. كان الطلاب يقصدونه من الهند وجاوا، واعتُبِر مع أحمد زيني دحلان، ذروتي العلم في مكة في القرن التاسع عشر. من تلاميذه الشيخ أحمد النجار (قاضي الطائف) الشهير. نُفي الى مصر من قِبل الشريف عون الرفيق، وتوفي بالمنفى. وهو ملتصقٌ بتيار التصوّف،يروي **دلائل الخيرات وشوارق الأنوار** بسلسلة متصلة إلى مؤلفه [ولي الله] الجزولي، ومنه أُجيز المشهد المكّي.

- العلاّمة السيّد أحمد بن حسن العطاس (1857-1916م). صاحب الأوراد الكُبرى. من أهل حضرموت. يرد ذكره هنا لرمزية تتلمذه

---

(56) وكانت العوائل الحجازية التي تسنمت الإفتاء والإمامة والقضاء على المذهب الحنفي: آل مرداد، وآل القطبي، وآل بن صديق في مكة.

ومصاهرته للشيخ أحمد زيني دحلان. ويُعد لذلك ذروة توثيق أوَاصر التمازج بين المدرستيّن المكيّة ومدرسة آل باعلوي الحضرمية. كانت دفعات الطلاب الحضارم قد تقاطرت إلى مكة المكرمة وجدة منذ القرن السادس عشر الميلادي، حتى كان لهم نقيب للسادة في مكة، وحظوة كبرى مع الحُكام، وخُصصت لهم مقبرة باسم حوطة السادة آل علوي في مقابر المعلاة[57]. ولكن رمزية العطاس تأتي من لقائه ومصاهرته لزعيم المكيين المتقدمين في العصر الحديث أحمد زيني دحلان.

وُلد العطاس في حُريضة بحضرموت، وأخذ من كبار مشائخها، ثم قصد الحجاز للحجّ وطلب العلم الشريف، فالتزم درس شيخ مكة الأكبر أحمد زيني دحلان، الذي زوّجه على بنت أخيه، حباً له، فسطع نجمه في سماء المشهد العلمي بمكة، وكان يُنيب شيخه الدحلان في الدرس إذا بدا له عُذر، كما يُنيبه في الصلاة. وكان أحمد زيني دحلان يقول له: "أنت خليفتي في مكة، ويا ليتك مكاني"[58]. وكان من مشائخه بمكة أيضاً السيّد محمد بن حسين الحِبشي، مفتي الشافعية. ويُعرف العطاس في المدرسة المكية، في أسانيد أشياخها، بلقب "المُرشد الحبيب".

-**السيّد بكري شطا** (1850-1893م). زعيم مُعلمي التصوف في مكة والمسجد الحرام. فقيه شافعي. من أبرز تلاميذ أحمد زيني دحلان وأهم من ترجم له في **نفحة الرحمن في مناقب سيدنا ومولانا**

---

(57) وكانت كبار العائلات المكيّة تملك حوطات باسمها في مقابر المعلاة. مثل حوطة بيت مرداد، وحوطة الطبريين، وحوطة آل الميرغني، وحوطة الشيخ عبدالوهاب الفتني، وحوطة الشيخ محمد صالح الريّس.

(58) عمر عبدالجبار، مصدر سابق، ص70.

وأستاذنا وشيخنا المرحوم السيد أحمد ابن السيد زيني دحلان. كان يُدرّس في الحرم المكّي الأصلين والنحو والمنطق وصحيح البخاري والتصوّف والرسالة القشيرية ومنهاج العابدين وإحياء علوم الدين وحواشي أم البراهين وشروحها المتداولة.. ويدرّس الطريقة الخلوتيّة في داره. وهو صاحب الكتاب الشهير: **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين**. ومن مؤلفاته في التصوّف: الشرح المسمى **كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء**، وعلى المنظومة المسماة هداية الأذكياء إلى طريقة الأولياء. من طلابه في مكة، ممن أصبحوا علماء بالمسجد الحرام؛ السيّد عمر العطاس، وأحد قنق الحنفي المكي، وجمال مالكي، ودرويش عجيمي وصالح بافضل، وصالح سروجي، وعباس مالكي (جد محمد علوي مالكي)، وعبدالحميد قُدُس، وعبدالقادر منديلي، وعبداللطيف البصري، وعبدالله أزهري، وعبدالله صدقة دحلان (ابن أخت السيد بكري شطا) وعبدالله بن عثمان الحنفي المكّي، وعبدالله لبني، ومحمد مرزوقي أبوحسين، ومحمد الكناني، ومحمد بن عبدالعزيز المالكي، ونور اسماعيل منكابو الخالدي.

حاصل على إجازة في الطريقة الخلوتية من أحمد زيني دحلان منذ عام 1865م.. ويُعد امتداده الموضوعي.

وقد تحصّل بكري شطا على إجازة الطريقة العلويّة من أحمد زيني دحلان وهو في سن الخامسة عشرة. ثم أخذها من الحبيب [العارف بالله] عيدروس بن عمر الحِبشي الذي أعطاه إجازة شاملة كاملة مكتوبة بخط يده خصّها إلى كلٍ من عمر وبكري أبناء محمد شطا "في ساير علوم

الأذكار النبويّة والأحزاب السلفيّة في كل الأوراد المنسوبة إلى المشائخ الأماجد كما أجازني بذلك عدة من العلماء الأعيان بأسانيدهم الثابتة القوية الحسان المتصلة بأرباب الأثبات في الأئمة الثقات فمن أشياخنا سيدي عمر بن عيدروس عليه رحمة الملك ... والشيخ الإمام ذو المعارف والعوارف والأسرار عمر بن عبدالكريم بن عبدالرسول العطار والشيخ الإمام الحبْر الرئيس إمام المقام ومفتي الشافعية على مذهب ابن إدريس محمد صالح الريّس رضي الله عنهما". (بتوقيع عيدروس بن عمر بن عيدروس الحبشي علوي في تاريخ الأربعاء عشرون من شوال عام 1306هـ - الموافق 19 يونيو 1889م)(59).

-**السيّد علوي بن أحمد بن عبدالرحمن السقاف** (1839-1917م). شيخ السادة العلويّة بمكة. وُلد بها ونشأ وتربى في حجر مفتي الشافعية بمكة الحبيب السيّد محمد الحِبشي. درس على يد أحمد زيني دحلان ولازمه ملازمة تامّة وأكثر قراءته عليه. لبس الخرقة من السيّد أبي بكر بن عبدالله العطاس في 1882 بمكة، وولي منصب السادة العلوية بمكة في عام 1909. له مؤلفات عدة منها: **الفوائد المكيّة فيما يحتاجه طلبة السادة الشافعية، وعلاج الأمراض الردية بشرح الوصية الحدّادية ، ورسالة في زيار قبر النبي المعظّم**.

(59) من مخطوط: إجازة عيدروس بن عمر الحبشي إلى عمر وأبي بكر[بكري]أبناء محمد شطا. ولعيدروس الحبشي مؤلف بعنوان عقد اليواقيت الجوهرية وسمط العين الذهبية بذكر طريق السادة العلوية. وهو يُلقب بقطب الواصلين وإمام العارفين الحبيب [العارف بالله] . وممن أجازهم الطريقة في شيوخ الحجاز: بكري وعمر شطا، محمد بافضل، وحسن عبدالرحمن العجيمي.

- **الشيخ محمدعلي بن حسين المالكي** (1870-1948م). يُلقب في المدرسة المكيّة بـ"خاتمة المُحققين". وهو عالم أصولي، تولى إفتاء السادة المالكية، بعد وفاة أخيه العلامة محمدعابد المالكي، كماتولى مشيخة دار العلوم الدينية عقب افتتاحها مباشرةً، وقد تخرج منه عدد كبيرمن الطلاب.. وهو زعيم حجازي معروف تقلد في عهد الحكومة العثمانية عضوية مجلس التمييز، و رئاسة مجالس التقريرات الرسمية الأولى، وفي عهد الحكومة الهاشمية.

تولى منصب وزير المعارف، وعضوية مجلس الشيوخ، وعضوية مجلس شورى الخلافة،وعضوية مجلس التدقيقات. كان يُدرس صحيح مسلم، والنَّسائي، وصحيح البخاري، وسُنن أبي داود، وموطأ مالك وزاد المسلم بشرحه فتح المنعم، وتفسير الخازن، وابن كثير، وجمع الجوامع بشرح المحلَّى في الأصول وجمع الجوامع بشرحه همع الهوامع في النحو للسيوطي، وشرح الجلال المحلي على جمع الجوامع في الأصول، ومنهاج الأصول للبيضاوي بشرح الإسنوي، وحاشية الشيخ بخيت المطيعي، والرسالة الولدية في آداب البحث والمناظرة، وتحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي المكي.

- **الشيخ محمد سعيد يماني**(1854-1935م). وُلد بمكة وتتلمذ على أحمد زيني دحلان، وتلميذه بكري شطا كما أخذ عن أحمد بن حسن العطاس، وحسين بن محمد الحبشي المكّي. أُجيزبالتدريس فتصدر له بالمسجدالحرام، كانت دروسه في التفسير. وكان يُدرّس شرح

الروض، والإقناع.وأبرز تلاميذهم: أبنائه صالح وحسن (وكان مُقرِئه) و محمدعلي،وعبدالحميد الخطيب، وأحمد ناضرين، ومحمود زهدي، وغزالي محمديوسف الخياط، وعلي بنجر، وأحمد قُستي، وصالح كلنتن.له رحلة معروفة إلى اندنوسياعام 1929م رافقه فيها أبناءه.

- **الشيخ محمد سعيد بابصيل** (1829-1912م). مفتي الشافعية بمكة. كان مُعلما للطريقة العلوية والطريقة الخلوتيّة في مكة. قام بكتابه ردودعلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب. له مؤلفات عديدة وتُدرس كتبه في مجالس العلم المكيّة. كان يُدرِّس تفسير الخطيب الشربيني. وهو من رموز الصوفيّة المركزيّة في مكة.

-**الشيخ عبدالرحمن دهّان** (1866-1919م). عالم مكة في عصره، والمُنتهى إليه في وقته[60]. أخذ عن الشيخ رحمةُ الله العثماني، أغلب العلوم، وأخذ التصوّف من الشيخ إسماعيل نواب، وتخرّج من مدرسة الصولتية. كان يعقد حلقة دراسية أمام باب السليمانية وكان دروسه في التفسير والحديث والفقه، كما كان يُدرّس بالصولتية. تخرّج علي يده أبرز علماء مكة المتأخرين: حسن المشّاط، ومحمد العربي التبّاني وحسن سعيد يماني.

-**العلاّمة عُمر حمدان المحرسي** (1876-1949م). من المدينة المنورة. ويُعرف بـ مُحدّث (ومُسند) الحرمين في عصره بلا منازع.

---

(60) والعبارة من صياغة تلميذه حسن المشاط في الثبت الكبير، ص 108.

كان يُدرّس الحديث في حصوته بين الصفا والمروة، وفي المدرسة الصولتية. رجل متصوّف زاهد، شديد البراءة، حدَّ أنه كان يُوصف بطفل كبير. صاحب المُسلسلات الكبرى، التي ورّث أغلبها إلى محمد ياسين الفاداني.

كان يُدرّس: كتاب الصحاح الستة، وموطأ مالك، والجامع الصغير للإمام السيوطي مع شرحه فيض القدير للمُناوي، وبلوغ المرام في أدلة الأحكام، والشفا في حقوق المصطفى، وجمع الزوائد للروداني، وكتاب الأشباه والنظائر في الفروع الفقهية للسيوطي، والمواهب اللدنية، والسيرة الحلبية.

له ميول سنوسية تأتت من اتصاله بالشريف أحمد بن محمد علي السنوسي بزاوية أبي قبيس.

-الشيخ عمر باجنيد الشافعي المكيّ (- 1935 م). من أخلص تلاميذ أحمد زيني دحلان، ومنه يتصل بالشنواني الشافعي في الحديث والطريقة الخلوتيّة.كان يُدرّس تفسير الجلالين، وفتح الوهاب شرح منهج الطلاب لزكريا الأنصاري، والاقناع شرح متن أبي شجاع في فقه الشافعية، وشرح ابن قاسم لمتن الغاية والتقريب، وروضة الطالبين للنووي، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني، وحاشية العالمين قليوبي وعميرة على شرح المحلّي لمناهج النووي، وتحفة المحتاج، وجمع الجوامع في أصول الفقه، ومتممة الأجرومية في النحو، وابن عقيل، ويُدرّس في التصوّف كتاب

عوارف المعارف [للعارف بالله] الإمام السهروردي. كانت داره بباب الوداع عامرة بطلاب العلم وراغبي الإجازة.

الذروة– روّاد باب الزيادة :

يُمكن – مجازاً– أن نحصر مصبّ علم المتقدمين في الحجاز في عالميّن، يمثلان خطّين متداخليّن حد التماهي: الشيخ حسن المشاط، والسيّد محمد العربي التبّاني. والمفارقة أن كليهما كان يُدرّس في برحة باب الزيادة، على حصوتين متقابلتين.

-**الشيخ حسن بن محمد المشّاط** (1900-1979م). شيخ أصولي، وفقيه مالكي، أحد كبار المدرسين بالحرم المكّي، ورئيس المدرسين بالمدرسة الصولتية بمكة، ونائب رئيس المحكمة الشرعية الكبرى لفترة. أستاذه كان عالم مكة في زمانه، فضيلة الشيخ عبدالرحمن الدهان. أخذ إجازة في الحديث من ثلاثة عشر شيخاً من الحجاز، وآخرين من خارجها. يتصل بأحمد زيني دحلان عن طريق شيخيه بكري شطا، ومحمد عابد المالكي. وأخذ من الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي أثبات محمد علي السنوسي: **البدور الشارقة، في أثبات سادتنا المغاربة والمشارقة** ومختصرها **البدور السافرة، والمنهل الروي الرائق، وسوابغ الأيد في مرويات أبي زيد**. له إنارة **الدُجى في السيرة النبوية**، وكتب أخرى في مصطلح الحديث. أخذ الإجازة في الحديث عن عمر بن حمدان المحرسي، وعبدالحي الكتاني، وألفاهاشم الفوتي، والشيخ عبدالقادر

شلبي وعلي الطيب، وغيرهم. وأخذ الطريقة الخلوتيّة من عمر باجنيد في 1935م[61] كما أخذ الطريقة السنوسية من أحمد بن محمد السنوسي الذي التقاه مع الشيخ الطيّب المراكشي في زاوية أبي قبيس[62].

كان يُدرِّس في الفرائض: **التحفة السنية**، **والفوائد الشُنشورية**. ويُدرّس في التصوّف: **إحياء علوم الدين للغزالي** وشرحه للحافظ السيّد محمد مرتضى الزبيدي، وحكم ابن عطاء السكندري.

كانت له جلسة معتادة من عصر كل يوم، يأتيه طلابه ومحبوه فيستقبلهم في دكته أمام بيته في حي النزهة.

من تلاميذه الذين أعقبوه: زكريا بيلا (وكان له مجلس علم شهير بالعزيزية استمر حتى وفاته عام 1993م)، الدكتور عبدالوهاب أبوسليمان (أستاذ الفقه)، الدكتور محمد ابراهيم أحمد علي (أستاذ الفقه المقارن)، والدكتور قاسم الأهدل.ولتلميذه زكريا بن بيلا بدوره طلاب أبرزهم: أحمد علي أدماوي، السيّد حامد الكاف، محمد عثمان الكنوي، أحمد بلّو، ومحمد عدنان بن حكمة الله.)

---

(61) حسن المشاط، الثبت الكبير، ص139.

(62) مصدر سابق ، ص 198.

-**السيّد محمد العربي بن التباني**(1897 - 1970م)، شيخ مكّي شهير من أصل جزائري. وكل ما هو موجود في الحجاز اليوم، إنما يمتُّ بنسبٍ أصيل إلى العربي التبّاني.لقد تصدر التباني التدريس بالمسجد الحرام، وبمنزله، حتى أخذ منه علماء أعلام، كانوا هم وطلابهم الامتداد الذي انتهى عليه المشهد العلمي المكيّ. كان الشيخ التبّاني إلى جانب تلامذته -ويطلق عليهم أيضاً في الذاكرة الجمعية بالفرسان الثلاثة- هم الذين احتووا أكثر طلبة العلم في مكة: السيد علوي مالكي، والسيد محمد أمين كتبي، والشيخ محمد نور سيف.

كان التبّاني يُدرّس في الحرم المكّي: موطأ الإمام مالك، والصحيحين، وسيرة ابن هشام، وعقود الجمان والإتقان في علوم القرآن للسيوطي. ترك أكثر من ثلاثة عشر مؤلَفاً في التاريخ، والتفسير، والفقه المالكي والأدب.

وعلى الرغم من أنه من مواليد الجزائر، إلا أن شيوخه من الحجاز.

ارتحل من تونس إلى المدينة المنورة قبيل الحرب العالمية الأولى، فدرس على العلامة أحمد بن محمد خيرات الشنقيطي، ولازم دروس شيخ المدينة الأكبر المحقق حمدان بن أحمد الونيسي، والعلامة المحقق عبدالعزيز الوزير التونسي، الذي أخذ منه الفقه المالكي. ثم بعد أن خرج من المدينة في السفر برلك [هجرة أهل المدينة]، عاد إلى مكة في أبريل

1918م، وأخذ من الشيخ المكّي عبدالرحمن الدهّان. وبدأ التدريس في مدارس الفلاح، مع إجازته للتدريس في الحرم.

ألّف كتاباً مرجعياً في علم الكلام وأصول الدين في عام 1967م هو **براءة الأشعريين من عقائد المخالفين**، نشره باسم مستعار [أبو حامد بن مرزوق]. وهو رد على عقيدة ابن تيميّة عند الوهابيين. استعرض فيه التبّاني عقائد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ومُقلديه المتمثلة في ثلاث مسائل جوهرية هي:تشبّه الله سبحانه وتعالى بخلقه، توحيدالألوهية والربوبية، وعدم توقير النبي صلى الله عليه وسلم، وتكفيرالمسلمين.. وفندهابالأدلة والبراهين بلغة اختلاف تحيد عن الإسفاف والتبخيس.

ويروي تلميذه محمدعلوي مالكي، أن السلطات حين أرادت التعرف على مؤلف الكتاب عرفوا أنه الشيخ محمدالعربي بن التباني، فقاموا بإصدار أمر باعتقاله، ولكنه قبل صباح ذلك اليوم الموعود أسلم روحه لبارئها. دُفن الشيخ بمقبرة المعلاة، وقد أحاطته هالة من التوقير والتقدير، ظلت قائمة الى اليوم.

له ترجمة كتبها بنفسه في تصدير كتابه **اتحاف ذوي النجابة** مع تعليق لتلميذه محمد أمين كتبي. وعُرف عن الكتبي قوله: "من أراد أن يفتخر فليفتخر بشيخه التبّاني".

الفُرسان الثلاثة :

من جبّة الشيخ محمد العربي التبّاني خرج **الفرسان الثلاثة**: محمد أمين كتبي في النحو وشعر المديح (باب الزيادة)، علوي مالكي في التفسير والفقه المالكي والتصوّف (باب السلام)، ومحمد نور سيف في الفقه والفقه المقارن والتفسير (باب العُمرة). هم الذين احتووا أكثر طلبة العلم مع شيخهم الشيخ محمدعربي التباني. ومنهم انبثقت أغلب المجالس العلمية التي تستحوذ على المشهد العلمي الراهن بمكة والحجاز.

-**السيّد علوي بن عباس مالكي** (1910-1971م). سليل بيت المالكي الشهير، بمكة المكرمة، فوالده السيّد عباس، وجده الشيخ عبدالعزيز، وأبو جده ومن فوقه كل واحد منهم عالِم فاضل بالمسجد الحرام. درَس بالفلاح، ودرّس بها منذ عام 1929م، وأُجيز بالتدريس في المسجد الحرام أيضاً في نفس السنة، وكان من أجلّ العلماء. أخذ من والده الشيخ عباس المالكي، ومن محدث الحرمين الشيخ عمر حمدان المحرسي ومن محمد حبيب الله الشنقيطي، ومحمد علي بن حسين المالكي، وجمال مالكي، ومحمد العربي التبّاني. وقد ذكر مشائخه وترجم له وذكر أسانيده ابنه محمد علوي مالكي في كتاب **العقود اللؤلؤية بالأسانيد العلويّة وإتحاف ذوي الهمم العلية**. كان شخصية مُعتبرة، اشترك في عدة عضويات رسمية، وترك مجموعة من المؤلفات.

كان يُدرّس: الأجرومية، وشرح ابن عقيل على الألفية، ولب الأصول، واللمع لأبي إسحق الشيرازي والتنوير في إسقاط التدبير.. وكان الأمين على أثبات كبار علماء الحجاز: الكوراني، والبصري والنخلي والفلاني، ومن خارجه: الشوكاني، والأمير.

-**السيّد محمد أمين كُتبي** (1909-1983م). أبرز شُعراء التصوّف والمديح في الحجاز الحديث. كان مُدرسّاً مُعتمداً بالمسجد الحرام يعطي دروس النحو واللغة، كما كان له مجلس ذِكر دائم ضحى كل جمعة بداره المجاورة للمدرسة الباسطية. كان من أعمدة تيار التصوّف في مكة والحجاز، وعد قيماً على شعر المديح النبوي، وهو القائل في أحد قصائده: "**أنا الأمين على مدح النبي إذا = نادى المنادي وقال المصطفى هات**"، وقد وضع الكتبي في المديح النبوي مؤلَفين هما: **ديوان المحب الأمين في مديح سيد المرسلين، ونفح الطيب في مدح الحبيب**.

وحين تحوّل السيد محمد أمين كتبي من داره في باب الباسطية مع مشروع توسعة الحرم، كان تحولاً خطيرا في حياته، فقد كان الشيخ لا يسلوه ولا يطيق البعد عنه ولا يمل الطواف حول الكعبة أو الجلوس إليها. فلما أبعد مرغما إلى داره الجديدة في أجياد، انعكس ذلك على نفسه وجسمه، ثم أخذ الشيخ يبتعد عن الناس، ويختار حياة الزهد والعزلة، حتى اختار الانفراد المطلق، والاقتصار على العبادة والتلاوة، وقلما كان يسمح لأحد بزيارته.. ومشى على نظام انعزالي صارم، لا يزور المسجد إلا في الأوقات التي تقل فيها الحركة، ويختار من زواياه رُكناً لا يَكاد يبين.

كان يخصّ الشيخ الزيني بويان بقصائده في مديح النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم، فيصدح بها الأخير في مجالس مكة.

-الشيخ محمد نور سيف بن هلال المكّي (1906-1982م):
فقيه مالكي. كان من أساتذته من علماء الحجاز: محمد العربي التبّاني، والمُسند عمرحمدان المحرسي، والشيخ أحمد ناضرين،والشيخ علوي مالكي. وهو أحد الفرسان الثلاثة في مكة الذين خرجوا من جبّة الشيخ التباني. تنقّل بين مكة ودبي، وأخرج مئات الطلاب في المدينتين. افتتح درساً أسبوعياً في داره بمكة في أخريات سني عمره، في التفسير لكبارالطلبة.

طبقة المُتأخرين: وهم امتداد خط العربي التبّاني والفرسان الثلاثة.. نذكرهم لقرب عهدهم وتأثيرهم المباشر في مآلات المشهد المكّي الراهن:

-الشيخ حسن بن محمد سعيد يماني (1894-1971م). إمام الفقه الشافعي في عصره بلامنازع. ولد بمكة، تلقى على والده ثم على نخبة من علماء مكة،والتحق بالمدرسةالصولتية وتخرج منها،ولازم الشيخ عبدالرحمن الدهان ملازمة تامة وتخرج على يديه،وأجيز بالتدريس في المسجدالحرام عام 1911م،فتصدرللتدريس بحصوة باب المسفلة. التف حوله عددمن طلاب العلم،وتخرج على يديه كثيرمن طلبةالعلم في المسجدالحرام وفي منزله. وممن تتلمذعليه محمدعلوي مالكي،الذي لازمه أحد عشر عاماً قبيل وفاته. استجازه ما روى عن كبار علماء مكة،مثل

العلامة محمد سليمان حسبالله،وهو بروايته عنه يساوي السيد الدحلان. كمايروي عن الإمام[العارف بالله]أحمدبن حسن العطاس،ومفتي مكة الإمام حسين الحبشي، وفقيه الشافعية ومفتيهم محمدسعيد بابصيل. وقدجمع له محمد علوي مالكي ثبتاً بشيوخه ورواياته،وخرّج أسانيده إلى كُتب الحديث. كما تتلمّذ عليه: الحبيب سالم الشاطري، وابنه أحمد زكي يماني[63]ومن تلاميذه الشيخ إبراهيم الشنقيطي المدني.

- الشيخ محمد ياسين الفاداني (1918-1990م). اجتمعت لديه الكثير من الأسانيد فكان هو"مسندالعصر" و"مُحدث الحجاز"،وللفاداني أكثرمن 400 شيخاً روى عنهم. منهم: محمدعلي بن حسين بن إبراهيم المالكي، وقد طالت ملازمته له،وجمع له أسانيده في جزء سماه **المسلك الجلي في أسانيد فضيلة الشيخ محمدعلي**،وضمّنه ترجمة موسعة للشيخ. وأخذ من المُحدّث عمربن حمدان المحرسي،الذي جمعله ثبتاً ضخماً سماه **مطمح الوجدان من أسانيد عمرحمدان**، ثم اختصره في **إتحاف الإخوان**،وأخذ منه مُسلسلات الشيخ فالح بن محمد الظاهري المهنوي، ومسلسلات الشيخ علي بن ظاهر الوتري المدني، ومسلسلات عابد السندي، والمسلسلات العشرة للخطابي السنوسي، ومسلسلات الحبيب حسين الحِبشي، والأمير الكبير ومسلسلات عبدالباقي اللكنوي بأعمالها.

دَرَس الفرائض والتصوّف على الشيخ حسن مشاط. كما درس الفقه الشافعي على مفتي الشافعية بمكة عمر باجنيد. ولازم الشيخ محسن

(63) وزيرالبترول السعودي في ما بعد، وهوكان مُقربه في حصوته.

علي المساوي ملازمة تامة، وقرأعليه الفقه الشافعي وأصول الفقه وجمع له في ترجمته وأسانيده **فيض المهيمن في ترجمة وأسانيد السيد محسن**. وقرأ على العلامة والمؤرخ عبدالله غازي المكّي، جملة وافرة من الأثبات، خاصة ثبته الكبير **تنشيط الفؤاد من تذكار علوم الإسناد**، والثبت الذي جمع فيه أسانيد شيخه الجبيب حسين الحِبشي، المسمى **فتح القوي**. وتلقى عنه مسلسلات ابن عقيلة بأعمالها القولية والفعلية. وأخذ من علوي عباس المالكي الأثبات الكُبرى، ومن محمد بن أمين الكتبي، ومن المقرئ الشهاب أحمد المخللاتي الشامي ثم المكيّ، وقدجمع أسانيده وترجمته في مجلد سماه **الوصل الراتي في أسانيد وترجمة الشهاب أحمد المخللاتي**.

كان للفاداني همّة عليّة في جمع الأسانيد والمسلسلات، والحصول على علو الإسناد والإجازات. وكان صاحب عناية فائقة بفن الرواية تحصيلاً واستحضاراً وتحقيقاً. وله مؤلفات تزيد عن خمسين مؤلفاً. وقد ترك ثبتاً ضخماً ترجم فيه لكل مشائخه بعنوان "**بغية المُريد من علم الأسانيد**."

وفي آخر حياته كان يذهب الى أندونيسيا ويجيز الطلاب فرداً فرداً، الطلاب يصطفون في صفوف طويلة وممتدة، في شكل مسرحي نادر وعجيب.

- الشيخ اسماعيل الزين (1933-1992م). من فقهاء الشافعية في مكة. من شيوخه في مكة: الشيخ محمدالعربي التباني، والشيخ حسن مشاط، والشيخ يحيى أمان والشيخ حسن سعيد يماني، والعلامةالشيخ علي المالكي، والشيخ محمد أمين كتبي. درّس بالصولتية منذعام1962م،في القسم الثانوي الديني والقسم العالي للتخصص لمدة ثلاث وعشرين سنة. وأقام مجلسا علميا شهيرا بداره، كما سيأتي ذكره، وأُجيز بالتدريس في الحرم المكي.

- الشيخ عبدالله سعيد اللحجي المكيّ (1924-1989م). مفتي الشافعية بمكة في زمانه. من مشائخه روّاد باب الزيادة: محمد العربي التباني، وحسن المشاط، والفرسان الثلاثة: السيّد علوي مالكي، ومحمد أمين كتبي، ومحمد نور سيف. أبرز طلابه: السيِّد محمد بن علوي المالكي، ومفتي دبي السيد أحمدعبدالعزيز الحداد. أُجيز بالتدريس في المسجدالحرام، وكانت حصوته بين باب الندوة وباب الشامي. درّس بالصولتية زهاء ثلاث وعشرين عاماً. ترجم له تلميذه أحمد عبدالعزيز الحداد في **نشوة الشجي في ترجمة شيخنا اللحجي**، وترجم له السيّد محمدبن علوي مالكي، في مقدمة كتاب اللحجي **مُنتهى السهول شرح غاية الوصول إلى شمائل الرسول** (أربعة مُجلدات).

- الشيخ محمد أمين مرداد المكّي (1907-1990م). آخر أئمة المقام الحنفي.كانت حصوته للتدريس تقع بباب السلام. يُعد آخر روافد المذهب الحنفي في مكة المكرمة. هو سليل عائلة آل مرداد العريقة في البلد

الحرام، التي تسلسلت فيها مشيخة الخطباء والأئمة بالمسجد الحرام، كما اشتهر أفرادها بالعمل في القضاء والتدريس على المذهب الحنفي. منهم الشيخ عبدالله بن محمد صالح مرداد، شيخ الخطباء والأئمة (ت:1855م)، وحفيده الشيخ عبدالله أحمد مرداد أبوالخير، مؤلف كتاب **نشر النور والزهَر في تراجم أفاضل مكة** (ت: 1924م)، والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن مرداد، شيخ الخطباء والأئمة (ت: 1841م) وابنه الشيخ عبدالمعطي مرداد، شيخ الخطباء والأئمة (ت: 1862م)، والمُحدّث عبدالمعطي بن محمد بن محمد صالح مرداد (ت: 1845م)، والشيخ محمد صالح بن سليمان مرداد، إمام أمير مكة الشريف يحيى بن الشريف سرور (ت: 1864م)، والشيخ عبدالعزيز مرداد، شيخ الخطباء والأئمة في مكة (ت: 1859م)، والشيخ أمين بن محمد علي بن سليمان مرداد (ت: 1924م)، المُدرّس بالمسجد الحرام.

ومن أشهر تلاميذه: السيّد علي البار، الشيخ عبدالله خياط (إمام المسجد الحرام)، علي خياط عبدالرحيم بسيوني، فضل البار، حس نبدوي، محمد غفوري، سعيد مكّاوي، محمدزيني بويان محمد إبراهيم أحمد علي، وأخيراً عبدالعزيز عرفة.

كانت منازلهم الشهيرة بباب الدريبة. ولهم حوطة خاصة بالعائلة بمقابر المعلاة، كما أسس أحد أسلافهم المُحدّث عبدالمعطي بن محمد بن محمد صالح مرداد، رباطاً شهيراً بحارة الباب.

المدّ الأخير.. القابضون على العِلم المكّي:

- السيّد محمد علوي مالكي (1943-2004م). من اجتمعت له كل رايات المشائخ المتقدمين في مكة والحجاز.

اعتبر في حياته ذروة العلم المكّي، وخلاصته، والأمين عليه. مارس دوراً أشبه بالمرجعية العلمية لشتات المدرسة المكيّة خصوصاً بعد خفوت دور الحرم المكّي العلمي، ورحيل أعلام الطبقة التي سبقته في سنوات متقاربة. كان أول من طوّر المجالس العلمية المكيّة بطريقة تشبه المعاهد النظامية. خلّف مدرسة عريضة في الحجاز وخارجه، ومن أبرز تلاميذه الفاعلين اليوم: الحبيب علي الجفري وأحمد بن عبدالعزيز الحداد في الإمارات، والشيخ نبيل الغمري، وأسامة منسي، والشيخ فريد أبوزبيبة، وابن أخيه السيد علوي بن عباس مالكي، وابنه السيّد أحمد بن محمد علوي مالكي في مكة، والسيّد عبدالله فدعق في جدة، والشيخ حمزة يوسف هانسون في الولايات المُتحدة الأمريكية.

منذ يفاعته كان نجماً صاعداً..سافر إلى الهند مبكراً دون العشرين من عمره، تلبية لدعوة الشيخ محمد علي زينل علي رضا في مقر إقامته التجارية ببومباي الذي طلب بانتداب من يكون فلاحياً ابن فلاحي فتم اختيار محمد بن علوي، وسيف الدين ابن الشيخ محمد نور سيف– وكلاهما فلاحي ابن فلاحي. ذهبا بالباخرة من ميناء جدة إلى الهند لمقابلة الشيخ محمد علي زينل، وقابلاه وجلسا عنده في قصره

المنيف ببومباي مدة شهرين..وكان الشيخ يرغب أن يبقياعنده لتعلّم اللغة الانجليزية واكتساب العلوم العصرية وخاطب والديهما في ذلك، ولكن الرد جاء بعدم الموافقة، فعاد المالكي ورفيقه إلى مكة، ومن ثم قَصَد الهند مرة أخرى منفرداً للتعلم في جامعة دار العلوم ديوبند الشهيرة، وأنهى دورة علمية في علوم الحديث لمدة خمسة أشهر، وألحقها برحلة لطلب العلم والمعرفة متنقلاً بين بومباي وحيدر آباد وديوبند وسهارنفور وكراتشي وأخذعن جملة كبيرة من علماء تلك البلاد. والمالكي درَسَ في جامعة محمد علي السنوسي بليبيا، وفي جامعة الأزهر وهو دون العشرين.

كان المالكي شخصية مرموقة في المجتمع المكّي، بما شكّله من امتداد لقيمة والده الشيخ علوي في إحياء مجالس العلم بمكة.شارك محمد علوي بمحاضراته في المواسم الثقافية برابطة العالم الإسلامي، وكان رئيساً للجنة التحكيم الدولية لمسابقة القرآن الكريم بالمملكة عدة سنين (1401/1400/1399هـ) وفي عام 1970م عُيّن دكتورا بجامعة أم القرى، وبعدها بعام تسلم مقعد والده للتدريس بالحرم بعيد وفاته قبل أن يصطدم بتيار الغلو بالمؤسسة الرسمية وتقع واقعة محنته الشهيرة.

اشتهر المالكي مُحدثاً، فأخرج العديد من الأثبات والفهارس، وتنتهي إليه غالبية الأسانيد العالية في مكة وفيه يصب 286 شيخا أغلبهم من مكة. ومن كتبه في الحديث وأصوله: **عناية الأمة بالسنة،كشف الغمة،المنهل اللطيف في أصول الحديث الشريف.**

وللمالكي اهتمام كبير بالتصوّف وبسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله، ومن مؤلفاته في هذا: **محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل، تاريخ الحوادث النبوية، الذخائرالمحمدية، مفاهيم يجب أن تصحح شفاء الفؤاد في زيارة خيرالعباد، وهو بالأفق الأعلى، القدوة الحسنة في منهج الدعوة ضرورةالرجوع إلى السنة النبوية .**

كما نشرعدداً من الأبحاث حول مشروعية الاحتفال بالمولد، كماقام بتحقيق وطبع عدد من الموالد منها مولد الشيخ علي القاري، ومولد ابن الديبع الشيباني.

وكان على طريقة الإمام أبي القاسم الجنيد في التربية والسلوك والتصوف، فشرح ووَضح وصحح الكثير من المفاهيم الشائعة. وله كتاب **المختار من كلام الأخيار** في الرسالة القشيرية، وهو جمعٌ لكلام أهل القوم، وتأكيد على منهج جمع الشريعة والطريقة، وتقديم الفقه على التصوف. والتصوف لدى المالكي هو التصوف الأخلاقي العملي، وليس التصوف الفلسفي.

وفي كتاب **أبواب الفرج** جمع محمد علوي مالكي، الأوراد الصوفيّة المكيّة في قالب مرجعي، لم يُسبق إليه في كتاب جامع للأوراد

والأذكار، بتحقيق يفرد ذكر الأدلة، وبيان كيفية تلك الأذكار والأدعية، وأسرار ترتيبها وأعدادها[64].

- الدكتور عبدالعزيز عرفة السليماني(1955 - إلى الآن)، شخصية علمية عالمية، يبرز آنياً كأحد أبرز ورثة المدرسة المكيّة، وهو مُزجى بمشارب مبرقشة تأتت من ارتحاله الطويل إلى المغرب (شيخه في الحديث مغربي، وشيوخه في الفقه مكيون، و شيخه في الطريقة الصوفية سوداني). ينتمي تاريخياً لعائلة مكيّة التزمت بالمذهبيّة الحنفية، والطريقة القادرية، وقدأثبت الشيخ عرفة، بعد استقراره الأخير في الحجاز، أنه ما زال محافظا على إرثه المكّي، بالرغم من غربته الطويلة.

هو حامل لواء السادة الغمارية التي تلقّفها من يد العالمَيْن الكبيرين؛ عبدالعزيز الغماري والسيّد عبدالله الغماري، وقد وصل لمرحلة "الحافظ" (يحفظ أكثر من مائة ألف حديث). وهو متخصص في مصطلح الحديث، وإن كان لا يميل إلى التقليد المذهبي. له مجلس علمي في جدة، ودروس متفرقة في عدد من المجالس بمكة وجدة، كما يُدرّس بالمدرسة الصولتية. ألّف أكثر من أربعين كتاباً في الجرح والتعديل والحديث والفقه. له أتباع كُثر في السودان، حيث مقر شيوخ الطريقة في السودان.. وينافسه على لواء السادة الغمارية، السيّد حسن السقاف (بالأردن).

---

(64) فهو يروي دعاء الفرج والرزق لأبي الحسن الشاذلي، ودعاء الفرج للرفاعي، وحزب النصر للإمام الشاذلي، وأدعية يس للحبيب عبدالله الحداد، ولسيدي أحمد بن إدريس، ودعاء ختم القرآن للإمام أحمد بن إدريس، ودعاء اللطف لسيدي أحمد بن إدريس، وأدعية اللطف السنوسية، وفوائد للإمام التيجاني، واستغفار جامع للإمام الحداد، والاستغفار الكبير للإمام أحمد بن إدريس، وأدعية جامعة واستغفارات للرفاعي، وأدعية التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، وصلاة الاستغاثة حسب الطريقة الإدريسية.

وكان قد لازم في مكة الشيخ محمدأمين مرّداد وقرأعليه أكثر كتب الفقه الحنفي.وقد أجيز بالتدريس في الحرم ودرّس فيه الحديث وأصوله، ومن مشائخه بالحرم المكيّ الشيخ محمد نور سيف، الذي قرأ عليه **فتح المقيت**. ثم انتقل إلى امتداده من المشائخ: الشيخ ياسين الفاداني والشيخ عبدالله سعيداللحجي،والشيخ اسماعيل الزين. كما قرأعلى الشيخ محمدعلوي مالكي بأمرم نالشيخ حسن مشّاط. وكانت رحلته العلمية إلى طنجة صوب الزاوية الصديقيّة عند السادة الغمارية وقد انفردالمؤلّف أنّه درَس على الكواكب الثلاثةعبدالله وعبدالعزيز وعبدالحي تلامذة [البحرالعميق] الحافظ أحمد بن الصديق، فدرس عليهم حتّى تمكّن من التذوٌّق العلمي في فن الحديث والأصول. كما درس التصوف على يدالشيخ عبدالله بن يوسف المكاشفي في السودان.

يعتبر نفسه أنه "ينتمي لمسلك العُلماء في التصوف الشرعي ويكره انحرافات أدعياء التصوف الدخلاء الذين شوّهوا سمعته ورونقه بالخرافات ومخالفة الشريعة" .

هذه السلسلة من العلماء تتنزل في هيكل تنظيمي تشد عُراه شبكة معرفية من إجازة وإسناد ورواية تربط فيما بينهم بشكل عضوي، بما يُشكل بنية مُستقلة (ومركزية إسلامية)، كما تفسح لهم المجال لتمثيل الامتداد الموضوعي لمركزيّة علماء العصر الوسيط.

كانت حصيلة المدرسة المكيّة الفقهية تُشكل المراجع الأساسية في النُظم القضائية والتدريسية بالحرمين وعموم الحجاز – قبل أن تتعرض بنيتها للإزاحة لأجل البنيّة الحنبلية الكلاسيكة– وانفراد الأخيرة بالسلطة الأيديولوجية الرسمية.

وكان يشرف على تسلسل المدرسة المكيّة هيئات تنظيمية وإشرافية؛ في عهد الدولة العثمانية كان أمر إجازة التدريس بالمسجد الحرام مناطاً بشيخ العلماء، حتى قامت مقامه هيئة مُنتخبة لإجازة التدريس بالمسجد الحرام، كان منها في لحظة من اللحظات: أحمد زيني دحلان وياسين الشامي ورحمةُ الله العثماني ومحمد صالح زواوي. ثم جاءت طبقة تلتّهم تكونت من: محمد سعيد بابصيل، وعمر باجنيد، ومحمد سعيد يماني، وعبدالرحمن وأسعد دهّان.

كما لعبت الوظائف الرسمية في مكة دوراً في حفظ صدارة التمثيل لبنيتهم ومنح سلاسلهم أسباب الشرعية والاستمرارية والذيوع.

كان من الوظائف الرسمية المحصورة في مخرجات بنية المدرسة المكيّة: مفتي مكة، شيخ العلماء بالمسجد الحرام، شيخ الخطباء والأئمة، قاضي القضاة، مفتي الشافعية، مفتي الأحناف (وهو غالباً مفتي مكة أيضاً)، مفتي المالكية، مفتي الحنابلة، أئمة المقامات الأربعة، وشيخ السادة. كان تعيين مفتي الأحناف من اختصاص مفتي الدولة العثمانية

بالإستانة، فيما يجري تعيين مفتيي باقي المذاهب الفقهية من اختصاص الشريف المحلي.

- خارطة مجالس الذكر والمجالس العلمية بالحجاز عام 2011:

تُعد هذه المجالس، التي تقوم على أساس المبادرة الأهلية الصرفة، الامتداد العضوي، والوَريث الشرعي للمدرسة المكيّة.. على مستوى البنية المعرفية والحصيلة الفقهية، والمناهج والمصادر، وسجّلات الاتصال والتراكم البشري، ومصبّات الإجازات المُتسلسلة، ومآلات الأسانيد العالية الخاصة بعلماء الحجاز المُتقدمين.

ويتنازع جناحان في مكة المكرمة راهناً صدارة التعليم المُنتظم وفق مناهج المدرسة المكيّة؛ هنالك آل المالكي (المذهب المالكي)، وآل الزين (المذهب الشافعي).

1. مجلس آل المالكي: يعود إلى بيت المالكي العريق بمكة المكرمة، وهو قائمٌ منذ كان مقرّه الأصلي بباب السلام، ومن ثم في تنقله إلى النقا، والعتيبية، وأخيراً إلى مقره الأخير بحي الرصيفة. يديره راهناً السيّد أحمد بن محمد بن علوي بن عباس بن عبدالعزيز مالكي.

   ومؤسسه في نسخته الحالية، هو الشيخ محمد علوي مالكي، الذي يُعد المؤسس الثاني للمدرسة المكيّة الحديثة، وأحد أبرز فُرسانها. حيث تلقف حالة التشظي والتشرذم والانقسام التي

كانت سائدة، ووحَّدها في مجلس علمي تربوي له نظام وبرامج ومناهج ومُخرجات واضحة.

وينقسم الطلاب المنضمون إلى مجلس آل المالكي إلى: أبناء الأهالي من أهل مكة، والطلاب الداخليين: يأتون مبتعثين من أندونيسيا، وماليزيا، وتركيا، وحضرموت. يمكث فيها الطالب خمس سنوات، يتم إيواؤه خلالها في سكن داخلي. ويرتبط بمجلس آل مالكي عدة معاهد تناهز الـ 45 معهداً متفرقة في جزائر الملايو وجاوه.

ومن أبرز طُلاب السيد المالكي وأعيان مجلسه من المكيين: من الطبقة الأولى: عبدالله بصنوي سرور باسلوم، عربي مغربي، أحمد موسى، يوسف نشّار، الدكتور عاصم حمدان، محمد نور قاري، أحمد عرفة، وعبدالحليم تركستاني. ومن الطبقة الوسيطة: السيد عبدالله فدعق، إبراهيم شُعيب، محمد العيدروس، سمير برقة، نبيل غمري، عادل أبوالعلا، محمود اسكندراني، محمد أمين مقصود، محمد أمين قاري، هاشم فلاتة، محمد بن هلال، الدكتور صبغة الله غلام، الدكتور محمد طاهر ولي، نبيل خوندنة. ومن الطبقة المتأخرة: محمد فريد أبوزبيبة، طارق مهيوب، سمير سبهاني، أسامة منسي، عدنان مالكي، معن الدباغ، حسين شعيب، أحمد جمل الليل، ميسّر جمل الليل، أحمد الزغير، ومحمد أمين العطاس.

والقيّم على مجلس آل المالكي راهناً: السيّد أحمد بن محمد علوي مالكي (التفسير)، ويعاونه مُدرسون كانوا مُلازمين لوالده: مثل

السيّد أيوب الأهدل (علم المنطق)، والسيّد عيدروس العيدروس، والشيخ محمد فريد أبوزبيبة. ويؤتمَن القيّم على هذا المجلس على أسانيد الراحل محمد علوي مالكي التي تصله بـ 122 شيخاً حجازياً في ثلاث طبقات بعد والده السيد علوي، وتصل الى حوالي 405 سندا عاليا.

2. وثمة فرع آخر لبيت المالكي، بقيادة السيّد علوي بن عباس بن علوي المالكي (ابن أخ السيّد محمد علوي مالكي)، مقره بالستين. مُختصّ بتدريس الفقه المُقارن. وهو من أبرز المجالس العلمية بمكة راهناً.

3. مجلس آل زين: على المذهب الشافعي. هو الجناح الثاني في الحجم والمكانة في راهن مكة: موقعه أيضاً بحي الرصيفة (وقديماً في حارة المسفلة)، وهو امتداد لمجلس الشيخ الراحل اسماعيل بن عثمان زين. وهو مجلس حاشد يحضره عدد كبير من التلاميذ من أهل مكة ومن الطلبة الأندونيسيين المُبتعثين. ويقود مجلس آل زين حالياً ابنه محمد بن إسماعيل الزين (من مواليد 1973م)، وهو حاصل على الدكتوراه من جامعة أم القرى بكلية الشريعة تخصص فقه وأصول الدين. ويعاونه مجموعة من طلاب أبيه كالشيخ أحمد جمهوري البنجري.

كان الشيخ الراحل إسماعيل الزين يُدرّس الرسالة القشيرية في التربية الروحية والتصوّف، وإحياءعلوم الدين للغزالي في السلوك.

ومن مخرجات مجلس الشيخ إسماعيل الزين:

حسين بن راجح، الدكتورقاسم الاهدل، الشيخ صالح ناضرين، الشيخ عبدالعزيز اكرام الدكتورفؤاد سندي، أحمد عبدالعزيز حداد (مفتي دبي)، محمدعلي يماني، صديق لشكر أحمد جمهوري بن جري،عبدالله شافعي،الدكتورإبراهيم ركة، الدكتور عبدالله العبادي، وداعةالله حسن الأهدل، والشيخ محمد فريد أبو زبيبة، والشيخ أحمد بن بازاري(من علماء إندونيسيا) والشيخ محمد نورالدين مريو بن جر(من علماء اندونيسيا)، وطيفور وفاء.

ومن المجالس في مكة:

4. مجلس آل البار: من أعرق المجالس العلمية في مكة، وإن خفَتَ دوره التربوي؛ وآل البار عائلة علمية مكية عريقة. يعود تاريخ تأسيس المجلس إلى العشرينيات الميلادية من القرن الفائت ويُعزى تأسيسه إلى السيّد عيدروس سالم البار (1873-1947م)، وهو أمين عام "الكتب خانة" في عهد الشريف حسين[65]، وأعقبه في قيادة المجلس أخوه السيّد أبوبكر سالم البار (1884-1963م) المُدرّس بالمسجد الحرام برواق الباسطية وباب العتيق (وكان يروي بالإجازة عن [المُرشد] أحمد بن حسن العطاس).. وعُرف مجلس آل البار العلمي بالسبتية، والثلوثية، كما عُرف بـ "منتدى السادة العلويين"، وكان مقرّه بدار السادة آل البار بجبل الكعبة، ثم انتقل بانتقالهم إلى جرول خلف مسجد سيدي محمود، ثم

إلى حي الرصيفة، ومنه إلى المقر الحالي بساحة إسلام. وتناوب على احياءه: السيّد علي بن عيدروس البار، وعبدالله بن علي بن عيدروس البار، والسيد فضل بن عيدروس البار، وبكري بن أبوبكر البار، وحسين عبدالقادر سالم البار، ونفرٌ من أصهارهم من آل زمزمي. ويشرف عليه حالياً السيّد علوي بن فضل البار، والسيّد عيدروس بن فضل البار. ويقتصر المجلس على قراءة كُتب السادة آل باعلوي مثل **النصائح الدينية والوصايا الإيمانيّة** للسيّد عبدالله باعلوي الحداد، وعلى نشاط الذكر، وقد استحال إلى ما يُشبه نشاط الروحة.

5. مجلس [الحبيب]عمربن حامد الجيلاني. فقيه شافعي، له مكانته العلمية الكبرى. ويُعد مجلسه بالحمراء (انتقل حالياً إلى حي السُبهاني) أحد أضخم المجالس العلمية القائمة في مكة المكرمة اليوم. يختلف إليه كثير من أبناء العوائل المكيّة العريقة والحضارم.
6. مجلس أبوبكرالعطاس بن عبدالله الحبشي (من أبناء حضرموت النازحين إلى أرض الحجاز). مجلس مختصر، ورثه عن والده.

---

(65) وردت ترجمة مُفصّلة عن العلاّمة [العارف بالله] السيّد عيدروس بن سالم البار المكّي لدى أبوبكر الحبشي في كتابه الدليل المُشير، ص 330 - 337، أوصل عدد مشايخه إلى تسعة وعشرين شيخاً، وقد ذكر أنه "حضر مجالسه العلمية، واستفدت الجمّ من فوائده البهية واقتطفت كثيراً من ثماره الجنية، وطلبت منه الإجازة فأجازني في العشر الأواخر من رمضان سنة 1341هـ [1923م].."، ويروي السيّد عيدروس البار عن شيخه[العارف بالله] محمد معصوم بن عبدالرشيد الدهلوي المدني والشيخ عبدالغني بن أبي سعيد الدهلوي المدني وعن الشيخ صديق بن محمد صالح النهاوندي، عن الشريف [العارف بالله]محمد بن علي السنوسي، وعنه يتصل بعلماء الحجاز:عمر بن عبدالكريم العطار المكّي، والشيخ عبدالحفيظ بن درويش العجيمي. (مصدر السلسلة: النفحة المسكية في الأسانيد المتصلة بالأوائل السنبلية للشيخ محمد ياسين الفاداني).

ومن المجالس المنبثقة عن مجلس آل مالكي، والتي لا تزال في طور التشكّل وتبلور الملامح:

7. مجلس السيّد نبيل الغُمري، (أم الجود) وهو أستاذ القراءات العشر والحديث، وأحد أبرز تلاميذ الشيخ الراحل محمد علوي المالكي، كتب **الأسوار المُشرقة على مشيّخة وأسانيد شيخ مكة** وهي ثلاثة مجلدات عن صاحب مُسند مكة السيد محمد علوي مالكي، نشرها بعد مرور سنة من رحيله. يحضر مجلسه جمعٌ غفير من الطلاب والمرتادين من شباب مكة والطلاب المجاورين. والشيخ الغمري عازف عن الظهور الإعلامي، متأسياً بطريقة بعض علماء مكة في أن "الظهور يكسر الظهور".
8. مجلس أسامة منسي، (الرصيفة) وهو من تلاميذ الشيخ محمد علوي مالكي، وهو إمام مسجد الشيخ علي أبوالعلا، وأستاذ قراءات.
9. مجلس حامد بن علوي الكاف، (الخالدية). وهو من كبار تلاميذ الشيخ محمد ياسين الفاداني، ومن تلاميذ الشيخ زكريا بيلا.
10. درس الدكتور عبدالعزيز عرفة، وهو درس أسبوعي يتنقّل بين منزل السيّد فؤاد أزهر ومنزل نايف أكبر... وهو درس في مصطلح الحديث.
11. وكذا دروس السيّد أحمد الرقيمي ودروس الشيخ علي جابر، ودروس الشيخ طارق سردار.

أشخاص اشتغلوا بالتعليم من دون مجالس تربوية. منخرطون في الحقل الأكاديمي—أو الإداري- بجامعة أم القرى، ويحملون مكانة وحظوة كُبرى:

- على رأسهم معالي الشيخ عبدالوهاب أبوسليمان (عضو هيئة كبار العلماء)، ويُروى عنه أنه قال: "إن محمد علوي مالكي كفانا – مشكوراً- مؤنة التربية والعمل على إخراج أجيال الطلاب". وهو خلاف تدريسه لتلاميذه المباشرين بالجامعة، يعمل على تقديم استشارات التحقيق، كما فعل مع علوي بن عباس مالكي، حين حقّق له رسالته في الفقه المقارن في البيع، وعلى تقديم الإجازات في الحديث بشكل ضيق ومحصور جداً، كما فعل مع الدكتور عاصم حمدان. وللدكتور أبوسليمان دور إحيائي للتراث والتاريخ المكّي، وله في ذلك جهود تأليفية واضحة، ناهيك عن نشاطه التطوعي في إعادة فهرسة مكتبة المُولد بسوق الليل، الذي يداوم عليه كل يوم اثنين، بمعاونة الدكتور عبدالله شاوش، وموقعه المركزي كاستشاري وباحث في موسوعة مكة المكرمة التي تشرف على إصدارها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ويديرها الدكتور عباس طاشكندي.
- الدكتور قاسم الأهدل (أستاذ الشريعة بجامعة أم القرى)، وهو أيضاً إمام مسجد الشيخ حسن مشاط في أم الجود ومن أبرز تلاميذ الشيخ حسن المشاط، لازم شيخه منذ كان في التاسعة من عمره طيلة عشرين عاماً. دَرَس بالأزهر، وكلية الشريعة بمكة.

- الدكتور محمد طاهر نور ولي (أستاذ الفقه والشريعة في جامعة أم القرى والأستاذ المساعد بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث).
- الدكتور صبغة الله غُلام نبي.
- الدكتور فؤاد سندي. يُلقّب بـ"شعراوي الحجاز" .. عالم لغوي، وناظم لشعر التصوف، مُلتصق بالمنظومة العلمية المكيّة، ومُلتصق بتيار التصوّف.

- نشاط المدرسة الصولتيّة العلمي:

الصولتية هي أول مدرسة نظامية بالجزيرة العربية (تأسست في مكة عام 1876م). تاريخياً لعبت دوراً محورياً في رفد الحركة العلمية بمكة المكرمة، إلى جانب دروس الحرم المكي، ومدارس الفلاح، ودار العلوم الشرعية. أما راهناً تنفرد المدرسة بمسار تقليدي، مُلحق بمنهج ضخم في سائر العلوم الشرعية من المراجع الأصلية. وتُدرس في الصولتية المذاهب السنيّة الأربعة على خلاف السائد الرسمي.. وهي بمثابة (أزهر) مُصغّر في مكة لطُلاب المراحل قبل الجامعية. انتقل مقرّ المدرسة راهناً إلى حي الكعكية، بعد إزالة مقرها التاريخي بحارة الباب نتيجة التوسعة الأخيرة (2009م). ويديرها ويُشرف عليها السيّد ماجد رحمة الله، وهو أحد أحفاد مؤسسها الشيخ رحمةُ الله العثماني الحنفي المكّي.

وإلى وقت قريب كان يُدرّس في الصولتية، أسماء لها ثقلها في المشهد العلمي، مثل: حسن المشّاط (رئيس المدرسين)، ومحمد العربي

التبّاني، والمُحدّث عمر حمدان المحرسي، والسيّد محمد أمين كُتبي وعبدالرحمن الدهّان، ومحسن المساوي، وسالم شفي، وعيسى الروّاس، وهاشم عبدالله شطا. وأعقبتهم طبقة تالية، تكونت من: اسماعيل الزين، وعبدالله اللحجي (الذي درّس فيها زهاء ثلاث وعشرين عاماً حتى إنه وضع كتاباً اسمه **إيضاح القواعد الفقهية لطلاب المدرسة الصولتية**)، ومختار مخدوم، وزكريا بن عبدالله بيلا (ووضع كتاباً بعنوان **مجمل تاريخ المدرسة الصولتية**). وجاءت الطبقة التي بعدها: السيّد أحمد الرقيمي، وأيوب الأهدل. وحالياً يدرس فيها الشيخ عبدالعزيز عرفة، والسيّد أحمد بن محمد علوي مالكي، والسيّد عبدالله فدعق، والشيخ طارق سردار، والشيخ محمد مكّي الهندي، والشيخ محمدعوض منقش، ومحمد عدنان أمفنان.

المعقل العلمي الآخر في مكة الذي تقاسم مع الصولتية، العراقة والريادة والصولة والمد العلمي، هو مدرسة الفلاح المكيّة[66]، لكنها انحسرت عن أدوراها، وتحولت بشكل كامل لاقتباس المنهج الرسمي التابع لوزارة التعليم. ويقع مقرّها الحالي في ساحة إسلام، ويديرها الدكتور عبدالعزيز سرحان من أهل مكة.

وكان هناك مدرسة أخرى، في مكة، لعبت دوراً في رفد الحياة العلمية المكيّة، اسمها: دار العلوم الدينية. وكان شيخ المدرسين فيها:

---

(66) أسسها تاجر اللؤلؤ الحِجازي: محمد علي زينل علي رضا في مكة المكرمة عام 1912م، بعد أن كان قد أسس فرعها الأول في جدة منذ عام 1905م.

العلاّمة محمد علي المالكي، ودرّس فيها القاضي المكّي ابراهيم داود فطاني. أسسها في 1935م، كل من: محمد ياسين الفاداني، والسيد محسن المساوي، وزبير الفلفلاني، وثلاثتهم كانوا مُدراء لها بالتعاقب، آخرهم محمد ياسين الفاداني.

ويقتصر نشاط التأليف والنشر والتوزيع لكتب التراث المكّي والعناوين المذهبية المختلفة وعناوين التسلّك الصوفي راهناً على (المكتبة المكيّة) بالعزيزية.. التي أسسها غسان مظهر نويلاتي، في عام 1994م ويشاركه فيها حالياً السيّد سمير برقة، ويحيى خوجة. ولقصة تأسيسها قصة شهيرة، تمثلت في رفض وزير الإعلام الأسبق علي الشاعر، التصريح لها باسم (المكيّة)، قبل أن يوافق عليه فوراً، عقبه الوزير فؤاد فارسي. ومن إصدارات الدار الخارجة عن السائد: **عوارف المعارف** للسهروردي، وكتاب **المستخلص في تزكية الأنفس** لسعيد حوى.

مجالس الذكر القائمة في مكة مع مطلع عام 2011:

1. مجلس السيّد عباس بن علوي مالكي (الستين).. هو أبرز- وأعرق- المجالس المكيّة القائمة والسيّد عباس يُلقّب بـ(مُنشد الحجاز)، وهو أبرز روّاد فن الإنشاد والذكر والتصوف والمديح في الحجاز. يُتلى في مجلسه أوراد من دلائل الخيرات، وفيه الصلاة على النبي، وإنشاد المجّسات على الطريقة المكيّة التقليدية لقصائد المديح للبرعي، والبوصيري، ومحمد أمين كُتبي، وابن الفارض،

وعبدالغني النابلسي، والحِبشي، والشاطري، والحميدي، والبزار والدنجلاوي، وسفينة الفلك.

2. مجلس السيّد حسن فدعق (الرصيفة)، وهو من أعرق مجالس الذكر في مكة. يُعقد كل أربعاء للأوراد والأدعية، وهو مجلس مكّي عريق، أقامه الشيخ حسن فدعق منذ عام 1924م ويُسمى بالـ(الروحة)، وكان يُعقد في حارة الباب بمكة المكرمة، ومن مؤسسيه أيضاً السيّد محمد بن عبدالله العيدروس، والشيخ عمراليافعي، والشيخ زيني بويان المقرئ المكّي الشهير وكان من روّاده أيضاً الشيخ عبدالله دردوم، إبراهيم مجلد، سالم باحشوان، عمر عيديد عبدالكريم فلمبان، عبدالرحيم ملاه وغيرهم. ويديره راهناً ابنا السيد حسن فدعق؛ طه فدعق وعُمر فدعق.. ويعاونهما إخوانهم عثمان وأحمد وعلوي وإبراهيم.
3. مجلس السيد جعفر شيخ جمل الليل (الرصيفة).. ويديره حاليا ابنه اللواء محمد جمل الليل.
4. مجلس حُسني سابق (العُمرة).
5. مجلس عبدالرحمن شلي (الستين).
6. مجلس زيني بويان (الششة).
7. مجلس محمد كلنتن (النوارية).
8. مجلس إبراهيم الصائغ (الستين).
9. مجلس ذاكر خوج (النزهة).
10. مجلس إبراهيم الأسطة (الستين)، ومن أبرز روّاده الشيخ عبدالعزيز عرفة.

11. مجلس عبدالرحمن خوقير (الزاهر)، ترتفع فيه القصائد والمدائح والدانات يحييها المُنشد محمد ملا.

مجالس العلم وروحات الذكر في جدة مطلع عام 2011:

1. مجلس الحبيب عبدالقادر السقاف (1913-2010م). مفتى حضرموت سابقاً، استقر في جدة بعد مضايقات الاشتراكيين للنشاط الصوفي في سيئون. وافتتح مجلسه العلمي في جدة منذ عام 1971م، بحي النُزلة الشرقية، يُدرّس فيه الحديث والتصوف والسير والأدب الظاهر والباطن. وقد تعرض المجلس لمضايقات هددت استمراره، حتى تحوّل لمجلس خاص للمُدارسة، ينوب فيه عنه أولاده بعيد رحيله. ومن أبرز مُخرجات المجلس: الحبيب أبوبكرالعدني المشهور،الحبيب علي الجفري،الحبيب محمد عبدالرحمن السقاف.

كان الحبيب السقاف، يستحوذ على المشهد الصوفي في جدة حصراً منذ السبعينيات، وأتباعه وتلاميذه مزيج من الحضارم والأهالي. لعب الحبيب السقاف دوراً قيادياً، فكان يتنقل بين مجالس الأحباب، ومجالسهم في الحجاز متعددة. ولمدرسته امتدادات في ملايو: في كقرسيو جاكرتا والصولو وسوربايا وفاسروان.

ولمجلس السقاف مواسم واحتفالات للموالد الشريفة، سواء في مجلسه أو مجالس غيره في جدة وفي مكة المكرمة أوالمدينة المنورة

أو في الطائف. ويقيمون في شهر رمضان "روحة" يومية تعقد في فناء البيت يقصدها جماعات بأعداد كبيرة للأخذ والاستمداد.

2. مجلس السيّد عبدالله فدعق (مجلس الروحة).. فقيه شافعي، وداعية إسلامي معروف.لازم شيخه محمد علوي مالكي طيلة ثلاث سنوات وأخذ عنه الأسانيد العالية، كما لازم جده السيّد حسن فدعق، الذي جعله يتصل بمشائخ الحجاز المتقدمين: عيدروس البار، حسين الحِبشي، ومحمد بابصيل، والشيخ عمر حمدان المحرسي، والشيخ عمر باجنيد.

دشّن مجلسه في جدة في عام 1998م، ويُعقد كل يوم أحد في مُجمّع البيوتات السكني بحي الشاطئ، ويُدرّس فيه الفقه الشافعي، والحديث، والسيرة النبوية، كما يقوم بدور إحيائي للمنظومة العلمية الحجازية. يحضر مجلسه جمعٌ غفير من أبناء العوائل المكيّة النازحة إلى جدة، كما يحضره جمعٌ كبير من الشباب الحجازي المثقف والمحترف مهنياً، ويتميّز بأنه أول المجالس التي تنفتح بشكل دوري على جمهور مشترك من الرجال والنساء.

ومن أبرز طُلاّب السيّد الفدعق: هاشم حسين مراد رضا، ماجد الشيبي، أحمد منسي، علاء عطار عبدالله كامل، رضا حريري، عزت زيني، عبدالله جمبي، بدر رضوان، مروان ركن، محمد عرب، ومحسن الشيباني.

يحضر في مجلسه الإنشاد عن طريق المُنشد والمُقرئ على الطريقة الحجازية: هاشم باروم.

يبرز السيّد عبدالله فدعق في استقطابه للشرائح الاجتماعية الصاعدة والمُتعلمة والنخب، ويتميز بحضوره الإعلامي الواسع كداعية يملك حظوة تتخطى حدود الجغرافيا المحليّة.

3. مجلس الشيخ عبدالله بن بيّه (حي مشروع الأمير فواز). وزير العدل الموريتاني السابق، رئيس المركز العالمي للتجديد والترشيد، ونائب رئيس الإتحادالعالمي لعلماء المسلمين خلف الشيخ القرضاوي، والمُحاضِر بجامعة الملك عبدالعزيز. له درس كل أربعاء يُطلق عليه "درس العُلماء"، يحضره صفوة علماء الحجاز من أمثال الدكتور عبدالوهاب أبوسليمان، الدكتور عادل قوتة الدكتور هاني عبدالشكور، الدكتور حسان فلمبان، الدكتورأحمد الزمزمي، والسيّد عبدالله فدعق.. ويُدرِّس فيه فقه المُعاملات.

4. مجلس الدكتور عبدالعزيز عرفة. وهو درسه ببيت التركستاني في جدة. ومن أبرز طلابه: صادق السنوسي، وموفق السنوسي، وغالي العطاس (وقد أخذ التحقيق منه)، ومجموعة من الطلاب البُخارية، حيث يعمل عرفة مسؤولا عن أوقاف البخارية في مكة. وللدكتور عرفة نشاط تدريسي موازٍ في جدة بسكن الجامعة لتدريس بعض أساتذة جامعة الملك عبدالعزيز.

5. مجلس الدكتور عمر عبدالله كامل (التحلية). وهو مجلس لتحضير الطلاب.والدكتور كامل مُتخصص في علم المنطق وعلم الرجال، وله إنتاج غزير في علم الكلام والمنطق والفرائض والسلوك. وهو من عائلة تجارية معروفة في الحجاز، يملك نفوذاً وتغلغلاً بين الطبقات التجارية والأُسر الحجازية. يعينه في

التدريس الشريف عبدالله فراج الشريف العبدلي، في تخصص أصول الفقه. ولكامل نزعة طُرقيّة مُعلنة في التسلك النقشبندي.

6. مجلس الدكتور هاشم مهدي (حي مشروع الأمير فواز).. وهو القيّم على المجلس العلمي للمهندس عادل محمد فقيه.
7. مجلس عدنان بن علي بن [الحبيب] أحمد مشهور بن طه الحداد . يُدرس فيه الفقه الشافعي يومين في الأسبوع.
8. محمد عبدالرحمن السقاف. الحضرمي مولداً، الحجازي نشأةً. أخذ العلم من الحبيب عبدالقادر السقّاف، والحبيب أحمد مشهور الحداد، وأبوبكر العدني المشهور. له نشاط علمي دولي واسع. يشتهر أكثر بإقامته لعصريات طيلة شهر رمضان.
9. مجلس آل بترجي (صاري). يديره الدكتور فهد الخياط.
10. مجلس الأحدية.وهو مجلس مُتنقّل بشكل دوري بين بيوت محمد عجاج وواصف أحمد فاضل كابلي، وعبدالملك نمنكاني، ويوسف بشناق، وأحمد سمباوة –كان يعقد برئاسة للشيخ المكّي الراحل: عبدالعزيز بن محمد خليل طيبة، وهو مستمر بدونه.
11. مجلس الشيخ عبدالقادر خِردّ. وهو من المجالس الممتدة منذ كان في مكة - أُوقف أخيراً.
12. ثمة دروس فردية أيضاً للشريف أحمد العرضاوي، وللشيخ غسان القين، وهو من أهل القصيم أصلاً، ومن سُكان المدينة المنورة قبل انتقاله إلى جدة ومن تلاميذ الشيخ حسين أيوب.

13. مجموعة من الأهالي والأعيان يقيمون مواسم للذكر والسيرة النبوية والموالد النبوية، من أبرزهم: حامد فايز، أحمد زكي يماني، صالح كامل، زكي مصطفى إدريس، محمد عبده يماني (مجلس البدرية)، بيت الدباغ: مجموعة الطيّب الدباغ، ثم مجموعة عدنان الدباغ، بيت أبوزنادة ماجد طيّب، أجواد الفاسي، أحمد عقاد، الدكتور عادلأبوالعلا، عبدالله باهيثم، عبدالحميد بشناق وعادل بخش– وغيرهم.

مجالس العلم وروحات الذكر في المدينة المنورة مطلع عام 2011 :

1. الحبيب زين بن ابراهيم بن سميط. فقيه شافعي، مجاور في المدينة المنورة منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود. كان له درس شهير في مسجد قُباء، ثم تعرض لتضييق شديد. توَّسط له في الآونة الأخيرة الشيخ محمد عبده يماني، وكفله لدى السلطات أمين العاصمة المُقدسة السيّد أسامة بن فضل البار. يشتغل بالدرس والذكر في مجالس متفرقة بالمدينة.
2. الشيخ خليل ملا خاطر، فقيه شافعي كبير، أصلاً من أهل الشام. وهو عالم سيرة نبوية متخصص في فضائل المدينة المنورة. كان من روّاد مجلس السيد محمد علي الحلبي للذكر بمقره بزقاق الطوال عند مرقد عبدالله بن عبدالمطلب. يُدرس علم الحديث بجامعة طيبة. مقرّه الحالي بحي الأزهري (النسيم) بالمدينة المنورة.

3. مجلس الشيخ محمد عوّامة الحلبي، وهو من كبار المُحدثين. لديه مركز خدمة السنة والسيرة النبوية لتحقيق كتب السيرة النبوية، مثل كتاب "إتحاف المهرة"، كما أسس مكتبا لتحقيق التراث الإسلامي، الذي يموّله رجل الأعمال صالح كامل.
4. الشيخ ابراهيم الإبن. وهو مُحدّث، وعالم فقيه يعتمد المذهب المالكي. تجاوز التسعين عاما وقد انعزل عن المشهد العلمي قبل فترة وجيزة.
5. الشيخ محمد محمد المختار الشنقيطي (من مواليد 1966). من علماء المالكيّة في الحجاز. مُدرّس في الحرم النبوي، وعضو هيئة كبار العلماء في تشكيلته الأخيرة (14-2-2009م). تتلمذ على يد والده، المدرس بدوره بالمسجد النبوي، يعتمد مذهب المالكية في التقرير والتفريع. كانت له ثلاث مجالس يُقرئُ فيها الفقه، في جدة ومكة إلى جانب المدينة المنورة حيث يُدرّس كتاب **عمدة الأحكام.**
6. مجلس أبناء السيّد محمد صالح المحضار المَدَني، وكان والدهم الشيخ محمد صالح المحضار من علماء الحديث، ومن كبار مقيمي الموالد النبويّة بالمدينة المنورة. وجدُّهم لأمهم هو الشيخ حسن الشاعر، شيخ المقرئين، ووالد [معالي الشيخ] علي الشاعر، وزير الاعلام السعودي الأسبق. لديهم درس كل رمضان في صحيح البخاري، بالحرم النبوي. ومجلسهم امتداد لموالد آل محضار وآل الشاعر الشهيرة في دورهم المتلاصقة بباب المجيدي،

وكان والدهم يقيم موالدَ شهيرة خارج المدينة؛ في مكة (فندق الخوقير)، وفي الهدا بالطائف.

7. مجلس بيت الشقرون .. وهو التقاء الطريقتين الشاذليّة المَدنية، والرفاعية في المدينة المنورة.
8. الشيخ المُحدث مالك بن العربي بن أحمد الشريف السنوسي.. يُعتبر مسندا في الحديث ويستقبل في داره طلاب الرواية بشكل دوري.
9. الشيخ عدنان السقاف. مُحدث ولديه إسناد عالي. وهو من تلاميذ [الحبيب] أبوبكر العدني المشهور.
10. حضرات عبدالعزيز بن عبدالرحمن كعكي. وهي امتداد لموالد والده عبدالرحمن كعكي الشهيرة منذ كانت تقام في فناء حوش المنّاع.
11. حضرات تقام في مجلس الشيخ عبدالعزيز المِكوار.
12. حضرات تقام في منزل الشيخ عبدالوهاب بن إبراهيم فقيه، ببستان آل الفقيه.
13. حضرات بيت الميمني. يقيمها حالياً فريد بن عبدالستار الميمني، وأخوه يوسف، ومقرها بباب العوالي.
14. حضرات بيت أحمد غلام.
15. حضرات رضوان شيخ. امتداد لمجلس جده أحد علماء المدينة. مقرّها بالحرّة الشرقية.
16. مجلس أبناء محمود كظلّي. وهم يتبعون الطريقة الشاذلية.

17. مجلس البدريّة، ويشرف عليه أحمد الدبابش، ومقرّه عند بير جروان. وهو فرع لمجلس البدريّة الذي كان قائماً في مكة حتى عهد قريب، وكان يشرف عليه في نسخته المكيّة، حسن عايش القرشي، وحامد فتّة.

18. ومن رموز الإنشاد الصوفي بالمدينة المنورة: عبدالله فرج الزامل (وهو رجل مُعمر) يحظى بشعبية جارفة، كانت والدته: سعيّدة أُم خلف، سيدة تحظى بـ"كرامات" - كما في الوعي الشعبي.

-بقايا الطُرق الصوفية في المدينة المنورة:

- الطريقة السمّانية، التي انطلقت من المدينة المنورة منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وامتدت الى العالم الإسلامي، كان آخر ظهور مُعتبر لها في وطنها مع قيّمها الشيخ محمد سعيد السمّان المدني (1913-2006م)، و إن كان قد تلاه الشيخ عبدالقادر إبراهيم محمد زين سمّان – وهو من وجهاء المدينة المنورة.

وكان قيّم النقشبندية في المدينة المنورة إلى عهد قريب الشيخ الخالدي – وتلميذه الشيخ منظور هِندي انتقل إلى مكة، واستقر في حارة الفلق، وتتلمذ على يده السيّد أمين عطاس والشيخ محمد عبده يماني.

أما التيجانية، فشيخها كان محمد أبوالفيض إبراهيم، وهو سوداني الأصل، عمّر إلى فوق المائة، وتلاه أحمد سعد المجلّد.

- الطريقة الشاذلية، التي كانت ذات الشعبية الأكبر في ستينيات القرن الماضي بين عوائل المدينة المنورة كان قيّمها الشيخ يوسف باشلي، وكان شيخاً مهيباً استطاع أن يحفظ للطريقة وهجها واحترامها، وكان صاحب مواهب قيادية مكنّته من ضبط حركة مجلسه الحافل حينها بشكل مسرحي عجيب. توفي في حدود عام 1964م.. وتلاه في الطريقة الشيخ محمد شقرون، والشيخ هاشم شقرون، والشيخ محمد علي خيّمي وعبدالله مبروك. والطريقة الشاذلية تكاد أن تتلاشى إلا من تواجد رمزي في مجلس بيت الشقرون، الذي يديره محمد حفيد الشيخ هاشم شقرون.

- الطريقة الرفاعية، كان آخر قيّم مُعتبر لها السيّد حمزة الرفاعي، وأعقبه ابنه أحمد الرفاعي. وكان للرفاعية في المدينة المنورة، فرعٌ آخر بقيادة الشيخ عبدالله الرفاعي، ثم أعقبه ابراهيم ولي، وهي "رفاعية أفاريقية" .. كان مقر قراءتهم في رباط عزت باشا، ولهم قصائد مديح خاصة بهم مستمدة من ديوان **الوسائل المتقبلة** للفازازي. وأغلب المنتمين إليها من فئة الـ"تكارنة" المستوطنين المدينة المنورة منذ عهد الدولة العثمانية. بيد أن الرفاعية الأفاريقية التأمت مع الشاذليّة المدنية في مجلس رفاعي واحد يقوم حالياً في مجلس بيت (شقرون). ومن المفارق أن يكون أغلب حافظي التراث المدني العريق من دلائل الخيرات والبُردة الهمزية هم من أحفاد وأعقاب فئة "التكارنة".

وتقوم الطريقة العيساوية راهناً في المدينة المنورة لدى بيت أبو الذاكور، وهم من حاضرة المدينة المنورة من جذور مغاربية قديمة. أما الطريقة السنوسية، فثمة محاولات لإحيائها عبر الشيخ المُحدث مالك العربي السنوسي، الذي يُعد شيخ الطريقة السنوسية بالمدينة المنورة.

- امتدادات المدرسة المكيّة حول العالم:

امتدت الروافد المكيّة كأحزمة من الضوء لتنشّط الحركة العلمية في أصقاع العالم الإسلامي. وانفرطت المدرسة العلمية المكية بحزمة امتدادات عضوية توالت أصباح ظهورها في كلٍ من أندونيسيا وحضرموت والإمارات العربية المتحدة.

كان كِتاب مثل **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين** للسيّد بكري شطا (1850-1893م)، يُدرَّس في لحظة واحدة بالمسجد الحرام، والمسجد النبوي، وبالشرق الأقصى وحضرموت.

وحين عاد السيّد أحمد حسن العطاس من مكة إلى حضرموت، وكان قد تتلمذ فيها على يد السيّد أحمد زيني دحلان والسيّد حسين الحِبشي، قد ترك بدوره مدرسة عريضة من الأعلام الذين سيحضر في تكوينهم المعرفي المكوّن المكيّ منذ تلك الوهلة، منهم: العلامة عبدالله بن علوي العطاس، والعلامة محمد بن عوض بافضل، والعلامة أحمد بن عبدالرحمن السقاف، والعلامة محمد بن عثمان بن يحيى العلوي والعلامة

علوي بن طاهر الحداد، وأخيه العلاّمة عبدالله بن طاهر الحدّاد، والعلاّمة حسين بن أحمد الكاف، والعلامة عبدالله بن محمد بن عقيل العطاس، والعلامة حسن الكاف، والعلاّمة أحمد بن بكر بن سميط. كل هؤلاء خلّفوا من بعدهم طبقات من العلماء والدعاة الذين اتصلوا بالأسانيد العالية في الحجاز[67].

وفي دار المصطفى للدراسات الإسلامية، بتريم، قاعدة مدرسة آل باعلوي بحضرموت، نلحظ حضوراً كثيفاً للمناهج المكيّة في مقرر الدراسة المُعتمد مثل كتاب **فيض الخبير شرح منظومة التفسير** للسيّد علوي بن عباس مالكي وهو مكّي، وفي الحديث كتاب الحبيب عمر بن حفيظ[68]،بتأثيرمن شيخه الذي منحه الإجازة في الأسانيد، مُسند الحجاز محمد ياسين فاداني، وهو أيضاً مكّي. أما في مصطلح الحديث فيُدرّس كتاب **القواعد الأساسية في علم مصطلح الحديث** للسيد محمد بن علوي المالكي، وهو مكّي والمنهل اللطيف للسيد محمد بن علوي المالكي. وفي العقيدة تدرس **منظومة العقيدة للعوام** للشيخ أحمد المرزوقي المالكي[69]، وهو مكّي.. وفي السيرة يدرس **تاريخ الحوادث و الأحوال النبوية** للسيد محمد بن علوي المالكي.

---

(67) ومن تلاميذ العطّاس المباشرين من المكيّين: السيّد عباس بن عبدالعزيز مالكي، والشيخ عمر باجنيد المكّي.

(68) [الحبيب]عمربن محمد سالم بن حفيظ، هو مؤسس دار المصطفى للدراسات الإسلامية بتريم، منذعام 1994م. مشايخه في الحجاز منذ مطلع الثمانينات كانوا: الإمام[العارف] الحبيب عبدالقادر بن أحمد السقاف، و[العارف] أحمد مشهور بن طه الحداد، و[العارف]أبو بكر العطاس بن عبدالله الحِبْشي، وأخذ الإجازة في الأسانيد عن مسند مكة الشيخ محمد يس الفاداني، ومحمد علوي المالكي وغيرهم

(69) الشيخ أحمد المرزوقي المالكي المكّي (1205 - 1864م).. من أهل مكة، ومن آثاره: بلوغ المرام لبيان ألفاظ مولد سيّد الأنام (طبع في بولاق سنة 1286هـ. [1869م]).

وأسّس الشيخ محمد نور سيف بن هلال (1906-1982م)، مكانة معرفيّة مركزية في إمارة دبي، شكلت امتداداً متجذّرا للمدرسة المكّية الأم. كان الشيخ محمد نور سيف، وهو أصلاً من دبي، قد نشأ في مكة وتعلّم كبقية أبناء جيله في حصوات الحرم المكي، وتخرّج من الفلاح المكيّة. كان الزعيم الحجازي المعروف، وتاجر اللؤلؤ الأكبر في زمانه الحاج محمد علي زينل علي رضا، مؤسس عِقد مدارس الفلاح بالعالم الاسلامي، قد انتدبه لاستلام فرع مدرسة الفلاح في دبي التي افتتحها في عام 1928م، فظل بها زهاء عشرين عاماً. وفي نهاية عام 1948م، عاد الشيخ محمد نور سيف إلى مكة من جديد، فتعيّن مُعلماً بالفلاح المكيّة علاوة على قيامه بالتدريس بالحرم المكي، حيث بقي إلى أن توفي بها عام 1982م.كان الشيخ محمد نور قد أسس في أحد روحاته إلى دبي أول معهد ديني بها في عام 1962م، ووضع له منهاجاً مسايراً لمنهاج المدرسة المكيّة. ومن أبرز تلاميذ الشيخ محمد نور سيف، في الإمارات الشيخ أحمد حمد الشيباني [العجمي].

وقد تلقّف الراية منه في دبي ابنه الدكتور أحمد بن محمد نورسيف، المدير السابق لدارالبحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بإمارة دبي، الذي عمل على إخراج مشروع الفقه المالكي بالدليل، الذي اشترك في عضويته شيخ مكّي آخر هو الشيخ عبدالوهاب أبوسليمان عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية.

وكان للدكتورأحمد بن محمد نورسيف درس أسبوعي عامر في المسجد الحرام،حيث يُدرّس **ألفية الزين العراقي** في المصطلح بشرحها

فتح المغيث للسخاوي، ثم درسٌ في بيته في مكة للطلاب المتخصصين، وأكثرهم من طُلاب الدراسات العليا بجامعة أم القرى.

وظلت العلاقة بين المدرسة الرسمية في دبي وسليلي المدرسة المكيّة جوهرية ومُتداخلة. وحين عقدَت دارالبحوث في دبي مؤتمرها العلمي الأول في مارس 2003م، بغرض إثراء المذهب المالكي شارك زهاء مائتين وخمسين عالماً ومفكراً من أقطار العالم الإسلامي، لكن الشيخ محمد علوي المالكي كان زعيم الحضور ودُرّته. كان قد ألقى ورقة شهيرة بعنوان: **الفقه المالكي وأحواله في ظل الفقه الحنبلي بمكة المكرمة في القرن الرابع عشر**، وهو آخر ما كتبه قبل رحيله، وعبّر فيه عن جانب مهم من التاريخ المعاصر للمذهب المالكي في الحجاز.

كما ينشط الشيخ عيسى بن عبدالله بن مانع الحِميري، الشخصية النافذة في الأوقاف والشؤون الإسلامية في إمارة دبي، ومدير عام كلية الإمام مالك للشريعة والقانون، وله مجلس شهير في المديح والذكر، وقد درس الشيخ بن مانع الإجازة في الكتاب والسنة بجامعة أم القرى المكيّة، وهو محدّث أخذ الأسانيد العالية من الشيخ محمد علوي مالكي.

أما مفتي دبي الحالي السيّد أحمد عبدالعزيز الحداد، فهو خريّج –وابن– المدرسة المكيّة.

استقر الحداد في مكة منذ عام 1975م، والتحق بالشيخ عبدالله سعيد اللحجي المكّي، الذي رعاه تربيةً وتعليماً ونفقةً. ودرس على يد الشيخ محمد نور سيف، واتصل بالشيخ حسن المشّاط، وأخذ الإجازة من مُسند الحجاز محمد ياسين الفاداني، ودرس على يد السيّد محمد علوي مالكي، الذي بارك له جهوده في الإفتاء، والشيخ إسماعيل الزين. وكان قد التحق بالقسم الديني بالمدرسة الصولتية. حصل من جامعة أم القرى على درجات البكالريوس والماجستير (1989م) والدكتوراة (عام 1993م)، وكانت رسالته في الدكتوراة عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة. وقد التحق بدائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بإمارة دبي- بدعوة من مديرها عيسى بن مانع.

كما يبرزُ في أبوظبي، الحبيب علي الجفري، وهو أحد الطلاب المُباشرين للشيخ محمد علوي مالكي.. يتحلق حوله كتيبة من الأحباب آل باعلوي، ممن يحملون خلفية معرفية مختلطة يحضر فيها المكوّن المكّي بشكل بارز.

وتأثّر جنوب شرق آسيا بالتصوّف المكّي منذ القرن السابع عشر، نتيجة جهود أفواج وطبقات الطلاب الأندونيسيين العائدين من مكة، الحاملين لسلاسل وأعقاب الشيخ إبراهيم الكردي الكوراني في الطريقة الشاطرية [النقشبندية].

وفي القرن الثامن عشر، اكتسحت الطريقة السمّانية (نسبةُ لمحمد بن عبدالكريم السمّان)، المشهد الجاوي. كانت السمّانية أول طريقة تجد تغلغلاً شعبياً طاغياً في جنوب الشرق الأقصى. وكان عبدالصمد بالمبانغي هو من نقل السمّانية الى أندنوسيا، عن شيخه السمّان الذي اتصل به في المدينة المنورة. أما تلامذة خليفة السمّان؛ صديق عمر خان، فقد عملوا على ترسيخ السمّانية في البنية الشرقية، تحديداً في جنوب جزيرة بورنيو، وباتافيا، وسامباوا، وجنوب جزيرة سيليبس [سولاوسي]، وشبه جزيرة ملاي. وقد اندمجت السمّانية بالخلوتية، في طريقة فرعية كانت حصراً على العِرقية البوقسية المحلية(70).

وارتفعت السمّانية الى أعلى مراتب الحركات الصوفية في البلاد، خصوصاً في إقليم سومطرة، حتى أن سلطان بالمبانغ (جنوب سومطرة) قد ساهم في تمويل بناء الزاوية السمّانية في جدة، وفي تمويل نقل كتاب **حكايات الشيخ محمد السمّان** إلى اللغة الملايوية(71).

ومع دخول القرن التاسع عشر، انحسرت السمّانية لصالح طريقتين استحوذتا على المشهد الجاوي بشكل كاسح، كلاهما للمفارقة، جاء من الحجاز أيضاً، ولكن من مكة المكرمة هذه المرة.

---

(70) برنسين، الطريقة الخلوتية في جنوب سيليبس، مصدر أجنبي.

(71) بواداكسي، ص 335 - 336. مصدر أجنبي.

أولاً: الطريقة الخالدية. عن طريق إسماعيل مينانغكابو [منكابو] الخالدي(72)، الذي قدم من سومطرة إلى مكة مع والده صغيراً فنشأ بها، وأخذ الطريقة النقشبندية من مفتي الشافعية في مكة الشيخ محمد سعيد قدسي ثم عاد إلى جاوا ونقل إليها الطريقة النقشبندية (فرع الخالدية) في منتصف القرن التاسع عشر وكانت قاعدته مقاطعة رياو بأندونوسيا وسنغافورة.وانتشرت زوايا الخالدية في كل أرجاء أندنوسيا، نتيجة لجهود الإرساليات المكيّة التي قادها أتباع الخالدية في مكة: سليمان القرمي، وسليمان زهدي(73)، والشيخ علي رضا.

أما الطريقةالثانية، فهي الشاطرية التي مزجت بين النقشبندية والخلوتيّة – وأسسها الشيخ المكّي أحمدالخطيب بمكة، وكانت قاعدته في سلطنة سامباوا،غرب كلمنتن، فيما انطلق إشعاعها على طول الأرخبيل الملايوي. وتعد اليوم القوة الأكبر تأثيراً في أندونسيا الحديثة. كان أحمد الخطيب صاحب المكانة المركزية لطُلاب أندونسيا في مكة. وتمتعت طريقته بأتباع كثر كون طريقته رشّدت من غلواء طقوس الطريقة النقشبندية ومظاهرها الطرقيّة الحادّة.

(72) إسماعيل منكابو: توفي بمكة في حدود 1868م ودُفن بالمعلاة. ترك عقبه ابنين عالمَين: أزهري (وله ابنان إسماعيل وسالم)، ومحمد نور وذريته تعيش في مكة إلى اليوم، وتعد عائلة (منكابو الخالدي) من بيوت مشايخ الجاوة القديمة في مكة، أصحاب ثروة وأوقاف وأملاك.

(73) سليمان بن حسن زهدي الخالدي النقشبندي المكي (توفي 1891م). تسلّك في الطريقة النقشبندية في مكة على الشيخ الأرزيجاني. كان يُدرّس الهندسة والفلك في الحرم المكّي. توفي في مكة ودُفن بالمعلاة. وخلف عقبه ابن واحد هو علي تسلّك بدوره في الطريقة النقشبندية الخالدية. (الترجمة من نشر النور والزهر، ص 207).

ولعبت الشاطرية أدواراً جوهريّة ومعروفة في الجهاد المحلي ومقاومة الاستعمار، ابتداءً من عام 1888م في بنتن بجاوا.

والشيخ أحمد بن عبداللطيف بن عبدالله الخطيب (1860-1916م).. هاجر جدّه عبدالله من الحجاز، بعد دخول آل سعود إلى مكة عام 1803م، إلى بلدة كوتكرغبجاوا، فعُيّن إماماً وخطيباً فيها، حتى صار يطلق عليه لقب (خطيب نكرى)؛ أي خطيب البلدة، وترك أولاداً منهم عبداللطيف الذي أنجب أحمد الخطيب. وحين عاد الجد عبدالله إلى مكة للحج، احتفل أصدقاؤه وأقرانه المكيون بعودته وأقاموا له حفلات تكريم حضرها علماء مكة وأعيانها، فاشترى لأسرته منزلين بمكة وتركهما، وسافر إلى سومطرة، وقد عمّر بها إلى فوق المائة وترك ثلاثمائة حفيد.

أما أحمدالخطيب[74] فقد نشأ بدوره في مكة وتعلم القرآن واللغة الإنجليزية بها، كما درس الفقه والطريقة على يد السادة عمر شطا،وعثمان شطا،وبكري شطا. وقد تزوج لاحقاً من ابنة الثري المكي محمد صالح الكردي وهوأحد جُلساء الشريف عون الرفيق، قبل أن يُعيَّن مدرسا بالمسجد الحرام.. حيث كان يعقد درسه برحبة باب الزيادة – وكان يقصدها مئات الطلاب من أندونيسيا الذين يعودون إلى بلادهم للدعوة والتفرغ لنشر العلم –وكان من ثمرة تعليمه جهود تلاميذه الدكتور

---

(74) وأحمد الخطيب، هو والد عبدالملك أحمد الخطيب الذي كان رئيس تحرير جريدة القبلة المكيّة عام 1916م، وكان مُعتمد الشريف الحسين في مصر، ووالد الشيخ عبدالحميد أحمد الخطيب أحد أعضاء الحزب الحجازي الوطني ومؤسس جمعية الشُبان الحجازيين في مصر، وصاحب كتاب الإمام العادل. وآل الخطيب في مكة من أعرق الأسر، وأثرى الأعيان مطلع القرن العشرين، ولا تزال سلالتهم حاضرة إلى اليوم بين مكة وجدة.

عبدالكريم أمرالله وهو زعيم حركة الإصلاح بسومطرا الوسطى، والحاج أحمد دحلان (غير أحمد زيني دحلان) وهومؤسس الجمعية المحمدية في جاوا الوسطى[75].

ولأحمد الخطيب ستة وأربعون مؤلفاً لاتخلو منها مكتبة بأندنوسيا .. منها: **النَفَحَات؛ حاشية الورقات، والجواهر النقيّة في الأعمال الجيبية، وتنبيه الغافل بسلوك طريقة الأوائل** فيما يتعلق بطريقة النقشبندية .. ومن مؤلفاته بالجاوية الرياض الوردية في الفقه الشافعي **وضوء السراج في كيفية المعراج،وفتح المبين لمن سلك طريق الواصلين،ومسلك الراغبين في طريقة سيدالمرسلين**، وقد أورد قائمة بمؤلفاته الستة والأربعين الكاملة عمرعبدالجبار في فهرسته الشهيرة: **سيروتراجم** [76].

كان خليفته بعد وفاته عبدالكريم البنتني، وعُيّن مرشدا أعلى للطريقة الشاطرية في مكة. وكان من رموز الطريقة في أندنوسيا شخصيات نافذة مثل: كياي طلحة في سيبرون، وماديورسي كياي أحمد حسب الله.

ولعب مجموعة من المشائخ أدواراً مدرسيّة لافتة في تعزيز الاتصال بين مكة وجاوه.

---

(75) عمرعبدالجبار، مصدر سابق،40.

(76) عمر عبدالجبار، مصدر سابق، 41 - 44.

لايمكن إغفال الشيخ داودبن عبدالله الفطاني الجاوي (ت: 1845م) صاحب الرحلة الطويلة إلى مكة والمدينة، وسِجل شيوخه ممتلئ بمشاهير العلماء في عصره، ومايزال يلقى اهتمام الباحثين بسبب اهتمام حفيده بميراثه العلمي الذي وصل إلى مائة وواحد من الكتب في شتى فروع العلوم الشرعية، عَثرعلى ستة وستين أصلا منها حتى الآن؛ حيث أسس مطبعة خاصة بذلك في كوالالمبور سهلت على الباحثين مهمة مراجعة إرث الفطاني، وتتبع تلامذته الذين من بينهم علماء معروفون، حتى إن شهرته بلغت أن ينشر البعض كتبا باسمه لنشر كتبهم، وقدعقد مؤتمر لدراسة آثاره بولاية كلنتان لمدة يومين في عام 2002م.

ومن روافد الثقافة المكيّة في الشرق الأقصى، يبرز أيضاً الشيخ محمدبن عمر نووي الجاوي البنتني (1814 - 1898م)، وهو مُفسر متصوف، من فقهاء الشافعية. هاجر إلى مكة وعمره خمسة عشر عاماً وتوفي بالمدينة المنورة ودُفن بالبقيع. وكان يُعرف في جاوة بعالم الحجاز. له مصنفات كثيرة، منها **نورالظلام في شرح قصيدة عقيدة العوام** لأحمد المرزوقي، وفي التصوّف **مرقاة صعود التصديق في شرح سلم التوفيق** لابن طاهر. أخذ الروايات والإجازات في الحديث والطريقة، من أحمد زيني دحلان ومن شيخه أحمد الدمياطي. كما درّس في مكة الشيخ عباس مالكي والشيخ ابراهيم البيجوري مفتي مصر. وله أكثر من ثلاثة وعشرين كتابا بالملايوية.

ومع صعود الهوية الوطنية الحديثة مطلع القرن العشرين، فقدت الطُرق الصوفية، وهجها الاجتماعي ووظائفها السياسية، وبدأت في الأفول. وإن كان تيار من الطلاب الأندنيسيين والماليزيين لايزالون يتقاطرون مُبتعثين من مقاطعات بلدانهم صوب مجالس العلم المكيّة خصوصاً لدى مجلسي آل مالكي، وآل الزين في مكة.

-هل (الصوفية) هوية تمايز حجازية؟

يعود صعود نجم الصوفية في فضاء السجالات الوطنية، لتقديمها كقُطبيّة مُغايرة من قبل الفعاليات الداخلية، في خطاب مابعد سبتمبر 2001 وتلقف الإعلام الغربي لذلك الصدى وتحويله، عبر التكرار الناشئ من الاعتماد على ذات المصادر، إلى حقيقة نافذة في الوعي السياسي- الغربي لواقع التعددية الثقافية في السعودية.

كان صعود (الصوفية) كقطبيّة حجازية، تصطف جنباً لجنب مع القطبية السلفية الكلاسيكية الرسمية والكتلة الشيعية الجعفرية الأقلويّة المتواجدة بالمنطقة الشرقية، مسألة مُجحفة في حق الكُتلة الحجازية – حتى وإن كان صعوداً مدفوعاً بالنوايا الحسنة.

لقد رفع كثير من رموز الحِراك الحجازي، بعد سبتمبر 11، شعار "الصوفية" باستعجال. أرادوا استخدامه كطوق نجاة يلوذون به من غلواء

الأحادية السلفية على مستوى المؤسسة والوظائف الرسمية والمناهج وحركة النشر والإفتاء والدعوة والمرجعية الفقهية، ويضغطون به مقابل كسب إصلاحات سياسية وطنية أكثر شمولاً.

جرى ذلك دون الفطنة للمغالطة المعرفية والتاريخية الذي تجري من وراء اختزال الكتلة الحجازية في مرجعية دينية، ومن ثم اختزال تلك المرجعية الدينية في مكوّن (الصوفية) وحده.

ولا تبرز الصوفية حاضراً كمركزية استقطاب، كونها تفتقر لمسوغات ومؤهلات صعودها كبنية مرجعية.

ليس ذلك تبرؤا من الصوفية، أو تنازلا يفرضه أي امتثال للدعوات الأيديولوجية المضادة التي تغلو وتوغل في تجريم السلوك الصوفي حد إظهاره كرديف للهرطقة والخرافة والبدعة الشِركية.

هذا الوعي المتأخر نسبياً بات يُرصد بكثافة لدى أغلب النخب الحجازية سواء كانت مدنية أو دينية تحتمه بداهة أن التصوّف، يأتي كمكوّن واحد من عدة مكوّنات تحفل بها البنية الدينية الموروثة في الحجاز – التي تُعلي من شأن الفقه، دون أن تستبعد التصوف.

يقضي الإنصاف الاعتراف بكتلة مدنيّة في الحجاز أكثر تبلوراً وأوسع قاعدةً للبروز في قُطبيات الحوار الوطني. لكن والحديث عن نمط

ديني مُتنوّع، يُراد بالحجاز تقديمه انسجاماً مع دعوات إثراء التنوع في الخطاب الديني.. فالأدعى استدعاء النمط الأصيل في الحجاز... ألا وهو بنية المدرسة المكيّة - بكل حصيلتها وتراكمها المعرفي ومعالمها وتسلسلاتها وتنوعيّتها الجوهرية، المذكورة في هذه الدراسة لاَ اختزال البنية الدينية الحجازية في تيار التصوف — الذي سيتنفس الصعداء كتحصيل حاصل بعد الاعتراف الرسمي بمرجعية دينية مكيّة كرافد موازٍ وشريك بالمؤسسة الدينية الرسمية.

- نماذج من تغطية الصحافة العالمية للصوفية الحجازية بعد الحادي عشر من سبتمبر:

شكّل النشاط المؤسسي والدعائي الواسع، الذي اضطلع به الدكتور سامي عنقاوي[77]،كمُتحدث عن التنوع المكّي الزائل، والثقافة والآثار الحجازية التي كانت تتعرض لعملية مستمرة من الإزاحة التاريخية، مُقدمة لانبعاث أجندة شبه–منظمة لمطالب ثقافية بالحجاز، قدمت المكوّن

(77) الدكتور سامي محسن عنقاوي: من أبرز الشخصيات الحجازية المُعاصرة. بروفيسور في هندسة العمارة، ومؤسس مركز أبحاث الحج في الثمانينات الميلادية، الذي عني بتوثيق التراث الحجازي ودراسة ظاهرة الحج بكل أبعادها وأغراضها الحضارية. كان لظهوره بعد الحادي عشر من سبتمبر كمُنافح عن الثقافة الحجازية "المُهمّشة"، بمثابة انبعاث للخطاب الحجازي في السياقات الوطنية. وقد شكلت شخصيته الكاريزماتية، ومظهره التقليدي بالعُمة الغباني والجبّة المكيّة، ناهيك عن دارته (دار المكيّة) بطرازها العمراني المكّي التقليدي بجدة، مدعاة لتحلق كثير من النخب والشباب من حوله، والانخراط معه في تدوير ومباركة نشاطه الاجتماعي (منتدى المكيّة)، وحضوره الإعلامي المحلي والغربي.

الصوفي كأحد روافدها. وقد نشرت هنا نموذجان باكران في **النيويورك تايمز مقالتين عنه** [78].

أما ذروة صعود الصوفية بالحجاز كقُطبية وطنية، تُقارِع القطبية السلفية الكلاسيكية الرسمية، ومرجعية الأقلية الشيعية بالمنطقة الشرقية، في الخطاب الإعلامي الغربي، ما كتبته فايزة أمبا، مُراسِلة الواشنطن بوست في جدة وقتها[79] وما كتبه ستيفن شوارتز في الويكلي ستاندردعن الصوفية في الحجاز وعن مراسم التأبين الأسطورية التي رافقت وفاة رمز المدرسّة المكيّة الكبيرالشيخ محمد علوي مالكي[80].

Jidda Journal; Where the Prophet Trod, He Begs, Tread Lightly (78)
February 15, 2002 - By ELAINE SCIOLINO – New York Times
.A Movement in Saudi Arabia Pushes Toward an Islamic Ideal, and Frowns on the U.S
December 9, 2002 - By CRAIG S. SMITH - – New York Times
In Saudi Arabia, a Resurgence of Sufism; Mystical Sect of Islam Finds Its Voice in More (79)
Tolerant Post-9/11 Era
.Faiza Saleh Ambah; the Washington Post; May 2, 2006
Getting to Know the Sufis (80)
Jan 28, 2005, Vol. 10, No. 20 • By STEPHEN SCHWARTZ
The Weekly Standard

الصوفية السعودية وإعادة تشكيلاتها في الداخل

ياسر بن محمد باعامر(*)

شكّل منتصف أيار (مايو) 2003 منعطفاً مهماً في تاريخ الدولة السعودية الحديثة المرتبط بالعمليات المسلحة التي شنها "تنظيم القاعدة في الجزيرة العربية"، على أهداف حيوية مدنية وعسكرية، وهو ما أعطى لأركان المؤسسة السياسية العليا إشارات مهمة، استلزمت في حينها بلورة أو إعادة ما يعرف "بتشكيلات الأمن الاجتماعي القومي السعودي"، وتدعيم روافده عبر خاصية الحوار المدني مع الآخر، ليصدر بعدها قرار حكومي رفيع المستوى وبأمر مباشر من العاهل السعودي الراحل الملك فهد بن عبد العزيز في 24 تموز (يوليو) 2003 بإنشاء مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، لتوفير البيئة الملائمة الداعمة للحوار بين كيانات المجتمع وفئاته، حاملة في جعبتها العديد من الأهداف، على رأسها تكريس الوحدة الوطنية في إطار العقيدة الإسلامية وتعميقها عن طريق الحوار الفكري الهادف[1].

(*) باحث وصحفي سياسي.

(1) المنشورات الرسمية لمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.

تهدف الدراسة إلى توصيف واقع الصوفية التطبيقي[2]، ومساراتها الداخلية، وعلاقاتها البينية في المملكة العربية السعودية، ورموزها، وأثرها التمكيني، وسيناريوهات واقعها المستقبلي في ظل غياب رموزها المؤثرين.

وواجهت الدراسة صعوبات عديدة تتمثل في : ندرة المراجع العلمية والدراسات التي تتحدث عن هذه القضية، بشكل تفصيلي بعيد عن "الصبغة الإيديولوجية" ، بالإضافة إلى إشكالية أخرى تضاف ضمن قائمة "إشكاليات الدراسة"، تتعلق برغبة العديد من المصادر من "مختلف الأطياف" في عدم الإشارة إلى أسمائهم الصريحة، نظراً لحساسية الطرح الموضوعي لمثل هذه القضية، حيث لم يوافق على نشر أسمائهم سوى القليل، وهذا ما سبب عبئاً على الكاتب في نسب بعض المعلومات إلى أشخاصها.

ويمكن اعتبار دراستين (دراسات سابقة) تم الاعتماد عليهما في الدراسة : الأولى تعود لمؤسسة راند الأمريكية بعنوان (شبكات الإسلام المعتدلة)، والثانية محلية تعود لموقع أهل البيت بعنوان (شبكة العلاقات العامة في بلاد الحرمين وأدواتها: دولة، وهوية، وخصوصية وثقافة الحجاز)[3].

---

(2) وفقاً للموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الصادرة عن الندوة العالمية للشباب الإسلامي فإن الصوفية : حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقا مميزة معروفة باسم الصوفية

(3) وهما دراستان منشورتان في عام 2007، وسيأتي ذكرهما لاحقاً.

أرجو أن تكون المادة المقدمة نواة لدراسات مستقبلية أوسع، يمكن أن تبحث في تشكيل ملف لم يأخذ طابعه المتوقع، خاصة في المحورين "الاجتماعي و السياسي"، واكتُفي بالنظر إليه في مربع "المثاقفة والمناصحة العقدية" فقط، مع العلم أنه يحمل "درجة كبيرة من الحساسية"، التي لم تناقش إعلامياً وعلمياً – إلا بشكل يسير- وبحيادية بعيدة عن "الاستباق الإيديولوجي".

تأثير الحوار الوطني على الصوفية

يعتبر الحوار الوطني مهماً في رسم ملامح واقع "الإسلام الصوفي السعودي"، فبعد ثمان سنوات من تأسيس المركز الوطني، ورغبة رجل الدولة في تضييق مساحات الهوة بين فرقاء المذاهب والتيارات (بما فيها مستوى العلاقة مع المتصوفة)، عُقد لقاؤه الوطني الثاني في معقل متصوفة الحجاز، بمكة المكرمة، في أواخر ديسمبر (كانون الأول) 2003، وبمشاركة رموز الصوفية في الداخل فكان من أبرزهم الراحلون السيد محمد علوي المالكي(4)، والدكتور محمد عبده يماني(5) والدكتور سامي عنقاوي(6)،

---

(4) محمد علوي المالكي الحسني المكي (1367 هـ – 1425 هـ)، عالم دين مسلم يُلقب بمحدّث الحرمين، ينحدر من أسرة علمية عريقة، مما جعله يتوجه تلقائيا إلى تحصيل العلوم الإسلامية حتى أضحى من أهم علماء الحديث في عصره. تنقّل بين الكثير من الحواضر العلمية في العالم الإسلامي ليأخذ العلوم الإسلامية عن كبار العلماء، ولم يكن على وفاق دائم مع المؤسسة الدينية داخل السعودية، إلا أنه استطاع أن يواصل مسيرته العلمية ناشرا الموروث العلمي الذي أخذه بالسند عن أسلافه علماء الحجاز خاصة، له مؤلفات كثيرة في علوم الحديث والفقه المالكي وواقع العالم الإسلامي.
يرى كثير من المتخصصين والمهتمين بالتعليم الديني أن محمد علوي المالكي من كبار المحدثين المعاصرين ويلقبونه بمحدث الحرمين، ومن أهم فقهاء الحجاز على المذهب المالكي وعلى عقيدة أهل السنة والجماعة وفق منهج الأشعرية. كانت له حلقة شهيرة في المسجد الحرام بمكة المكرمة تعتبر امتدادا لأكثر من 600 سنة من تدريس أجداده، ويعتقد البعض أن سبب توقفها يرجع إلى إقصائه من قبل علماء آخرين من السعودية على علاقة بالمؤسسة الدينية الرسمية لكونه لا يتفق مع منهجهم، وقد تعرض للتحقيق والمتابعة أكثر من مرة من قبل هذه الجهة، وربما يؤكد هذا أن أغلب مؤلفاته طبعت خارج السعودية. تحصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بجامعة –

وجاءت المشاركة التي احتوت 30 شخصية نخبوية تمثل المذاهب والتيارات كافة، من أجل صياغة تصورات علاجية للقاء الذي حمل عنوان (الغلو والاعتدال.. رؤية منهجية شاملة)[7] وصيغت على إثره توصيات، ظلت حبيسة الأدراج حتى يومنا هذا.

الأزهر بمصر. منحته جامعة الأزهر درجة الأستاذية الفخرية (بروفيسور) في 2 صفر 1421 هـ / 2000 بناء على ما تضمنه التقرير المفصل من تقييم علمي للأبحاث والمؤلفات المقدمة على المستوى العلمي الأكاديمي في مجال التخصص الدقيق وذلك باسم الجامعة الإسلامية الحكومية بقدح دار الأمان بماليزيا. انتخب رئيسا للجنة التحكيم الدولية لمسابقة القرآن الكريم أعوام 1399 هـ، 1400 هـ/1980 ، 1401 هـ/1981 وهو أول رئيس لها. أقام أكثر من ثلاثين معهدًا وثلاثين مدرسة في شرق آسيا وجنوبها. ظل مجلس درسه على الدوام حافلا بالشباب والشيوخ إلى جانب المجاورين من الطلاب وبالأخص القادمين من جنوب آسيا الذين كان يتكفل بإيوائهم وتدريسهم أصول الدين والفقه وعلوم الحديث وقواعد اللغة العربية ليعودوا ليتأهلوا كدعاة للإسلام في بلدانهم. صدر عنه كتاب يتناول حياته وفكره وعلمه وآثاره بعنوان: المالكي عالم الحجاز، من تأليف زهير جميل كتبي. درس في حلقات العلم بالمسجد الحرام وبمدرسة الفلاح بمكة المكرمة ثم بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم، وتوجه إلى خارج موطنه لطلب العلم فسافر إلى مصر والمغرب والهند وباكستان. تلقى دراساته النظامية في جامعة الأزهر وحصل على الماجستير والدكتوراه من كلية أصول الدين بالأزهر ثم رحل إلى المغرب ليأخذ عن كبار علمائها. عين مدرسا بكلية الشريعة بمكة المكرمة عام 1390 هـ الموافق للعام 1970م ثم عين مدرسا بالمسجد الحرام عام 1391 هـ بعد وفاة والده وكان عضوًا بهيئة التدريس بجامعة الملك عبد العزيز (قسم الدراسات الإسلامية)، توفي السيد محمد علوي المالكي في بيته بمكة المكرمة فجر الجمعة 15 رمضان في سنة 1425 هـ (2004) وقد صلي عليه صلاة العشاء في المسجد الحرام ودفن في مقبرة المعلاة ، كما حضر مراسم الدفن والعزاء الكثيرين من وجهاء البلاد وأصدقاء الشيخ وتلاميذه، وقد قام الملك عبد الله بن عبد العزيز عندما كان وليا للعهد بتعزية أسرته شخصيًا ونيابة عن الملك فهد بن عبد العزيز.

(5) مسؤول سعودي بارز من مواليد مكة المكرمة عام 1940، حصل على شهادة البكالوريوس في الجيولوجيا من جامعة الملك سعود عام 1967، ثم نال الماجستير والدكتوراه في كوورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية، من المناصب التي تولاها : وكيل وزارة المعارف، مدير جامعة الملك عبد العزيز، وزير الإعلام، من أبرز مؤلفاته (علموا أولادكم حب رسول الله)، (المسلمون السود في أمريكا)، توفي عام 2010.

(6) الدكتور سامي محسن عنقاوي: من مواليد مكة، معماري معروف ، حاصل على الدكتوراه في المعمار الحجازي الإسلامي من جامعة لندن عام 1988، قام الدكتور عنقاوي بترميم وتجديد العديد من العمارات التاريخية بالحجاز، مثل منزل الشافعي، الكائن بحارة المظلوم في منطقة البلد بجدة. كما قام بتجديد صالة عرض المنتدى الواقعة في حارة المظلوم بجدة. وتعتبر دارة العنقاوي الشخصية في جدة بحي الشاطئ؛ المكيّة، والتي أنشأها على أساس التراث الحجازي التقليدي، تعتبر متحفاً مفتوحاً لزوار المدينة والسائحين.أسس مركز أبحاث الحج، ورأسه من عام 1975 إلى 1983. يعتبر ومن أشد المعارضين لعمليات الهدم التي طالت المئات من المواقع التاريخية الإسلامية في مكة والمدينة المنورة خصوصاً والحجاز عموما، بزغ نجمه في الصحافة الدولية في السنوات الخمس الماضية، فظهرت آراؤه على مطبوعات؛ التايمز، واشنطن بوست، وول ستريت جورنال، فوربس، نيوزويك، نيويورك تايمز، ناشيونال جيوغرافيك. وعلى تلفزيون؛ BBC، PBS، CNN، الحرة، العربية.اشتهر بردائه الحجازي الكلاسيكي، وباعتماره للعمامة الغبانة المكيّة. وهو من أهم رموز الثقافة الحجازية المعاصرين. ويقيم في دارته بجدة ندوة ثقافية أسبوعية للشباب. يحضرها لفيف من الأنتلجنسيا والمثقفين والشباب ذوي الثقافة الحجازية، وكان أحد أشهر نشاطاتها، إقامة حفل موسيقي للسلام والتلاقح الإنساني جمع بين فرقة جاز وبوب أمريكية، وبين فرقة للفنون والمقامات الحجازية التقليدية، عُرفت باسم (الجاز والحجاز).

(7) الموقع الالكتروني الرسمي لمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.

ولا يمكن التطرق أيضاً لمستويات العلاقة مع الصوفية في المملكة، بمعزل عن التطرق "لعمومية إشكالية الحوار المذهبي"، القائمة أصلاً على مستوى الخارطة المحلية، فهناك أطراف تحثُّ الدولة على ضرورة الاعتراف بكافة الفرق والمذاهب والتوجهات، وأن يكون ذلك الاعتراف واضحاً ومعلنا للجميع، إلا أنّ تحقيق هذا المطلب لا يبدو مستساغاً، إذا ما فهم تشكيل وبناء الدولة المركزية السعودية على فتراتها الثلاث، والذي توافقت فيه رغبات الإمامين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود، في وجود تحالف "ديني سياسي" على الأرض، والذي لا يمكن من خلاله الاقتراب من هذا التابو (الممنوع) الذي سيثير أركان المؤسسة الدينية التي تتشدد في هذه المفاصل كثيراً.

الموقف السلبي مِن الصوفية

ويمكن الاستشهاد في ذلك برؤية المستشار والقاضي السابق محمد بن صالح الدحيم الذي يشير إلى أنّ تكوين السعودية ذو حساسية، حيث إن الحالة العلمية السائدة في كل مناحيها "الدرس والإفتاء والقضاء والتأليف والخطابة"، له نفس واحد تقليدي مكرور في أغلبه إلى درجة تلغي في الأعم الأغلب الرأي الآخر والحق الآخر، وهذا المنهج كان مفيداً سياسياً حال توحيد البلاد، حيث سيخلق مرجعية متمركزة، يمكن إدارتها بجدارة، إلا أنه مع مرور الزمن وتحديث الحالة السياسية، وفقاً لطبيعة السياسي، ومتطلبات المراحل والتغيرات العالمية، كل ذلك والحالة العلمية تتحرك

مكانها، وتعيش حالة انعزال ليس فقط عن السياسي أو المذهبي أو الرأي المختلف، بل حتى عن مجتمعها[8].

يتعلق ذلك بما ورد مؤخراً من تحذيرات تجاه الطرق الصوفية، في خطبة جمعة مفتي عام السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء، ورئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، الشيخ عبد العزيز آل الشيخ في الجامع الكبير بمنقطة قصر الحكم بوسط الرياض، ووصف خلالها قادة الطرق الصوفية، بأنهم دعاة ضلالة وخرافات، ومنهجهم غير منهج المسلمين[9].

لم تكن هذه الفتوى هي الأخيرة في ساحة "الحرب غير المعلنة" بين المؤسسة الدينية والصوفية، ففي فبراير/ شباط 2010 الماضي، شن المفتي هجوماً آخر في خطبة الجمعة أيضاً اتهم فيه "الجماعات الصوفية بالفرق الضالة" مشيراً إلى أن "مواقف أتباع هذه الفرق سيئة ومفسدة في العقيدة والأخلاق وتشويه سمعة الإسلام"، رابطاً في فتواه بين الصوفية والشيعة، وهو ما ينكره علماء وقيادات التصوف السعودي.

في المقابل يمكن الاستشهاد بخبر نشرته صحيفة الوطن، من إغلاق السلطات المحلية مسجدي عمر بن الخطاب وسلمان الفارسي بالمدينة المنورة، وهما من المساجد السبعة في الجهة الغربية من جبل سلع

---

(8) مجموعة مؤلفين،الحوار المذهبي في المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2006، ص 83.

(9) وكالة أنباء المجتمع السعودي، 4 يونيو / حزيران 2011، http://www.news-sa.com/snews/3363-2011-06-04-10-01-03.html

التاريخي بالمدينة، وهي جزء من حالة الخلاف بين أركان المؤسسة الدينية المناهضين لتلك الآثار، وبين الصوفية بحكم تعظيمهم لها[10].

نستطيع القول: إن هذا الملف مرّ بأشد المراحل حساسية إثر فتوى صدرت منذ نحو ثلاثة عقود من المؤسسة الدينية إبّان رئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز؛ بحق القيادي الصوفي في الراحل السيد محمد علوي المالكي، تتهمه فيها بنشر البدع والخرافات، والدعوة إلى الضلال والوثنية[11]، وذلك في فتواها رقم (86) والصادر بتاريخ 11-11-1401هـ. أعقب تلك الفتوى - التي وصفت بـ"الشديدة" - حملة على المتصوفة في السعودية، من قبل التيار الديني الرسمي، وأنصاره من تيار السلفية التقليدية، طالت منع إقامة الموالد النبوية والمظاهر الدينية الصوفية الأخرى.

وحينما سُئل عضو المؤسسة الدينية والمستشار بالديوان الملكي الشيخ عبد الله بن منيع في اثنينية عبد المقصود خوجة – في حفل تكريمه- عن كتابه الذي أصدره قبل ثلاثين عاماً بعنوان (حوار مع المالكي في رد ضلالاته ومنكراته)، بعد تطور فكره حتى صار مشتهراً لدى مجموعة من طلبة العلم ورجال الفكر والدعوة بالتيسير في الفتاوى والبعد عن ضيق الأفق وبالانفتاح على الآراء الفقهية المختلفة في قضايا النوازل المحدثة، فهل هذا التطور في حياة الشيخ ابن منيع مؤثر عليه في حال إعادته تأليف كتابه (حواره مع المالكي) فيتفاعل مع هذا التطور، ومع الرأي الفقهي

---

(10) جريدة الوطن، 17 يونيو 2011، الجمعة، السنة الحادية عشرة، رقم العدد 3913.
(11) ياسر باعامر. الجزيرة.نت. 20 يونيو (حزيران) 2010:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/2698666D-D4E0-4303-A9FD-089DD5772C75.htm

الآخر المسلّم بوجاهة الاتجاه نحو إقامة الاحتفال بالمولد النبوي كل عام؟ أجاب الشيخ عن السؤال ونشر رده في مقالة خاصة قائلاً: "إن التبشير والتيسير والتسامح والبعد عن جرح المشاعر مبادئ يُبنى عليها ديننا الحنيف. وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية والتقريرية ما يؤكد هذه المبادئ، وتتجلى منها سماحة الإسلام وتسامحه. يوضح ذلك ويجليه وصف عائشة رضي الله عنها منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في التيسير حيث قالت: "ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما".

ويقول ابن منيع :"لا شك في أن من الإثم الخروج عن قواعد الدين وثوابته، ومن قواعد ديننا الاقتصاد في التمسك على ما جاء عن الله في كتابه الكريم، وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته الشريفة"، ليصل الشيخ بن منيع بعدها إلى القول: "هذه الموالد الحولية يجمع القائمون عليها والمنادون إليها أنها بدعة ولكنهم يتمسكون بالقول بأنها بدعة حسنة، ومن المعلوم المحقق أنه ليس في الدين بدعة حسنة وبدعة سيئة، وإنما البدعة مهما كانت فهي ضلالة في النار، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مضى له في النبوة والرسالة ثلاث وعشرون سنة ونصف السنة وليس في سيرته ولا في سيرة أصحابه الخاصين به والعموم إقامة موالد لحياته صلى الله عليه وسلم ومواليده وهجرته وغير ذلك من حركاته وسكناته، فهل أهل العصور المتأخرة أكثر ولاء ومحبة واتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب رسول الله؟".

وسرد ابن منيع في مقاله المطول ما يعطي دلالة مهمة على النظر للمتصوفة وفق الرؤية الدينية المحافظة، والذي يعطي أيضاً دلالات مهمة في نوعية العلاقة الحالية والمستقبلية والتي يقول فيها : "والله ثم والله وتالله لو وجدنا أثراً عن رسول الله أو عن أحد من أصحابه أو عن أحد من التابعين أو تابعيهم من أهل القرون المفضلة، لو وجدنا أثراً منهم يؤيد إقامة الموالد لما ترددنا في الاقتداء بهم في ذلك. ولكنه المبدأ العام في التقيد بحدود هذا الدين وحمايته من التغيير والتبديل والإحداث والزيادة والنقص طبقاً لقول فقيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم». ثم أجبت السائل بأمرين: أحدهما: أن السيد محمد علوي مالكي رحمه الله أحد علمائنا الأفاضل، وإن كان عليه بعض الملاحظات فهي نتيجة اجتهاده، ونرجو الله تعالى أن يسامحه على تجاوزه فيما أخطأ فيه" .

ويصل الفقيه ابن منيع إلى مؤشر مهم "ثابت لا يتغير" : "إن أردت أن أعيد الكتابة لكتابي (حوار مع المالكي)، وفق ما يريد الداعون إليها والمروجون لسوقها فإخلاص العبادة لله مبدأ ثابت لا يتغير مهما تغيرت الظروف والأحوال والأزمنة والأمكنة، والعمل وفق سنة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم مبدأ ثان له من الثبات ما لإخلاص العبادة لله، والقرآن الكريم مملوء بالإشادة والثناء على العمل الصالح بعد الإيمان بالله، والعمل الصالح يشترط في صلاحه أمران: الإخلاص به لله تعالى، وأن يكون وفق ماجاءت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن يمكنني وأنا أعيد ما كتبته سابقا أن أعيد النظر في الأسلوب السابق بما لا يترتب

عليه جرح مشاعر مع الإبقاء على الأصل في الاعتقاد والانتقاد، ولاشك في أن الفتوى تتغير بتغير الأحوال ولكن بشرط ألا يكون هذا التغير معارضاً لنص صريح من كتاب الله أو من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو أن يكون ذلك متعارضاً مع مقصد شرعي أو مصلحة عامة للمسلمين، أو أن يكون معارضاً لإجماع المسلمين أو لقياس صحيح، كما يجب أن يكون هذا التغير محققاً لمقصد شرعي من مقاصد الإسلام. أما أن يكون التغير مجاراة للوضع الحالي دون أن يكون هناك تبرير شرعي فلا يجوز"[12].

سنعرض تفاصيل أكثر في موقف علاقة المؤسسة الدينية الرسمية بالصوفية ووجهة النظر الرسمية في تكوين العلاقة، ورؤية السلفية بجناحيها التقليدي العلمي والحركي، وكذلك رؤية الإخوان المسلمين، ومدى ارتباط الوضع الداخلي للمتصوفة، بالمؤشرات الخارجية الإقليمية والدولية، وأهمية ترتيب بيتها الداخلي لإنضاج علاقتها بكافة المستويات المحلية بدءً من الدولة وانتهاءً بالفصائل الأخرى، وأهمية ذلك بعد تغييب الموت لعدد من الرموز المؤثرين في المشهد الصوفي كالسيد المالكي (2004 بمكة المكرمة)، ووزير الإعلام السعودي الأسبق محمد عبده يماني (نوفمبر2010)، وتنوع المسارات التي أحدثتها وفاة الرموز.

سأعرض رؤية الجيل الجديد من المتصوفة خصوصاً بعد ربيع الثورات العربية الذي بدأت شرارته من ثورة الياسمين بتونس، لتلحق بها

---

(12) عبد الله بن منيع، لوأعدت كتابة "حوار مع المالكي"، لما تغير شيء، جريدة عكاظ، 17 مارس 2011، العدد 3560.

مصر وليبيا واليمن وسوريا، وما تلا ذلك من عرائض إصلاحية سعودية، قدمتها النخبة السعودية وشبابها تطالب بمزيد من "الحريات السياسية الداخلية"، حيث تشير اللقاءات التي أجريتها إلى أن عدداً من الشباب المتصوفين شاركوا إما صياغة أو توقيعاً في تلك العرائض، وهل يمكن أن يؤثر ذلك على تطور حركة التصوف عموماً بخروجها من "التزكية الروحية"، إلى "التزكية السياسية".

الصوفية والدولة السعودية

نادراً ما تركز التقارير الإعلامية الأمريكية على "التصوف السعودي"، أو ما يطلقون عليه "الإسلام الشعبي"، بل كان التركيز يصب على الصوفية عموماً، إلا أن أبرز تقريرين كُتبا في ذلك كانا ما بين مايو(آيار) 2006، وفبراير(شباط) 2007، يوضحان فيه مستوى العلاقة بين "الصوفية والقيادة السياسية السعودية"، حيث أشار تقرير لصحيفة الواشنطن بوست، إلى أنّهَ في "الأجواء الجديدة التي سيطرت في أعقاب هجمات 11 سبتمبر، عقد الملك عبد الله سلسلة من الاجتماعات للاعتراف بالطوائف والمذاهب المختلفة في البلاد، وكان من بين الضيوف المالكي زعيم الصوفية، وعندما توفي المالكي حضر الملك جنازته[13].

ويؤكد التقرير الأمريكي التغييرات الحاصلة في المملكة بعد أحداث سبتمبر 2001 وأن من الفوائد التي جناها الصوفيون، أنهم وجدوا

(13) عودة الصوفية للمملكة، جريدة الواشنطن بوست الأمريكية في آيار(مايو) 2006، مترجم.

لأنفسهم مكاناً على الخارطة المذهبية في المملكة، بعد أن كانت تجمعاتهم حتى وقت قريب سِرية لاسيما في إحياء المولد النبوي الذي يعتبر ركناً أساسياً بل الأكثر روحية لدى المتصوفة، كما كان اعتمار العمامة الصوفية المعروفة دليلاً على التصنيف، ما كان يعتبر في حينه شيئاً ممنوعاً..

استفاد علماء الصوفية بدورهم من أجواء الانفتاح، وشرعوا في استغلال المناسبات الدينية والمنابر الإعلامية في توجيه خطابات لأتباع التيار السلفي مفادها أن الصوفية ليست طائفة تتبع ديناً آخر، وأنهم يعيشون حياة تتمحور حول مفهوم الإسلام عن الإحسان، مشيرين إلى أن الصوفية مظلومة ومجهولة لأن الناس لم يعرفوها على حقيقتها، ومجهولة لأنه دخل فيها ما ليس منها، والمطلوب أن تؤخذ من أصحابها.

وعلى الرغم من "البراجماتية" التي تتمتع بها المؤسسة السياسية السعودية، في تجسير علاقاتها الداخلية أو الخارجية، فإنها ستكتفي داخلياً في ملف "الإسلام الصوفي" بعدم "إثارة مؤسستها الدينية أو حتى الأطراف الإسلامية التقليدية" أو التي لها رأي مناهض للتصوف عموماً، خصوصاً بعد تصاعد وتيرة "الثورات التي شهدتها المناطق" المجاورة للعربية السعودية، وأمر آخر فإن "المجاملة وردّ الجميل السياسي" حاضر أيضاً بعد وقفة "الإسلام الرسمي" والفصائل الأخرى في خلع رداء "الشرعية الاحتجاجية" عن ثورة حنين (11 آذار/ مارس 2011) – مجهولة المصدر– التي انطلقت عبر صفحات موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك، للمطالبة بإسقاط النظام إلا أن أحداً لم يخرج في تلك التظاهرات.

وظهر ردّ الجميل جلياً في 18 مارس(أذار) حين أصدر الملك عبد الله سلسلة قرارات معيشية "بناء على الموقف الداخلي الاجتماعي عامة والديني المؤيد للنظام"، فكان نصيب المؤسسات الدينية عموماً ما يقارب 370 مليون دولار أمريكي، لذا ستغض السلطات الطرف عن أية محاولات "للضغط على المؤسسة الدينية"، بحلحلة ملف "صوفية الداخل"، حتى إشعار آخر، مع التأكيد على عدم شروعها في اتخاذ "المتصوفة" خصماً سياسياً داخلياً، بل تعتبرهم إحدى مكونات المجتمع السعودي ولو ضمنياً كمحاولات إعطاء الأسر الحجازية عدداً من المناصب الوزارية كوزارة الحج، والثقافة والإعلام، والصناعة والتجارة، ومناصب السفراء والقناصل الممثلين للدولة في الخارج.

لكن أيضاً هناك إشارات – يسوقها البعض - يمكن لنا فهمها من لجوء أجنحة محسوبة على أطراف في الدولة إلى إشغال "الخط الديني الداخلي"، بمسألة الصوفية، وهو نموذج تلجأ إليه عادة القوى السياسية المسيطرة، بهدف توجيه مسارات الحراك الديني لديها، ويبقى بذلك مركز التحكم بيد السلطة، في حين أن "المقابلات الخاصة المتنوعة"، التي أجريتها تؤكد على مسألة مهمة، تتمثل في "غياب رؤية الدولة المركزية السياسية والإستراتيجية" في التعامل مع الملفات المذهبية، وأن الأمر لديها مرهون باللحظة أو الفعل السياسي الوقتي المرتبط بالأزمات أو الظواهر السياسية، التي يمكن أن تحدث هنا وهناك.

وفي رؤية تحليلية خاصة[14]، يشير الدكتور خالد الدخيل، إلى ضرورة أن تبقى الدولة خارج لعبة "الطوائف والعلاقات الدينية الداخلية"، وهذا ما تفعله حالياً، فموقف السلفية الرسمية لم يتشكل منذ نشوء الدولة السعودية الأولى، بل تشكل قبل ذلك في أدبيات السلفية الأولى إبان دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب القرن الثامن عشر الميلادي/ القرن الثاني عشر هجري، حيث كان هناك موقف مضاد من صوفية نجد القلائل.

ويرى الدخيل أيضاً للخروج من مأزق العلاقات المتباينة المتشجنة ما بين "الصوفية والإسلام التقليدي والسياسي الصحوي"، أن توفر الدولة الإطار الدستوري لجميع هذه المكونات، ضمن ما يطلق عليه "المجتمع المدني"، مؤكداً أن الأجنحة الثقافية في التيارات الداخلية ستكون لها كلمة الفصل والدور الرئيسي في تذليل تلك العقبات بين مختلف المكونات ولو بالحدّ القليل.

ووفقاً لتقرير منشور بموقع "الجزيرة نت" فإن موقف السلطات السعودية، إزاء ما تتعرض له الصوفية من إقصاء من قبل التيارات السلفية، لم يواجه إلا بحالة من الصمت الرسمي، حتى لا تخسر تعاونها مع المؤسسة الدينية الرسمية لاحتياجها لها في بعض المواقف الداخلية والخارجية، وأضاف التقرير الإخباري أن السلطات تحاول استرضاء الشخصيات الحجازية التي تتعرض للإقصاء التي غالباً ما تنتمي إلى أسر لها علاقة بالتصوف ببعض الحقائب الوزارية[15].

---

(14) مقابلة أجراها الباحث عبر الهاتف، مع أستاذ علم الاجتماع السياسي الدكتور خالد الدخيل في يوم الإثنين 20 حزيران 2011، الساعة 5 مساء، واستمرت لساعة كاملة.

(15) الجزيرة.نت، مصدر سابق.

وتاريخياً مع انضمام الحجاز لحكم الملك عبد العزيز آل سعود في الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين ميلادي)، ودخول الحرمين تحت سلطة الحركة السلفية من أتباع منهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة 1206هـ/1792م الذين رأوا بدعية كل أشكال مجالس الذكر الجماعي، وحرمة العديد من الممارسات الدينية، كالتوجه إلى المدينة المنورة بقصد زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ناهيك عن زيارة المشاهد الأخرى كقبر السيدة خديجة بنت خويلد في مكة مثلاً، وحرمة إحياء المناسبات المرتبطة بالنبي كالمولد الشريف، وحرمة زيارة عدد من الأماكن المتعلقة بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام كجبل النور حيث غار حراء، وجبل ثور حيث الغار الذي اختبأ فيه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه حال الهجرة، إلى غير ذلك من المواقع والبقع الأثرية النبوية.

كان من جراء ذلك أن تمّ هدم مختلف القباب والأضرحة، ومنع التوجه لزيارتها، ومنع إحياء عدد من المناسبات المتعلقة بالنبي، كذكرى مولده في شهر ربيع الأول، وذكرى الإسراء والمعراج في شهر رجب، وتم وقف كل أشكال مجالس الذكر الجماعي، وإغلاق ما كان موجوداً من تكايا وزوايا صوفية، إلى غير ذلك من الأعمال التي قُصِد منها التضييق وإنهاء أي مسار للتصوف بمنطقة الحجاز.

ومع الإقرار بنجاح مختلف تلك الأعمال في إنهاء ظاهرة تواجد الطرقية الصوفية في الحرمين الشريفين بوجه خاص، إلا أنها لم تَحُدّ

من ممارسة بعض أشكال التصوف، ولو على النطاق الاجتماعي الخاص، كإحياء مجالس الذكر الجماعي، وإحياء ذكر عدد من المناسبات النبوية التي حافظ على أدائها كثير من أبناء المجتمع الحجازي الحضري، اعتقاداً منهم أنَّ المحافظة عليها حفاظ على هويتهم الاجتماعية بوجه خاص، تلك التي أخذت في الانحسار مع تنامي أعداد أبناء المجتمعات القبلية من مختلف أنحاء المملكة، الذين استوطنوا الحرمين بثقافتهم ونظرتهم الاجتماعية الرافضة للآخر.

وعمد شيوخ الحركة السلفية إلى ربط بعض المسائل الدينية كالتوسل بالأنبياء في الدعاء وقصد السفر للزيارة النبوية؛ إلى غير ذلك من المسائل التي يرون عدم جوازها، بصوفية الحجاز والتصوف بوجه عام، وازداد الأمر سوءً حين آمن العلماء المحسوبون على الحركة الصوفية في الحجاز بعقيدة الأشاعرة، المرفوضة كلياً من قبل شيوخ الحركة السلفية، الذين أصدر البعض منهم فتاوى وكتباً بتكفير معتقدهم، وهو ما زاد من توتر العلاقة بين الطرفين في الحجاز والعالم الإسلامي[16].

أدى ذلك التوتر – كما يقول الباحث في حركة التصوف الدكتور زيد الفضيل[17] - إلى دعم العلماء المسلمين لعلماء الحرمين من أهل

---

(16) يمكن مراجعة.سفر الحوالي.منهج الأشاعرة في العقيدة، تعليقا على السجال الذي دار بين عضو هيئة كبار العلماء صالح الفوزان وبين الشيخ محمد علي الصابوني على صفحات مجلة المجتمع الكويتية:
http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&contentID=88
أيضا: صالح الفوزان.الأشاعرة ليسوا من أهل السنة والجماعة.فتوى صوتية:
http://www.alfawzan.ws/node/8418
ايضا: صالح الفوزان.ليس في السلف من هو من الأشاعرة.فتوى صوتية:http://www.alfawzan.ws/node/8396

(17) أجرى الباحث، مقابلة خاصة، مع الدكتور زيد الفضيل في يوم الخميس 26 آيار/مايو 2011، بجدة غرب السعودية، من الساعة العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا .

الحجاز في خلافهم مع شيوخ الحركة السلفية وهيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية خلال فترة ماضية. كما كان له أثره في تشجيع استمرار الحركة العلمية ضمن إطار المدرسة الصوفية، وهو ما تمثل في مدرسة السيد محمد بن علوي المالكي، الذي حرص أهل الحجاز من الأعيان ورجال الأعمال على دعمه مالياً، وتشجيع مختلف جهوده العلمية، وإضفاء مظاهر الشرعية العلمية والدينية عليه، لاسيما بعد تعرضه للإقصاء من التدريس في الحرم المكي الشريف، وتبديعه وتفسيقه من قبل هيئة كبار العلماء أوائل عقد الثمانينيات الميلادي من القرن المنصرم، وإصدار أحد أعضاء الهيئة العلمية من الحركة السلفية وهو الشيخ عبد الله بن منيع كتاباً يرد فيه على ضلالات المالكي كما ورد في عنوان كتابه.

وأصبح السيد محمد منذ ذلك الحين وحتى وفاته يُمثل بمظهره وشخصيته عَلماً مكياً بارزاً وقطباً عالي المقام عند كثير من أتباع الطرق الصوفية في الخارج، على الرغم من عدم انتمائه إلى أي منها بشكل دقيق، ويمكن القول حينها بولادة وظيفة أخرى للحركة الصوفية في الحجاز، لها مظهرها السياسي في حال اعتبارنا لبروز المقام الديني كأحد المكونات الجوهرية للحكم السياسي في عالمنا الإسلامي.

يشير الدكتور الفضيل إلى إن السيد محمد جَسَّدَ بشخصيته المكية الحيوية، وعُمق علمه المعرفي ووسطيته من احتواء جُلّ أبناء الحجاز، لاسيما المنخرطين في المسار الليبرالي والقومي منهم، علاوة على قدرته على الصمود أمام المؤسسة الدينية السلفية، وتمتعه بمقدرة فائقة على

áàÌß• Ý‹Ž¿Ó åã í ê—ã©Øã òÓ ñí
í “©Ž‘Ë ê‘àÁ–í åŽçÓ³£áàÌß• ìãàÌ •íãàÌ—
Ý¯Žçã áàÌß• å÷ ”‘-× êàë÷ êß«‘ í
ï•-³ß• ðàË ÝóßÒß• í “íà§ß• òÓ ™©
©çË- -óìÅß• í ©Ž·-ß• ðß³ßñ©íŽïìß§ßí•
“©Ž× -ó§àß áìàÌŸóÓ Žã•í×ƒ ê‘ êìàß
Ý„³ç ïŽóØ·÷• êã-£ó í ï•©Ì³ß• ðß
û• êß• û ”ã-£‘ -Žó§÷• “-ã¯ òÓ Žç-
êçË Ì ŽÔË ÝŽ× á› Ýí‹³ã á-Ûƒ í

û…³ åóÌ‘-ƒ í ±ã§ ðÝàŽË ãïŽÝ

“¯ãìßŽ‘ í ÑŽÛßŽ‘ ÙŽë í á©Ø— Ž
í ¦ß• áàË ðàË -óã¿ß• í «§ ðç
ðàïË»Ó ü»Ó Žçó‘ã ñƒ üó»Ô— é-ó©
åó‘ ¯ŸŽ£ß• ”Ðß Ý»Ôß• í åóó‘—ß
í é-óÏ í ÊÁØß• í ©íßíãß• áÁÓ í
ÝŽ›ã ðàßË×ïŽŸ êŽ‘ß• Ñü§‘ Žë©Ì‘ Žã
í ±ã§ •û•…³ ©©Ë ðàË ûí»Ó Žçó‘ã
”Ô» í ¹Ž»Øß• í -•©êØŽß‘ áŽÝØã–ß•ŽãÛ
í ”³ã§ß• •û•ïðàßË -Ý•í»Øß• •ïŽŸ ñƒ ±
”³ã§ êß Ý„³ å÷ Ý„³ß -©»ã íìÓ ¹çß
í ñ-‘ÛÌß• ÝŽ× í Ùó-£—ßŽ‘ ”ß…³
ÝŽÐ—·û• í ¹£Ôß• í•ŽïçËãá•…Ýß»Ô‘ß×
ðì—ç• -•©ß• Ùà— í é«ë òÓ -Ž‘Ÿ
•çŽÛ Ùß«Û ŽìóàË ••íŸß• ”çã¿—ãí
Žì‘³ŽÛ í Žì‹-ŽØß í Žçß ðßŽÌåóÌ‘-ƒ–í
áÌç íë -ó©Ÿ ”‘ŽŸûŽ‘ í -ó©× Ùß« ðà
áóÅÌß• òàÌß• •Ž‘ û• “í× û

êß• û êçƒ áàËŽÓ ðßŽÌ–ãßÝ•Ž×Û« á©

•Ží· ã • ÝŽ× í •«Û ë ÝŽØÓ ëÓ
åã êãí»Ë§„— Žãí Žìçã á©Ø— Žã ê‘í
•ÌÁ—³• Žã Ù©Ëí í Ù©ìË ðàË Žçƒ í
û• •íç«ß• -ÔÐó û êçŽÓ òß -ÔÏŽÓ
í ÝãË ÝÛí Ýí× ÌÝ-ÛÔðã—áƒÅÌß•íØó ð
íƒ ê—Û-—Ó ê‘ êßí³-

ê‘ ŽçÌÔç í Ì êã£- ê—Ž×íƒ ”ãŽË
åÓü •íŸ- ÝŽØó ©í©ãã Ýã÷• åã
ïŽŸ-ß• åíÛó ©× í Ñí§ß• ©¿ ŽË-
ðßŽÌ— Ì ”ãÅË åíÓŽ§— û ñƒ ”óõ•
•í‘£ã‘ •àØß• ÖàÌçË ÖË£ß• ÝëŸ- ”ó£Ž
™ü› íë í ©ŽÌóãß• å³£‘ ©•…Ôß•
åã åóÌÓŽ·ß• ”ËŽÔ· òÓ êßí§© íŸ-ó
Ù‘- ÙóÁÌó Ñí³ß í ðßŽÌ©Ž‘êßíåØãßé-
Ì á-Û òàË áŽãû• ÝŽ× í -Žçß• òÓ
•Ž‘ åŽãóû• ”£» Êã ”ËŽÔ·ß• åíŸ-ó
”óçŽ›ß• ”ËŽÔ·ß• ÕŽØ£—³• •Ÿ§ã
••í›ß• •àÁí •ŸÌß•í ”Ìã³ß• í ïŽó-ßŽÛ
ûí Ž£ßŽ» üãË ÝãÌóàÓ ê‘- ïŽØß íŸ
ÝÛ •Ì³í ò—ã£- í ðßŽÌ— êßíØß
ÝÛ ”ã£- ”‹Žã ½-÷• í ••íŽã³ß• Öà
ðàË “ÑÁÌ•íß•ŽìóÓ ½-÷• òÓ ”ã£- Ž
Žìàãû ”ãŽóØß• áíó åŽÛ •«ŽÓ åó
åƒ û• ðçÌã‘ -³ÛßŽ‘ í á¿ßŽ‘ å•í¿-
ïŽ¿Øß• -ã³‘Éà·Øß•Ý-ëƒ ©çË í Á§
éŽ¿- í -Žçß• ðßŽÌ— Ì •¿Ï ÝŽ× åã
•¿Ð‘ •Ÿí—³— -Žçß• åƒ ÝŽØó åƒ û•
êà¿Ó í êçã‘ Ùß« åãíð”ßÓŽ•Ì—-ÌŽçê«Ž
áìçË Ì ò¿- ðßŽÌ— ÝŽ× é©íŸ í
òÓ íë í -©×í ð¿× Žã ÝÛ òÓ êçË
•ŽóŽìçß• òÓí ûí³- Žó‘ç áà³áû³ûóŽ
Ýëƒ ©çË í ê—ŽÔ» í êãí³- -‹Ž³ òÓ
-ã‘ •àØß• -í-³ ”Ìó-·ß• òÓ ŽãÛ ”ó
ðàËƒ íë ñ«ß• ½óíÔ—ß• áŽØã åã ê
Ùß«ß í Žì³Ž³ƒ í ”ó©í‘Ìß• -•©ã êó